تصحيح

نرجو حضرات القراء تصحيح نسخهم علي ما يأتي:

ص	س	خطأ	صواب
٣٨	٤	وقا الذين	وقال الذين
٦٢	١٤	القحطانية التي تمت	القحطانية التي لاتمت
٩٤	١١	وبعده الى مكة	وبعده الى المدينة
١٠٢	٢١	عصبة	عصبية
١٢٠	٥	لتارفوا	لتعارفوا
١٢٠	٢٤	بفصل	بفضل
١٤٤	١٩	قدرسوخ	قدر رسوخ

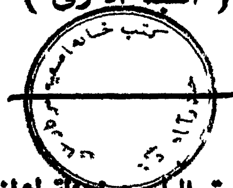
نقد كتاب الشعر الجاهلى

هو كتاب لخص فيه المؤلف فصول كتاب الشعر الجاهلى ونقد منها
ما يتعلق بعلم التاريخ والاجتماع والأدب

تأليف

محمد فريد وجدى

(الطبعة الأولى)



(طبع بمطبعة دائرة معارف القرن العشرين بمصر)
فى ٥ أكتوبر سنة ١٩٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله محمد خاتم النبيين ... اخوانه المرسلين ، وآله وصحبه وتابعيهم الى يوم الدين

مقدمة الكتاب

اما بعد فقد قرأت فى الجرائد منذ شهور، تقاريظ لكتاب وضعه الاستاذ الدكتور طه حسين ، أسماه (في الشعر الجاهلي)، فقلت فى نفسي مدرس الآداب العربية ، في الجامعة المصرية اراد ان لا يقصر ثمرة جهوده العقلية على تلاميذه ، فنشرها ليستفيد منها الكافة ، فحبذا لو احتذى مثاله جميع المدرسين . ولكني لم ألبث ان قرأت فصولا ضافية الذيول لبعض شيوخ الادب في المدارس المصرية، يشنون فيها على هذا الكتاب حرباً طاحنة، تذهب باليابس والاخضر، باعتبار أنه قد استطرد الى ذكر مسائل اتبع فيها غير سبيل المؤمنين، بل جحد بعض ما نص عليه الكتاب المبين . ثم لم تمض غير ايام حتي قرأت فى الجرائد ان علماء الجامع الازهر قد اجتمعوا وقرروا ان في كتاب الدكتور طه حسين كفرا صريحا، وطالبوا الحكومة بمصادرته ، ومنع مؤلفه عن التدريس، كيلا يفتن نابتة الامة بما يبثه فيها من الاضاليل . و بينما الناس ينتظرون جواب الحكومة اذا بالدكتور يعلن انه لم يقصد الطعن في الدين ، وانه يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر الخ الخ

هذه الحلقات المتصلة من الحوادث التي اثارها هذا الكتاب حفزتني الى الاطلاع عليه. فرأيت فيه اخطاء اجتماعية و بسيكولوجية وفلسفية لا يصح السكوت عليها ، وألفيت الدكتور لاضطراره الى تصيد الاسباب التي حملت ذوي النفوس المريضة

على اختلاق الشعر ونسبته الى الجاهليين ، قد عول على كتب المحاضرات، وهي قرارة الاكاذيب ، ومستنقع المفتريات من كل نوع . فجاء كتابه بما حمل من اوزار المفترين ، و بما غلا هو فيه من تقصي اغراءات المتناظرين ، وتسويلات المتنافسين ، من القادة الاعلين، طامسا لمعالم اكبر ثورة اجتماعية حدثت في العالم ، ألا وهي ظهور الديانة الاسلامية ، وما استتبع انتشارها من سقوط دول وقيام دول ، وفناء لغات وشعوب فى لغات وشعوب ، وتبدل مبادىء واصول بمبادىء واصول ، وطروء عهد جديد على الانسانية انتقلت به درجات كثيرة فى معارج العلم والفلسفة والاخلاق والعمران

لا ندعي هنا ان الدكتور طه حسين قصد الي تشويه جمال هذه الثورة الكبرى في كتابه ، ولكنه بغلوه فى تحرى اسباب الاختلاق، على الجاهليين التقط من كتب المحاضرات جميع مافيها مما يتعلق بالاختلاق، وبالعوامل التي حملت عليه ، و بالمطامع التي دفعت اليه ، ولم يُسَرّ على ذلك مايقضي به عليه مذهب ديكارت من النقد والتمحيص، بل وثق به ثقة مطلقة حملته على اصدار الاحكام جزافا فى تركيب المسلمين الاولين ، وتأليف مجتمعهم ، مما لا يتفق واثر هذه الثورة التي قاموا بها فى عالم الاجتماع والعلم والمدنية ، ولا يتلاءم وما اعترف به عنها خصومها ومناظروها قديما وحديثا

فبينما علماء الغرب لا يملكون انفسهم من الدهش من قوة هذه الحركة الاجتماعية التي انبعثت من بلاد العرب فجأة فرجّت العالم كله رجات اذهلته عن كل شيء الا عنها ، ولا يزال دويها يرن في آفاقه ، يصعب علينا ان نرى واحدا منا يضع كتابا بالغرض قليل الخطر، هو اثبات ان الشعر الجاهلى مختلق ، يكون اثره على قارئه ان يحتقر هذه الثورة الكبرى ، و يستخف برجالها الذين اخذوا حظا من تمثيلها، والاضطلاع باعبائها ، وقد آتت العالم ببركات لا يزال يعترف لها بها الى اليوم

فاذا كان الانجليزى يفخر بأن آباءه كانوا اول من فكر في وضع حد لحكم الفرد، واذا كان الفرنسى يفخر بأن اسلافه اول من فكر في تعيين حقوق الانسان الطبيعية، فهلا يفخر المسلمون بان اوائلهم كانوا بايعاز من دينهم اول من اعلن الناس كافة بان الانسانية قد بلغت سن الرشد ، وانها اصبحت لا يصح ان تخضع لطوائف تنتحل

لنفسها حق الوصاية عليها ، وان السلطان للجماعة لا للفرد ، وان المعول على العقل لا على الموروثات ، وان الايمان بالدليل لا بالتقليد ، وان التمايز بالمزايا لا بالجنسية ولا بالقومية ، وان الحكم بالشوري لا بالاستبداد، وان الدين هو الفطرة التي فطر الله النفوس عليها ، لا الرسوم ولا الاشكال التي يزينها الوهم ويولدها الخيال ، وان اصل كل الاديان واحد، وما فرق الناس شيعا واحزابا الا قادتهم بما صوروه لهم من الاباطيل والاضاليل الخ الخ ، قلت فهلا يفخر المسلمون بهذه العراقة في الاصول العالية مع الفاخرين ، ويتحققون ان لهم اكبر اثر في ترقية الانسانية مع العاملين ؟

اني ما كدت اتم قراءة كتاب الدكتور طه حسين حتى وجدتني مدفوعا لوضع نقد عليه استهدف به عرضين : (اولهما) مناقشته في المسائل التي تتعلق بتكوين الامة الاسلامية، ولا يتفق حكمه فيها والمقررات التاريخية ، ولا الاصول الاجتماعية، واري الاغضاء عنها ضاراً كل الضرر بنابتة هذا الجيل، وهم في هذا الدور من الانتقال السريع

(وثانيهما) مقابلة اول ثمرات الجامعة المصرية بما تستحقه من العناية، وهذه العناية لا تعني في عالم العلم غير النقد والتمحيص

فالله ارجو ان يجعل عملي هذا خالصا من شوائب المراءاة والمماراة ، وان ينفع به الناس انه الموفق للهداية ، المعين على بلوغ الكفاية

نقد كتاب الشعر الجاهلي

نبدأ بما تصدينا له من نقد كتاب الشعر الجاهلي فصلا فصلا فنُعني بايراد ملخص كل فصل منه بعبارات المؤلف نفسه ثم نردفها بملاحظاتنا عليها فنقول :

الكتاب الاول

١

تمهيد

كتب الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان ما ملخصه :

(هذا نحو من البحث عن تاريخ الشعر العربي جديد لم يألفه الناس عندنا)
(من قبل . واكاد اثق بأن فريقا منهم سيلقونه ساخطين عليه ، وان فريقا آخر)
(سيزورّون عنه ازورارا ، ولكني على سخط اولئك وازورار هؤلاء اريد ان اذيع)
(هذا البحث)

(نحن بين اثنين اما ان نقبل في الادب وتاريخه ما قال القدماء، واما ان نضع)
(علم المتقدمين كله موضع البحث بل الشك . اريد ان لا نقبل شيئا مما قال القدماء)
(في الأدب وتاريخه الا بعد بحث وتثبت ان لم ينتهيا الى اليقين، فقد ينتهيان الي)
(الرجحان)

(بين يدينا مسالة الشعر الجاهلي، نريد أن ندرسها وننتهي فيها الي الحق . فاما)
(انصار القديم فامامهم الطريق معبدة ، اليس قد اجمع القدماء على انّ طائفة)
(كثيرة من الشعراء قد عاشت قبل الاسلام ، لهم قصائد ومقطوعات حفظها)
(عنهم رواتهم ، وتناقلها عنهم الناس ، حتي جاء عصر التدوين فدونت في الكتب ،)
(فلم يبق الاأن نأخذ عنهم ما قالوا راضين به، مطمأنين اليه . فاذا لم يكن لاحدنا)
(بد من ان يبحث و ينقد ويحقق، فهو يستطيع هذا دون ان يجاوز مذهب انصار)
(القديم . فالعلماء قد اختلفوا في رواية الشعر الجاهلي بعض الاختلاف فلنوازن بينهم)
(ولنرجح رواية على رواية ، ولنؤثر ضبطا على ضبط . هذا مذهب انصار القديم ،)
(وهو المذهب الذائع في مصر ، وهو المذهب الرسمي ايضا ، مضت عليه مدارس)
(الحكومة وكتبها ومناهجها)

(واما انصار الجديد فالطريق امامهم معوجة ملتوية. فقد خلق الله لهم عقولا)
(تجد من الشك لذة، وفي القلق والاضطراب رضا . هم لا يطمأنون الي ما قال)
(القدماء، وانما يلقونه بالتحفظ والشك، ويتساءلون أهناك شعر جاهلي ؟ فان كان)
(هناك شعر جاهلي، فما السبيل الي معرفته ؟ وما هو ؟ وما مقداره ؟ وبم يمتاز)
(من غيره ؟ هم لا يعرفون ان العرب ينقسمون الي باقية و بائدة، وعاربة ومستعربة.)
(ولا ان اولئك من جرهم وهؤلاء من ولد اسماعيل . ولا ان امرأ القيس وطرفة)
(وابن كلثوم قالوا هذه المطولات. ولكنهم يعرفون ان القدماء كانوا يرون ذلك)

(ويريدون ان يتبينوا أكان القدماء مصيبين ام مخطئين ؟ فهم يشكون . ونتائج)
(هذا المذهب عظيمة الخطر، فهي الى الثورة الادبية اقرب . وحسبهم انهم يشكون)
(فيما كان الناس يرونه يقينا ، وقد يجحدون ما اجمع الناس على انه حق لا شك فيه)
(واول شيء أفجأك به فى هذا الحديث هو اني شككت في قيمة الشعر الجاهلي ،)
(وانتهى بي البحث الى شيء ان لم يكن يقينا فهو قريب من اليقين . ذلك ان)
(الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء ، وانما هي منتحلة)
(مختلقة بعد ظهور الاسلام . فشعر امرىء القيس او طرفة او ابن كلثوم او عنترة)
(ليس من هؤلاء الناس في شيء ، وانما هو انتحال الرواة ، او اختلاق الاعراب ،)
(اوصنعة النحاة ، اوتكلف القصاص ، او اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين) اه

راينا فى هذا الكلام

ان العبارات التي اتينا عليها في الفصل المتقدم هي ملخص التمهيد الذى وضعه الاستاذ الدكتور طه حسين في صدر كتابه . وقد انتحى فيه مذهبا لا نقول حسنا فحسب ، بل نقول هو المذهب الوحيد الذى لا يصح الجرى على خلافه ، ليس فى نقد ماتركه لنا الاقدمون فى الأدب فقط ، ولكن في كل ما تركوه لنا في جميع فروع المعلومات البشرية . هذا مقتضى النهضة الادبية التي نندفع في تيارها اليوم . وقد اقتضت كل نهضة ادبية في الامم مثل هذا الشعور حيال ما تركه لها اسلافها ، فغيروا بذلك وجوه تواريخهم ، وتأدوا به الي معارف حقة كان لها اكبر الآثار فى بلوغهم الكمال الادبي الذى وصلوا اليه

فتمهيد الدكتور طه حسين هو المنتظر من استاذ الآداب فى الجامعة، ولو جري على خلافه لاعتبر غير خليق بمكانه منها ، ولأضاع على الامة مالا جما ينفق على دروس الآداب ، وعلى الطلاب اعواما نفيسة يبذلونها من اعمارهم في دراستها ، ولما كان نتيجة كل هذه الجهود فى النهاية اكثر من ظهور مؤلف لا يفترق عن مئات الكتب الموجودة بالمكتبات الا في التبويب والترتيب ، ولبقينا حيث كنا من هذا

العلم النفيس الذى دخل فى اطوار كثيرة لدى الامم الغربية ، وأصبح بعيد الأثر في تهذيب نفوسهم ، وتلطيف شعورهم كما هي ثمرته اليانعة في كل جيل

نعم يشق على كثير من الناس ان يشك فيما كان يعده من العقائد المقررة سنين طويلة ، وان يسري على كل ماقرأه فى كتب الادب اسلوبا من النقد قد لا يُبقي فيه ولا يذر . ولكن التبعة التي يشعر بها حفظة الادب، وحملة اماناته، تضطرهم الي تمحيصه ، وتحرير مسائله، وان كره ذلك الناس اجمعون

وكل الذى نأخذه على الدكتور طه حسين فى هذا التمهيد ذهابه الي ان الشك الذى اعتراه فى الشعر الجاهلى حادث ادبي جديد،وان العلماء الأقدمين كان قصارى ماعملوه في الشعر الجاهلى انهم اختلفوا فى روايته بعض الاختلاف ، وتفاوتوا في ضبطه بعض التفاوت . والحقيقة انهم نظروا فيه وشكوا في نسبته الى الشعراء الذين عينهم الرواة وقرروا ان هؤلاء قد كذبوا على القدماء حتي اختلط القديم بالجديد ولم يعد من الممكن تمييز بعضه عن بعضه الآخر

فقد ذكروا ان حماداً الراوية الذي كان عائشا فى القرن الثاني للهجرة، كان يضع القصائد المطولة و ينسبها للعرب . وان معاصره حمادا عجرد قد حذا حذوه.واستن بسنتهما خلف الاحمر . وقد ذكروا عن الاخير انه تنسك في آخر حياته، واراد ان يدل اهل الكوفة على ماصنعه لهم ليميزوه عن كلام العرب،فأبوا عليه لاستحالة ذلك ، محتجين بأن اكاذيبه كانت قد انتقلت الى الآفاق

وقال الامام الجاحظ المتوفى سنة (٢٥٥) هـ «ان خلفا هـذا اورد على الناس نسيب الاعراب وهو من ارق الشعر وما احراه ان يكون مصنوعا»

وقال العلامة ابن سلام في كتابه طبقات الشعراء : «زاد الناس في قصيدة أبي طالب التي قالها في النبي صلى الله عليه وسلم حتى لايُدرى اين منتهاها »

وقال الاصمعي : « اقمت في المدينة زمانا مارأيت بها قصيدة واحدة صحيحة الا مصحفة او مصنوعة »

وروى الجاحظ ايضا : «ان بعضهم قال لاحد الرواة انك تكذب في الحديث فقال وما عليك اذا كان الذى ازيد فيه احسن منه، فوالله ما ينفعك صدقه، ولا يضرك

كذبه»

وقال المفضل الضبي من اكبر علماء اللغة المتوفي سنة ١٨٦ : « سلط على الشعر من حماد الراوية ما افسده فلا يصلح ابدا . فقيل له وكيف ذلك، ايخطيء في روايته ام يلحن ؟ قال ليته كان كذلك فان اهل العلم يردون من اخطأ الي الصواب ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب واشعارها، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل و يدخله فى شعره، ويحمل ذلك عنه فى الآفاق فتختلط اشعار القدماء، ولا يتميز الصحيح منها الا عند عالم ناقد واين ذلك ؟»

ونأخذ على الدكتور طه حسين ايضا تحامله على الطائفة التي سماهم بانصار القديم، وذهابه الي انهم مطمأنون الى ماقاله القدماء ، وانهم اغلقوا على انفسهم باب الاجتهاد فى الأدب . فان كان يقصد بهذا القول انهم لايجرؤون على ان يفعلوا فعله في نقد الشعر وتمحيصه، فقد وجب علينا ان نرده الي الصواب فيه ، ولا نجد أفعل في اقناعه من نقل ما كتبه الاديب المشهور الاستاذ مصطفى افندى صادق الرافعي في كتابه (تاريخ آداب العرب) الذى نشره في سنة (١٩١١) اى قبل خمس عشرة سنة من صفحة (٣٦٦ الي ٣٨٣) فقد جاء فيه قوله :

(لما جاء الاسلام واندفع به العرب الي الفتوح، اشتغلوا عن الشعر بالجهاد والغزو)
(حينا من الزمن . فلما راجعوا روايته بعد ذلك وقد اخذ منهم السيف والحيف ،)
(وذهب كثير من الشعر وتاريخ الوقائع بذهاب رواته، صنعت القبائل الاشعار ونسبتها)
(الى غير اهلها، تتكثر بها وتعتاض مما فقدته ، واخذ عنهم الرواة)
(واول القبائل التى وضعت الشعر فى الاسلام قريش، وكانت اقل العرب شعرا)
(وشعراء ، ووضعوا على حسان بن ثابت اشعارا كثيرة. ولما شمر الرواة فى طلب)
(الشعر للشاهد والمثل، استفاض الوضع فى العرب وتفرغ قوم منهم لذلك)

وقال الاستاذ الرافعي عند ذكره شعر الشواهد : (هذا النوع الذى يدخل فيه)
(اكثر الموضوع . . . . والكوفيون اكثر الناس وضعا للاشعار التي يستشهد بها.)
(واستمروا على الوضع حتي بعد ان استبحرت الرواية فى اواخر القرن الثالث)
(وكان من الرواة قوم تفردوا بعلم القبائل واخبارها واشعارها، وهؤلاء الذين فتقوا)

(هذه الفتوق في الادب . وقد كانت علوم اولئك النفر تدور على الخبر والشعر مما)
(لا ينبني عليه دين ولا يدخل الناس منه في حرج ، ولا يكون فيه من بعد الا)
(افساد التاريخ العربي، وأهون بذلك ما دام هذا التاريخ قائما بالتأويلات)
(والمفاخرات والمناشدات و بكل ما سخه الاسلام او جاء بخير منه . وليست الغاية)
(من اكثره الا ضربا من السمر، ونوعا من لهو الحديث . وقد تزيّد فيه العرب)
(انفسهم . وهذا هو السبب في انك لا تجد للجاهلية تاريخا صحيحا ، ولا ترى فيما)
(تتصفحه الا التكاذيب والمبالغات وما يتصل بها)

(اما اهل الشعر فيضعون منه لثلاثة اغراض : للشواهد على العلوم والشواهد)
(على الاخبار ، والاتساع في الرواية)

(وقد نشأ شعر الشواهد من الاستشهاد بالشعر على التفسير والحديث وعلى كل)
(ماقامت به الرواية)

(فلما كثر القصاص واهل الاخبار اضطروا من اجل ذلك ان يصنعوا الشعر)
(لما يلفقونه من الاساطير. فوضعوا من الشعر على آدم فمن دونه من الانبياء)
(واولادهم واقوامهم . وقد كتب محمد بن اسحق المتوفى سنة (١٥٠) في السيرة من)
(اشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط، واشعار النساء ،ثم جاوز ذلك الي عادوثمود،)
(وكتب لهم اشعارا كثيرة حتي صار فضيحة عند علماء السير، ورواة الشعر)
(والاتساع في الرواية كان من اسباب الوضع يقصد به فحول الرواة ان يتسعوا)
(في روايتهم فيستأثروا بما لايحسن غيرها من ابوابها .ولذا يضعون على فحول الشعراء)
(قصائد لم يقولوها ، ويزيدون في قصائدهم التي تعرف لهم ، ويُدخلون من شعر)
(الرجل في شعر غيره هوى وتعنتا. ورأس هذا الامر حماد الراوية الكوفي المتوفي)
(سنة ١٥٥)

(وقد وضع خلف الاحمر الراوية قصائد عدة على فحول الشعراء ذكروا منها)
(قصيدة الشَنْفَرَى المشهورة بلامية العرب . وله قصائد اخري نص على بعضها)
(العلماء و بينوا انها مصنوعة . وقد وضع على شعراء عبد القيس شعرا كثيرا)
(ومن اشهر رواة الكوفيين خالد بن كلثوم الكلبي وله صنعة في الاشعار المدونة)

على القبائل وقد الف فيها كتابا) انتهى مااقتطعناه من كتاب الاستاذ مصطفى افندي صادق الرافعي

يرى القارىء مما مر أن علماء اللغة قديما وحديثا قد رأوا في الشعر الجاهلى ما رآه الدكتور طه حسين اخيراً. فاذا كان في هذه البلاد أو فى غيرها رجال يعتقدون ان الشعر الجاهلى سليم من الخلط والخبط والوضع فذلك ممن لا يعتد بعلمه ولا يؤخذ بقوله . وكل ما في المسئلة ان الادباء الاقدمين لم يبلغوا فى تعيين أسباب الوضع المبلغ الذى ترضاه عقولنا اليوم . وهذا هو الفراغ الذى تصدى الدكتور طه حسين لسده في كتابه الذى ننتقده اليوم

٢

منهج البحث

قال الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان ماملخصه :

(احب ان اكون واضحا جليا ، وان اقول للناس ماار يد ان اقول دون ان)
(اضطرهم الى ان يتأولوا و يتمحلوا و يذهبوا مذاهب مختلفة في النقد والتفسير)
(والكشف عن الاغراض التي ارمى اليها)

(اريد ان اقول اني سأسلك في هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من)
(اصحاب العلم والفلسفة ، اريد ان اصطنع في الادب هذا المنهج الفلسفى الذى)
(استحدثه (ديكارت) للبحث عن حقائق الاشياء في اول هذا العصر الحديث .)
(والناس جميعا يعلمون ان القاعدة الاساسية لهذا المنهج هي ان يتجرد الباحث من)
(كل شيء كان يعلمه من قبل ، وان يستقبل موضوع بحثه خالى الذهن مما قيل فيه)
(خلوا تاما . والناس جميعا يعلمون ان هذا المنهج الذى سخط عليه انصار القديم)
(في الدين والفلسفة يوم ظهر قد كان من اخصب المناهج وأقومها واحسنها أثراً)
(وانه قد جدد العلم والفلسفة تجديداً ، وانه قد غير مذاهب الادباء في ادبهم ،)
(والفنانين في فنونهم ، وانه الطابع الذى يمتاز به هذا العصر الحديث)

(فلنصطنع هذا المنهج حين نريد ان نتناول ادبنا العربي القديم وتاريخه بالبحث)
(والاستقصاء ، ولنستقبل هذا الادب وتاريخه وقد برأنا انفسنا من كل ما قيل)
(فيهما من قبل)
(نعم يجب حين نستقبل البحث عن الادب العربي وتاريخه ان ننسى قوميتنا)
(وكل مشخصاتها ، وان ننسي ديننا وكل مايتصل به ، وان ننسي ما يضاد هذه)
(القومية وما يضاد هذا الدين . يجب ان لا نتقيد بشيء ، ولا نذعن لشيء الا)
(مناهج البحث العلمي الصحيح . ذلك انا اذا لم ننس قوميتنا وديننا وما يتصل)
(بهما فسنضطر الى المحاباة وارضاء العواطف ، وسنغل عقولنا بما يلائم هذه القومية)
(وهذا الدين . وهل فعل القدماء غير هذا ، وهل افسد على القدماء شيء غير هذا ؟)
(كان القدماء مسلمين مخلصين في حب الاسلام ، فأخضعوا كل شيء لهذا)
(الاسلام وحبهم اياه ، ولم يعرضوا لمبحث علمي ولا لفصل من فصول الأدب ،)
(او لون من ألوان الفن الا من حيث انه يؤيد الاسلام ويعزه ويعلي كلمته ، فما)
(لاءم مذهبهم هذا اخذوه وما نافره انصرفوا عنه انصرافا)
(فلندع لوم القدماء على ما تأثروا به في حياتهم العلمية مما أفسد عليهم العلم ،)
(ولنجتهد فى ان لا نتأثر كما تأثروا ، وفى ان لا نفسد العلم كما افسدوه . لنجتهد في)
(ان ندرس الادب العربي غير حافلين بتمجيد العرب او الغض منهم ، ولا مكترثين)
(بنصر الاسلام أو النعي عليه ، ولا معنيين بالملائمة بينه و بين نتائج البحث العلمي)
(والادبي ، ولا وجلين حين ينتهى بنا هذا البحث الى ما تاباه القومية ، او تنفر منه)
(الاهواء السياسية او تكرهه العاطفة الدينية . واني غير مسرف حين اطلب منذ)
(الآن الى الذين لا يستطيعون ان يبرأوا من القديم ، و يخلصوا من اغلال العواطف)
(والاهواء حين يقرأون العلم أو يكتبون فيه ، ان لا يقرأوا هذه الفصول . فلن تفيدهم)
(قراءتها الا ان يكونوا أحراراً حقا)

راينا فى هذا الكلام

انالا اتمالك نفسي من ان أقول صراحة ان هذا الكلام ثمين ، ولا اغالى ان قلت

انه أعرق في الاسلام من كل كلام قرأته قبل هذا ، ولا يعيبه الا شيء واحد ، وهو انه مفرغ في قالب الخروج على الجماعة على حين انه مذهب القرآن الذى هو دستور هذه الجماعة . فلو كان قال انه سيعالج البحث في الادب العربي وتاريخه ناسيا قوميته وكل مشخصاتها ، ودينه وكل ما يتصل به ، وغير متقيد بشيء ، ولا مذعن لشيء ، الا مناهج البحث الصحيح ، جاريا بذلك على مذهب القرآن (لاديكارت) لكانت كلماته هذه عدت أجمل تفسير لآيات الكتاب اتي وردت خاصة بمنهج البحث عن الحقائق

نعم ، اصبح يعز على المعاصرين ان يجعلوا للدين أو لما يتصل به سلطانا على مناهجهم العلمية ، وأضحي من لا يكون على اقصي حد من حدود الحرية الفكرية غير جدير بالثقة لتقيده بآراء يعدها مقدسة ويحاول ان يخضع كل حقيقة لسلطانها ، ونحن نعذرهم في هذا الشعور ، لانهم لا يعرفون الاسلام ولا يدرون انه سن منهاجا للبحث عن الحقائق ليس وراءه مرمى . فان كان المانع الانفة من الاتباع ، فالاتباع حاصل لديكارت ، فهل من مرجح للانفة من إتباع محمد وعدم الأنفة من إتباع ديكارت ؟ وهل فرق في التبعية بين أن يقال هذا قرآني وهذا ديكارتي ؟

اما انا فلا اجد محلا للأنفة من اتباع المذاهب الاصلاحية على الاطلاق ، وان كنت اجد فرقا بين الاعلان بتبعيتي لمذهب ديكارت وتبعيتي لمذهب القرآن . وهذا الفرق هو ان ديكارت رجل فرنسى ليس بينى و بينه اية علاقة من جنس أو لغة او صلة من اى نوع كانت . واما القرآن فهو كتاب الامة التي انا منها ، و بينى و بينه كل انواع الصلات المعنوية التي تربط الانسان بشيء من الاشياء ، وقد سبق ديكارت بعشرة قرون ، واسلوبه ادق من اسلوبه ، واجمع لوجوه الاحتياط منه

اما وقد تأدينا الي هذا القول فلا مناص لنا من تبيين ماهية المذهب القرآني في البحث عن الحقائق لنري هل يفي بحاجة الدكتور طه حسين ويزيد ام لا :

(١) — يريد الدكتور طه حسين ان لا يتقيد بمذهب من سبقه من المتكلمين وان لا يعتد بآرائهم فان لهم مارأوا وله مايرى . والقرآن يقره على ذلك بل يطالبه به فانه بعد أن ذكر ابراهيم واسماعيل واسحق قال : « تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم

ما كسبتم ولا تسالون عما كانوا يعملون » وقال « كل نفس بما كسبت رهينة » وقال « كل امرئ بما كسب رهين »

(٢) — يرى الدكتور طه حسين إن صوابا او خطأ ان المتقدمين قد شايعوا أوهامهم واهواءهم في تقرير ما قرروه عن العلم فلا يريد مجاراتهم فيه . والقرآن يؤيده في مذهبه هذا فهو ينعي على المتأثرين بالاهواء ، والآخذين بالظنون فقال: « إن يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون» اى يكذبون . وقال «وما يتبع اكثرهم الا ظنا وان الظن لا يغنى من الحق شيئا »

(٣) — يطلب الدكتور طه حسين ان يتوخى في بحثه عن الحقيقة سيان قوميته وكل مشخصاتها . وقد محق القرآن القوميات ومشخصاتها فقال : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم» وشرح رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية بقوله « لقد اذهب الله عنكم رجس الجاهلية وتفاخرها بالآباء كلكم من آدم وآدم من تراب . لافضل لعربي على اعجمي ولا لأعجمي على عربي ، ولا لأبيض على اسود الا بالتقوى او بعمل صالح »

ويزيد القرآن على هذا التوصية بعدم الخوض فيما لا نعلم ويقرر بان الانسان مسؤل عن اعمال حواسه وقلبه فى معالجة الباطل فقال : «ولا تقف (اى ولا تتبع) ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا »

وقد تجاوز القرآن حدود كل مذهب فلسفى فعد الانسان مسؤلا حتى عن الخواطر التي تجيش فى قلبه ، والهواجس التي تهجس فى باله تنزيها له عن الاباطيل والاضاليل حتى ما كان منها منزويا فى احناء صدره فقال « ان تبدوا ما فى انفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله »

فاذا كان لديكارت منهج فى البحث عن الحقائق عرف بالمنهج الديكارتي *La méthode Cartésienne* فان للقرآن منهجا نسميه بالمنهج القرآني *La méthode Coranique* وقد قابلناه بمنهج ديكارت فبزه وزاد عليه . فيكون لا محل لطلب الدكتور أن ينسى المسلم دينه فى أثناء البحث عن الحقيقة ، فان دينا يخوله كل هذه الحرية فى البحث ، ويخوفه كل هذا التخويف من الوقوع فى

الباطل ، ويهديه لهذا المنهج من التثبت جدير أن يجعله الانسان دستوره فى كل مايتصدى له من انواع العلوم

انما يخشي من تأثير الدين على مثل البحث الذى تصدي له الاستاذ طه حسين وهوالادب اذا كان من الاديان التى تعاكس حرية البحث فى اصول الجماعات وفى درجاتهامن الارتقاء، وفى مكاناتها بين الامم ، وفى تأثيرها العالمي، وفى مصادر لغاتها ، وفى قيمة آدابها . ولكن اذا كان كالدين الاسلامى ينص على ان الامم كلها سواء ابوهم، آدم وآدم من تراب ، وان لافضل لعربي على اعجمي ولالاعجمي على عربي ولالابيض على اسود الا بالتقوى أو بعمل صالح كما رأيت ، وعلى ان الباحث يجب ان يتبع الحق حيث كان جريا على قوله تعالي: « وليس بعد الحق الاالضلال» ، وعلى انه يجب ان ينظر فى جميع مصادر المعرفة ليتصيدالحق من جميع مظانه لقوله تعالي : (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الالباب)،وعلى وجوب الحكم بالعدل ولو على النفس والاقربين لقوله : (كونواقوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم أو الوالدين والاقربين) ،وعلى ان الامم كلها سواء فى تحمل تبعة اعمالها فلا محاباة ولا استثناء لقوله تعالى : (ليس باما نيكم ولا اماني اهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به) ، وعلى ان الانسان يجب عليه ان يخضع لسلطان الدليل لا للموروثات ولا للأوهام : فقال تعالي : « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » ، قلنا ولكن اذا كان دين كالدين الاسلامى ينص على هذا كله فكيف يجب نسيانه في اثناء البحث وهو اكمل دستور عُرف عن الباحثين فى الحقائق الي اليوم ؟ وبأى مرجح نجعل الاسلوب الديكارتي نصب اعيننا فى اثناء بحث مانريد بحثه ، ونفتخر بالانتماء اليه ، ولا نجعل الاسلوب القرآني نصب اعيننا فى البحث ونباهي بالجرى عليه ؟

يقول الدكتور طه حسين (انا اذالم ننس قوميتنا وديننا وما يتصل بهافسنضطر الي المحاباة وارضاء العواطف ، وسنغل عقولنا بما يلائم هذه القومية وهذا الدين)

ونحن نجيبه على هذا بقولنا كيف نضطر الي المحاباة وارضاء العواطف وهذا الدين نفسه يزجرنا عن المحاباة وارضاء العواطف فيقول: « كونواقوامين بالقسط شهداء

لله ولو على انفسكم » . بل و ينص على ان نعدل حتى مع اعدائنا الذين يكرهوننا فيقول :
« ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى » اى ولا تحملنكم عداوة قوم على ان لا تعدلوا فيهم وفي الحكم عليهم بل اعدلوا

وكيف نغل عقولنا بما يلائم هذه القومية وهذا الدين ودينننا نفسه لا يعترف بقومية بل يعد الناس كلهم سواء ويحضنا على اعتبارهم كذلك ؟

ويقول الدكتور طه حسين: (وهل فعل القدماء غير هذا ؟ وهل افسد على القدماء شيء غير هذا ؟)

نقول هب انهم مافعلوا غير هذا فما جريرة الدين في ذلك وهو ينهى عنه ويحث على نقيضه ؟ وهل من العدل ان نأخذ الدين بجريرة من لم يجر على اصوله ؟

هل لي ، وانا أرى في كتاب الدكتور طه حسين اخطاء كثيرة ، ان ارفض الجرى على مذهب ديكارت وعلى تناسيه وتجاهله لان الدكتور اعلن انه من اخص اشياعه فلم يحسن الجري عليه ، باعتماده على حكايات كتب المحاضرات التي لا يقوم على ثبوتها شبه دليل ، بل التي يقوم الف دليل على مناقضتها للواقع ؟

ويقول الدكتور طه حسين : (كان القدماء مسلمين مخلصين في حب الاسلام فاخضعوا كل شيء لهذا الاسلام وحبهم اياه ، ولم يعرضوا لمبحث علمي ، ولا لفصل من فصول الادب ، ولون من ألوان الفن الا من حيث انه يؤيد الاسلام ويعزه و يعلى كلمته ، فما لاءم مذهبهم هذا أخذوه وما نافره انصرفوا عنه انصرافا)

نقول في الجواب على هذا الكلام : ان من فعل هذا فعليه تبعته ، فان دينا ينص على وجوب اتباع الاصول التي ذكرتها في كل موطن من مواطن الحياة ، فلا يكون فى حاجة لمن يعزه ويعلي كلمته بما ينافي قواعده و يضاد وصاياه ، فانه هو نفسه يعز نفسه و يعلى كلمته بسمو تلك القواعد والوصايا . فاذا كان القدماء قد اخذوا ما لاءم مذهبهم ذلك وانصرفوا عما نافره فتلك فعلتهم ولا ذنب للدين فيها ، ولا تبعة علينا نحن مما فعلوا : « تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسالون عما كانوا يعملون »

والدين الاسلامى لم يضع للمباحث حدا «قل انظروا ماذا في السموات والارض» ولم يبين ما يجب اخذه وما يجب تركه من ثمرات الجهود الانسانية بل ترك لعقول حرة

تجول في كل مجال ، وتاخذ من المعارف والصنائع ما يؤهلها اليه استعدادها في دائرة المصلحة الشخصية والعمومية . فمن جرى على غيرهذه السنة فعليه وزر ما فعل، ولا عاب على الدين من جراء عمله

ويقول الدكتور طه حسين : (لنجتهد فى ان ندرس الادب العربي غير حافلين بتمجيد العرب اوالغض منهم ، ولا مكترثين بنصر الاسلام اوالنعي عليه ، ولا معنيين بالملاءمة بينه وبين نتائج البحث العلمي والادبي ، ولا وجلين حين ينتهي بنا هذا البحث الى ما تأباه القومية ، او تنفر منه الاهواء السياسية ، او تكرهه العاطفة الدينية)

نقول ان هذا الكلام لا غبار عليه وهو مذهب كل طالب للحقيقة الا قوله ولا مكترثين لنصر الاسلام او النعي عليه ، فان مثل هذا القول لا يصح اطلاقه على دين لا مرمى له الا ايصال الانسان الي الحقيقة ، وهو لذلك ينهج له من مناهج بزّ بها الفلاسفة وفيهم ديكارت الذى اعلن مؤلفنا غير مرة انه من اتباعه ، وقد اثبتنا ذلك بنصوص الآيات مما لا سبيل الى انكاره

الخلاصة اننا نعد منهج الدكتور طه حسين فى البحث وهو المنهج الذى لخصناه فى هذا الفصل من اكمل المناهج بل هو المنهج الوحيد الذى ينطبق على اصول الفلسفة العصرية المنتجة الا ما ارتكبه من غمط حق الاسلام في هـذا الموطن . فانه ان كان يعرف مكان الاسلام من هذا المنهج كان الاولى به ان يقول ان المتقدمين ارتكبوا ما ارتكبوه من أفساد الادب والعلم بعدم جريهم على المنهج الذى يحضهم عليه القرآن وانه سيجرى على ذلك المنهج الذى يوافق ما جاء بعده بالف سنة كمنهج روجر باكون وديكارت وغيرهما . وان كان لا يعرف الاسلام كان يجب عليه ان يلم به قبل ان يخط حرفا في الادب العربي فان علاقته بآداب هذه الامة وعقليتها وتاثيره فيهما مما لا يمكن انكاره او عدم الاعتداد به على اية حال

٣

مرآة الحياة الجاهلية يجب ان يلتمس في القرآن لافي الشعر الجاهلي

قال الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان ماملخصه :

(على اني احب ان يطمئن الذين يكلفون بالادب العربي القديم ويجدون شيئاً)
(من اللذة في ان يعتقدوا ان هناك شعراً جاهليا يمثل حياة جاهلية انقضي عصرها)
(بظهور الاسلام . فلن يمحو هذا الكتاب ما يعتقدون ويجدون في درسها ما يبتغون)
(من لذة علمية وفنية ، بل انا اذهب الي ابعد من هذا ، فأزعم اني سأستكشف لهم)
(طريقا جديدة واضحة قصيرة سهلة يصلون منها الى هذه الحياة الجاهلية ،او بعبارة)
(اصح يصلون منها الى حياة جاهلية لم يعرفوها ، الى حياة جاهلية قيمة مشرقة ممتعة)
(مخالفة كل المخالفة لهذه الحياة التي يجدونها في المطولات وغيرها مما ينسب الى)
(الشعراء الجاهليين . ولكنى لااسلك اليها طريق امرئ القيس والنابغة والاعشى)
(وزهير لاني لااثق بما ينسب اليهم ، وانما اسلك لها طريقا اخرى وادرسها فى نص)
(لاسبيل الي الشك فى صحته ، ادرسها في القرآن . فالقرآن اصدق مرآة للعصر الجاهلى)
(ادرسها في القرآن ، وادرسها فى شعر الشعراء الآخرين الذين جاؤا بعده ولم تكن)
(نفوسهم قد طابت عن الحياة والآراء التي ألفها آباؤهم قبل ظهور الاسلام . بل)
(ادرسها في الشعر الاموى نفسه . فحياة العرب الجاهليين ظاهرة في شعر الفرزدق)
(وجرير وذى الرمة والاخطل والراعي اكثر من ظهورها فى هذا الشعر الذى)
(ينسب الي طرفة وعنترة والشماخ وبشر بن خازم)

(قلت : ان القرآن أصدق مرآة للحياة الجاهلية . وهذه القضية غريبة ولكنها)
(بدهية حين تفكر فيها قليلا . فليس من اليسير ان نفهم ان الناس قد اعجبوا)
(بالقرآن الا ان تكون بينهم وبينه صلة هي هذه الصلة التي توجد بين الاثر الفنى)
(البديع وبين الذين يعجبون به حين يسمعونه أو ينظرون اليه . وليس من اليسير)

(ان نفهم ان العرب قد قاوموا القرآن وجادلوا النبي فيه الا ان يكونوا قد فهموه)
(ووقفوا على اسراره ودقائقه . وليس من الممكن ان نصدق ان القرآن كان جديدا)
(كله على العرب . فلو كان كذلك لما فهموه ولا آمن به بعضهم ، ولما جادل فيه بعضهم)
(الآخر . انما كان القرآن جديدا فى اسلوبه ، جديداً فيما يدعو اليه ، جديداً فيما)
(شرع للناس من دين وقانون . وفي القرآن رد على الوثنيين وعلى اليهود وعلى النصارى)
(والصابئة والمجوس ، وهو كان يقصد بالرد على هذه الملل فرقا من العرب كانت)
(تمثل هذه الملل في البلاد العربية نفسها . هاجم الوثنية فعارضه الوثنيون ، واليهود)
(فعارضه اليهود ، والنصارى فعارضه النصاري . ولم تكن هذه المعارضة هينة ولا)
(لينة ، وانما كانت تقدر بمقدار ما كان لاهلها من قوة ومنعة . فاما وثنية قريش)
(فقد اخرجت النبي من مكة ونصبت له الحرب . واما يهودية اليهود فقد ألبت)
(عليه وجاهدته جهادا عقليا ثم انتهت الي الحرب . واما نصرانية النصارى فلم)
(تكن معارضتها قوية لقلة اهلها في البيئة التي ظهر فيها النبي ، والقرآن فى كل ذلك)
(انما كان يتحدث عن العرب وعن نحل وديانات ألفها العرب)

(فاما هذا الشعر الجاهلى الذى يضاف الى الجاهليين فيظهر لنا حياة غامضة)
(جافة بريئة او كالبريئة من الشعور الدينى القوى والعاطفة الدينية المتسلطة على)
(النفس والمسيطرة على الحياة العملية . أو ليس عجيبا ان يعجز الشعر الجاهلى كله)
(عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين !)

(اما القرآن فيمثل لنا شيئا آخر يمثل لنا حياة دينية قوية تدعو اهلها للجدال)
(عنها . فاذا رأوا ان الجدال قد اصبح قليل الغناء لجأوا الى الكيد ثم الى الاضطهاد)
(ثم الى الحرب)
(افتظن ان قريشا كانت تذيق ابناءها الوان العذاب ثم تنصب لهم الحرب)
(وتضحي في سبيلها بقوتها وحياتها لو لم يكن لها من الدين الا ما يمثله هذا الشعر)
(الذى يضاف الى الجاهليين ؟ كلا)

(فالقرآن اذن اصدق تمثيلا للحياة الدينية عند العرب من هذا الشعر الذي)
(يسمونه بالجاهلى . ولكن القرآن لايمثل الحياة الدينية وحدها وانما يمثل شيئا)

(آخر لا نجده في هذا الشعر ، يمثل حياة عقلية قوية ، وقدرة على الجدال والخصام)
(وقد وصفهم بها القرآن . وفيم كانوا يجادلون ؟ في الدين وما يتصل به من المسائل)
(كالبعث والخلق والاتصال بالله وفي المعجزة وما الي ذلك)

(افتظن ان قوما يجادلون في هذه الاشياء جدالا يصفه القرآن بالقوة يكونون)
(من الجهل والغباوة والغلظة بحيث يمثلهم لنا هذا الشعر الذى يضاف الي)
(الجاهليين ؟ كلا ، لم يكونوا جهالا وانما كانوا اصحاب علم وذكاء وعواطف رقيقة)
(وعيش فيه لين و نعمة)

(والقرآن يعطينا عن العرب صورة اخرى فهو يحدثنا بان العرب كانوا على)
(اتصال قوى بمن حولهم من الامم قسمهم احزابا وفرقهم شيعا . أليس القرآن)
(يحدثنا عن الروم وما كان بينهم وبين الفرس من حرب انقسمت فيه العرب الي)
(حزبين مختلفين حزب يشايع أولئك وحزب يناصر هؤلاء ؟ فانت ترى ان)
(القرآن يصف عنايتهم بسياسة الفرس والروم وهو يصف اتصالهم الاقتصادى)
(بغيرهم من الامم في السورة المعروفة (لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف)

(وسيرة النبي تحدثنا ان العرب تجاوزوا بوغاز باب المندب الى بلاد الحبشة ألم)
(يهاجر المهاجرون الاولون الى هذه البلاد ؟ وهذه السيرة نفسها تحدثنا بانهم تجاوزوا)
(الحيرة الي بلاد الفرس . وبانهم تجاوزوا الشام وفلسطين الي مصر . فلم يكونوا اذن)
(معتزلين ولا بنجوة من تاثير الفرس والروم والحبش والهند وغيرهم من الامم المجاورة)
(لهم . ولم يكونوا على غير دين ، ولم يكونوا جهالا ولا غلاظا ، ولم يكونوا في عزله سياسية)
(أو اقتصادية . كذلك يمثلهم القرآن)

(واذا كانوا اصحاب علم ودين ، واصحاب ثروة وقوة و بأس ، واصحاب سياسة)
(متصله بالسياسة العامة ، متأثرة بها مؤثرة فيها ، فما اخلقهم ان يكونوا امة متحضرة)
(راقية لا امة جاهلة همجية . وكيف يستطيع رجل عاقل ان يصدق ان القرآن قد)
(ظهر في امة جاهلة همجية !)

راينا في هذا الكلام

تمهيد

قبل ان نناقش الدكتور طه حسين فيما ادلي به من الآراء في الفصل المتقدم رأينا ان نأتي على موجز من تاريخ الامة العربية فنقول:

(تاريخ العرب فى الجاهليه) لايزال فى تاريخ العرب فى الجاهلية غموض كبير على كثرة ما تكلم فيه المتكلمون وكل ما كتب في الكتب العربية من تاريخ العرب يراد به الوجهة الادبية لا التاريخية غالبا فاين هو من الحقائق المؤيدة بالاساطير والنقوش التي لامجال للشك فيها ؟

يوجد للتاريخ العربي مصادر غير عربية اقدمها التوراة فان فى سفر التكوين شيء من أخبار العرب وفى أسفار اخرى ذكر بعض قبائلهم وملوكهم

وقد ألم المؤرخ اليوناني هيرودوتس المتوفي فى اوائل القرن الخامس قبل الميلاد بشيء من ذكر العرب . وألم غيره من المؤرخين بذكر أشياء عن العرب ليس فيها كبير فائدة . وانما الفضل في الافاضة فى تاريخ العرب للمؤرخين استرابون وبلينيوس وبريبلوس و بطليموس فانهم ألموا بجميع ما قيل عن العرب وفصلوه تفصيلا

(الآثار العربية والتاريخ) للآثار فائدة كبيرة جداً في كشف تواريخ الامم فقد كان تاريخ المصريين لايزال غامضا لولا مادونوه من اخبارهم على آثارهم ومعابدهم كذلك للعرب آثار باليمن والحجاز وغيرها عليها نقوش حميرية بالقلم المسند أو نقوش آرامية بالقلم النبطي وغيره . فلما اهتدي بحاثو أوربا الي اماكنها قصدوها لحل رموزها وكشف النقاب عن تاريخ العرب

أول من تصدى لهذه المباحث العالم الالماني ميخايلس المتوفي سنة ١٨٩١ ثم عثر الضابط الانجليزى ولسند سنة ١٨٣٨ على نقوش حميرية باليمن اهتم بها العلماء غاية الاهتمام ولم يستطيعوا حل رموزها الا بعد سنين

ووجد الضابط الانجليزي كروتندن في صنعاء نقوشا ظن انها من خرائب مدينة مارب

اول من تصدى من الفرنسيين للبحث عن هذه النقوش كان المسيو (ارنو) فانه اخترق اليمن سنة ١٨٤٣ وعاد ومعه ٥٦ نقشا نقلها من صنعاء والخريبة وحرم بلقيس

ثم جاء المستعرب (ارسياندر) فحل رموز الآثار التي وجدها ارنو وذلك سنة ١٨٤٥

ثم أن وزارة المعارف في باريز أرسلت المستعرب يوسف هاليفى سنة ١٨٦٩ الي اليمن فسار حتي بلغ مأرب ورجع ومعه ٦٨٠ نقشا

ثم جاء ادورد غلازر الالماني فساح في اليمن مراراً ونقل منها الف نقش بينها نقوش غاية في القيمة التاريخية

ثم حاول الوصول الى مأرب رجال آخرون فهلكوا فى الطريق

وعثر الباحثون ايضا في شمال بلاد العرب على آثار الانباط فوجدوا منها آثاراً كثيرة في مدينة بطرا ومدينة الحجر . واكتشفوا في حوران والعلا نقوشا بالخط المسند الحميرى فكشفت جميع هذه النقوش النقاب عن جزء من التاريخ العربي القديم وما بقى منه اكثر

ثم ان البحاثين عثروا في آثار بابل وآشور ومصر وفنيقية على شيء من تاريخ العرب . فوجدوا في بابل نقوشا بالخط المسمارى وقفوا منها على تاريخ العمالقة من العرب البائدة . واستدلوا من النقوش التى وجدوها فى آشور وبابل على قيام دولة حمورابي العربية استولت على بابل عدة قرون قبل الميلاد باكثر من الفى سنة

(من هم العرب) العرب من الساميين والساميون هم الشعوب الذين يتكلمون بالعربية والعبرانية والسريانية والحبشية . ومنها الشعوب التي كانت تتكلم باللغة الفنيقية والآشورية والآرامية

ومعنى ساميين انهم منسوبون الي سام بن نوح عليه السلام

والناقد البصير يحكم لاول وهلة ان هذه اللغات مشتقة كلها من اصل واحد لتشابهها لفظا وتركيبا

وقد اصطلح مؤرخو العرب ان يقسموا تاريخهم قبل الاسلام الي قسمين :

العرب البائدة والعرب الباقية. فالبائدة عنـدهم هي التي بادت قبل الاسـلام . والباقية قسمان: العرب القحطانية باليمن ، والعرب العدنانية بالحجاز وما يليها

(العرب البائده) هي قبائل عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس واميم وجرهم وحضرموت ومن يتصل بهم . و يقال لهم العرب العاربة

وقد كان لهذه القبائل ملوك ودول وقد امتد ملكهم الى الشام ومصر

وروي المؤرخون ان هذه القبائل كانت تسكن اولا في بابل من آسيا الصغرى ثم هاجروا الى جزيرة العرب . وقالوا ان بنى عاد والعمالقة ملكوا العراق

ثم ان مؤرخي العرب يقسمون القبائل البائدة الي قسمين العماليق هم من نسل لاوذ بن سام وسائر القبائل الاخرى من ارم بن سام

فالعمالقة في نظر مؤرخي العرب من نسل لاوذ بن سام والعرب البائدة من نسل ارم اى اراميين

والعمالقة هم أهل شمال الحجاز مما يلى جزيرة سيناء فتحوا مصر مدة الفراعنة وأسسوا فيها اسرة ملكية

قلنا ان العرب ملكوا العراق وأسسوا بها دولة ونقول ان هذه الدولة سماها المؤرخون المحدثون دولة حمورابي وهو اسم اكبر ملوكها ومؤسس أقدم شريعة في العالم . وزعموا انه كان من اهل القرن الثالث والعشرين قبل الميـلاد . أغار على الدولة البابليـة الاولى فاقتبس قومه تقاليد البابليين ومدنيتهم واستخدموا لغتهم ثم فني المقهورون فى القاهرين وصارت الدولة البابلية عربية بحت

اما دولة العمالقة في مصر فتبتدئ من سنة ٢٢١٣ الى ١٧٠٣ قبل الميلاد جاؤها من طريق برزخ السويس أو البحر الاحمر فاقاموا بها وكثر عددهم فيها ثم لما سنحت لهم الفرصة وثبوا على ملوكها وملكوا البلاد دونهم. وكان اول ملوكهم سلاطيس. حكم بعده بنوه الى سنة ١٧٠٣ فتمكن المصريون من انتزاع الملك من ايديهم وطردهم فتفرقوا في جزيرة العرب قبائل وافخاذاً وأنشأوا دولا في اليمن والحجاز وسائر جزيرة العرب

اما عاد فهى من القبائل الآرامية ولذلك سميت ايضا عاد ارم. والعرب يضربون المثل بهم في القدم

اما ثمود فكان مقامها فى الحجر المعروفة بمدائن صالح فى وادى القرى بطريق الحاج الشامى وكان اليهود يسكنونها قبل الاسلام

اما طسم وجديس فقد قال عنها مؤرخو العرب انهما من ارم مثل سائر العرب البائدة وذكروا انهماسكنتا اليمامة في شرق نجد وقاعدتها القرية . وكانت طسم صاحبة السيادة الي أن تولاها رجل ظلوم فانفت جديس من الخضوع له فقتلوه هو وخاصة قومه ، فهرب رجل الى تبع اليمن حسان بن اسعد فشكا اليه ماأتته طسم واستنجده فارسل الى طسم وجديس جيشا فافناهم معا

(دولة الانباط) ذكر العرب دولة الانباط في كتبهم وارادوا بهم اهل العراق وقد تحقق المنقبون فى الآثار والمتتبعون لتواريخ اليونان والرومان وما ذكر في التوراة ان دولة الانباط كانت عربية قامت بمشارف الشام في الجنوب الشرقى من فلسطين ممتدة الي رأس خليج العقبة . يحدها من الجنوب بادية الحجاز ومن الشمال فلسطين ومن الشرق بادية الشام وكان اليونان يسمون هذه المملكة ببلاد العرب الحجرية وكانت عاصمتها بطرا (الحجر)

كان اقدم سكان هذه الجهة الحوريين وهم سكان الكهوف القدماء وكانوا قبائل على كل منها رئيس . غزاهم داود ملك اليهود وكانوا يسمونهم الادوميين وبقوا تحت سيادة اليهود الي أن ضعف امرهم فاستقلوا وكبر سلطانهم في عهد بختنصر اذ ساعدوه في حروبه لليهود . ثم دهمهم الانباط من الشرق فملكوا مملكة ادوم قبل القرن الرابع للميلاد وبقيت الي اوائل القرن الثاني بعده حتي دخلت في حوزة الرومان سنة ١٠٦ وهم عرب على الارجح

أما مدينة بطرا عاصمتهم فكانت قائمة في مستوى من الارض تحط به الصخور عند ملتقى طرق القوافل بين تدمر وغزة وخليج فارس والبحر الاحمر واليمن وكان العرب يسمونها الرقيم

كان للنبطيين ملوك ووزراء ونظام سياسى واقتصادي وكان الاسم الغالب على ملوكهم الحارث أو عبادة أو مالك . فكان الحارث الاول سنة ١٦٩ قبل الميلاد وهو اول ملوكهم

اما مدينة تدمر فهي الواقعة في طرف البادية التي تفصل الشام عن العراق وتبعد نحو ١٥٠ ميلا عن دمشق نحو الشمال الشرقي تحيط بها جبال

من اشهر ملوكها (زينو بياء) وهي امرأة اذينة وكانت وصية على ابنها القاصر فملكت مصر والشام والعراق وما بين النهرين وآسيا الصغري الي انقرة فقاتلها القيصر الروماني اورليان وهزمها

كانت زينو بيا من أعجب النساء شجاعة ودهاء وكانت تركب الخيل وتجالس قوادها

وقد رجح بعضهم ان زينو بيا هي التي يسميها العرب الزباء ملكة الجزيرة بعد أبيها عمرو بن الظرب بن حسان العمليقي ويذكرون انها احتالت على جذيمة الابرش ملك الحيرة الذى قتل اباها حتى قتلته

(دول اليمن) اليمن هو الجزء الجنوبي الشرقي من جزيرة العرب وكان ينقسم الي ٨٤ مخلافا والمخلاف تحته مدن ومحافد وقرى

اما تاريخ اليمن فمن أشد التواريخ سقما واضطرابا

اول من ملك اليمن يعرب بن قحطان فانه قهر قوم عاد باليمن والعمالقة بالحجاز وولي اخوته على ما كان بايديهم فولى أخاه جرهما على الحجاز ، وعاد بن قحطان على الشحر، وحضرموت بن قحطان على جبال الشحر، وعمان بن قحطان على عمان

ثم تولي بعده ابنه يشجب بن يعرب ثم ابنه عبد شمس وهو سبأ الذي بنى سد مأرب المشهور

وقد اعقب سبأ هذا عدة اولاد اشهرهم حمير وكهلان . ولما مات سبأ خلفه ابنه حمير وهو مؤسس الدولة الحميرية وهي طبقتان الملوك التبابعة وملوك حمير . للمؤرخين اختلافات كبيرة في عددهم وعصورهم وتتابعهم ولكنهم اتفقوا بان آخر ملوك حمير واول التبابعة هو الحارث الرائش

اما التبابعة فاولهم الحارث الرائش المذكور وآخرهم ذو جدن حكم بعد ذي نواس الذى غلبه الاحباش وأخذوا اليمن منه وقد بلغ عدد التبابعة ٢٦ تبعا

ثم فتح الاحباش اليمن في آخر عهد التبابعة وكان عليها التبع ذو نواس فهرب وهلك في هروبه فخلفه ذو جدن فقهره الاحباش أيضا واقاموا باليمن تلك الآثار

وروى انهم كانوا يفلحون الارض و يستثمرونها وكانوا يستخرجون المعادن من باطن الارض كالذهب والفضة والاحجار الكريمة . وكانت لهم قصور شاهقة كقصر غمدان وقصر ناعط وقصر ريدة وقصر صرواح . هذا غير القلاع والسدود والجسور

(الدول القحطانية الاخرى) كان عرب اليمن كثيرا ماينزحون من بلادهم عند نزول الشدائد بهم فينزلون الحجاز او اليمامة او البحرين او عمان. وقد تيسر لبعضهم انشاء دول فى بعض تلك الجهات. وقدعدالعرب من دولهمالغساسنة بالشاموالمناذرة بالعراق وكندة بنجد

وقد اعتبرالعرب تسع عشرة قبيلة خارج اليمن من بنى قحطان اى يمنية غير عدنانية وهي : قبائل طيء والاشعر وبجيلة وجذام والازد وعاملة وكندة ولخم ومذحج وهمذان ومازن وغسان وعدنان ومزيقيا وازدشنوءة والاوس والخزرج وخزاعة . ولكل من هذه القبائل بطون وافخاذ وعمائر وعشائر لاسبيل لحصرها هنا

وقد نشأت من بعضها وهي غسان ولخم وكندة دول سيرد ذكرها

وقد اتفق العلماء على ان هذه القبائل كلها قحطانية وانهم خرجوا من اليمن بعد انهدام سد مارب على اثر سيل العرم . وانا لذاكرون موجزاً من تاريخ كل دولة من هذه الدول الثلاث المار ذكرها

(دولة الغساسنة)

قلنا ان بنى غسان هاجروا من اليمن لتهدم سد مأرب بسيل العرمفنزلوا مشارف الشام وحاربوا بها قوما من قضاعة يقال لهم الضجاعمة واخذوا مابايديهم وأسسوا هنالك دولة تحت حماية الرومان في الجهة التى تعرف الآن باسم البلقاء وحوران فبلغوا درجة عالية من المدنية يقول بحاثو الغرب ان عدد ملوك الغساسنة لايتجاوز العشرة وان اولهم جبلة بن شمر وآخرهم جبلة بن الايهم الذى قهرهالمسلمون واخذوا بلاده

امتد ملك الغساسنة حتي عم مشارف الشام وتدمر وفلسطين ولبنان و بنى ملوكهم القصور الفخمة والقناطر الضخمة.من قصورهم المشهورة القصر الابيض وقصرالمشتي

وقصر الفضاء وقصر السويداء وقصر ابين وغيرها

(دولة اللخميين في العراق)

اول من حكم العراق آل تنوخ ومنهم جذيمة الابرش ثم صار الحكم بعده الى ابن اخته عمرو بن عدى وهو من آل نصر فرع من لخم . وقعت دولة اللخميين تحت سلطة الفرس كما كانت قد وقعت دولة الغساسنة تحت سلطة الرومان ويطلق العرب على ملوكهم اسم ملوك الحيرة

كان أول ملوك الحيرة عمرو بن عدى كما قدمنا وآخرهم المنذر المغرور . وكانت عاصمتهم مدينة الحيرة وهي على نحو ثلاثة أميال من الكوفة في موضع يقال له النجف على الساحل الغربي للفرات وكانت آهلة بالقصور والمباني العظيمة والحدائق الغناء وبقيت الحيرة عامرة في الاسلام بضعة قرون . وكان بجوارها القصران المشهوران وهما الخورنق والسدير

﴿ دولة كندة ﴾

كندة بطن من كهلان فهم قحطانيون ، اصلهم من البحرين والمشقر هاجروا الي حضرموت فاقاموا ببلدة اسمها كندة فكانوا هنالك موالين للحميريين

فاتفق ان حجر بن عمرو آكل المرار سيد كندة كان اخا حسان بن تبع ملك حمير من امه فولاه قبائل معد كلها

تأسست هذه الدولة في القرن الخامس وانقرضت وفاة امرىء القيس سنة ٥٦٠

﴿ تاريخ العرب العدنانية ﴾

العرب العدنانية هم ذرية اسماعيل ابن ابراهيم عليهما السلام ، وذلك ان ابراهيم هاجر بامرأته هاجر وابنها اسماعيل الى بلاد العرب فاسكنهما بمكة وبنى البيت الحرام ثم عاد الي الشام فلما كبر اسماعيل تزوج بامرأة من بني جرهم أصحاب مكة في ذلك العهد قيل فولدت له اثني عشر ولداً فتناسلوا حتي بلغ عددهم الملايين وكانت العرب تسميهم الاسماعيلية والعدنانية ايضا نسبة الى عدنان جد ذرية اسماعيل

والفرق بين العرب العدنانية والعرب القحطانية ينحصر في النظام الاجتماعي

وفى الدين واللغة

فمن الوجهة الاجتماعية يمتاز العرب العدنانية عن القحطانية بان جمهورهم أهل بداوة يسكنون الخيام و يربون الماشية و يرحلون وراء المياه والاعشاب فهم لا يبنون بيوتا ولا يؤسسون امصارا الا اهل مكة فانهم تحضروا منهم

ومن الوجهة الدينية يمتاز القحطانيون بان آلهتهم تقرب من آلهة البابليين منها عشتار وايل و بعل الخ ولكن آلهة العدنانيين كانت لا تشترك مع سواها ولها أسماء خاصة كاللات والعزى ومناة وهبل

ومن الوجهة اللغوية يوجد بين الطائفتين خلاف جوهري وان كان الجميع يتكلمون العربية والخلاف يتناول الاعراب والضمائر والاشتقاق والتصريف

كان هؤلاء العرب العدنانية على حالة قبائل وكان لهم ماشية كثيرة وتجارة وكان مقامهم فى تهامة والحجاز ونجد على حالة بداوة الا قريشا فقد تحضرت وسكنت مدينة مكة

ثم ان هذه القبائل نزحت من بلادها لطلب العيش فانشا بعضها دولا وضاع ذكر البعض الآخر

فكان اول من نزح بنى قضاعة فتفرقت بطونها من جزيرة العرب فى نجد والبحرين ومشارف الشام فانشأ بعضها دولا بالعراق والشام وكان نزوح هذه القبيلة حوالي القرن الاول للميلاد

(دول قضاعة)

من بطون قضاعة (جهينة و بلى) وكانت منازلهم بين ينبع و يثرب ومصر على شواطئ البحر الاحمر ولم تكن لهم دول ذات ملوك ولكنهم غلبوا على بادية مصر وصعيدها اجيالا

ومن دول قضاعة (تنوخ) وهو فرع كبير من قضاعة . وقال بعض المؤرخين ان تنوخا كانت مزيجا من قضاعة والازد وكانت دولتهم فى اوائل ظهور النصرانية

كان لتنوخ دول فى مشارف الشام والعراق منها دولة جذيمة الابرش كانت عاصمتها في المضيرة بين بلاد الخانوقة وقرقيسيا . و يرى المؤرخون ان هذه الدولة كانت فى نحو القرن الثالث من الميلاد

لم تطل ايام هذه الدولة فحل محلها بطن آخر من قضاعة اسمه سليح

(دولة سليح)

سليح بطن من قضاعة ملكوا مشارف الشام بعد تنوخ وكان مقرهم فى مواب من ارض البلقاء وفي سلمية وحوارين والزيتون . ومن ملوكها النعمان بن عمر ومالك بن النعمان وعمرو ابنه ثم خلفهم الغساسنة كما مر والاولون هم الضجاعمة لذين ذكرنا ان الغساسنة تغلبوا عليهم

(انمار)

انمار بطن من قضاعة رحلت الى جبال السروات فملكوها ثم تخاصمت هنالك القبيلتان المكونتان لانمار وهي بجيلة وخثعم فحدث بينهما حروب يطول بسطها

(اياد)

اياد بطن من قضاعة نازعتها مضر الحياة فنزحت من تهامة الى العراق قرب الكوفة ثم انهم شنوا الغارة على الفرس فاوقع بهم كسرى انوشروان وأجلاهم عن العراق فنزلوا الى تكريت والجزيرة والموصل ثم نزحوا منها الى بلاد الرومان والشام

(ربيعة)

هاجرت ربيعة من تهامة فنزحت قبيلة عبد القيس منها الى البحرين وهجر ونزلت قبائل اخرى منها الي نجد والحجاز واليمن . وكانت القبائل التي نزلت الحجاز منها بكر وتغلب وعنزة وضبيعة . ثم حدثت بينهم حروب فتغلبت بكر على تغلب فتفرقت تغلب في البلاد وانتشرت بكر ابن وائل وعنزة وضبيعة باليمامة الى سواد العراق . وانحازت النمر وغفيلة الي اطراف الجزيرة وعانات . وكانت الزعامة لعنزة ثم تحولت الي عبد القيس ثم الى النمر ابن قاسط ثم الي بكر بن وائل ثم الى تغلب فتولي منها وائل بن ربيعة وهو كليب المشهور

(مضر)

استاثرت مضر بتهامة حتي كثر عددها فوقعت بين بطونها الحروب واشهر تلك البطون قيس بن عيلان وخندف فغلبت الثانية فظعنت قيس بن عيلان الي نجد الا

قبائل منها انحازت الي اطراف الغور من تهامة فنزلت هوازن ما بين غور تهامة الى ما والي بيشة و بركا وناحية السراة والطائف وذى المجاز وحنين واوطاس

وكان بنو خندف يتألفون من قبيلتي طابخة و مدركة فنزلت طابخة بظواهر نجد والحجاز وأوت مزينة الي جبال رضوى وما والاها بالحجاز ورحلت تميم وضبة الى منازل بكر وتغلب . وهاجرت بنو سعد الى يبرين ونزلت طائفة الي عمان واخرى بين اطراف البحرين الى مايلى البصرة

واقامت قبيلة مدركة بتهامة . وكانت لهذيل بنو فهم وعدوان من قيس عيلان . وأقام بنو النضر بن كنانة حول مكة انزلهم قصى بن كلاب الحرم وهم قريش فكان بالحجاز من العرب اسد وعبس وغطفان وفزارة ومزينة وسليم وفهم وعدوان وهذيل وخثعم وسلول وهلال وكلاب وطيء وأسد وجهينة وغيرها

ذكرنا عرضا فى هذه الفذلكة عند ذكر استعمار الحبشة لليمن ماحدث من اعتزام عامله ابرهة على صرف الناس عن حج البيت الي حج كنيسة بناها بصنعاء. وتفصيل هذا الاجمال هو أن ابرهة لما هم بذلك واخذ له اهبته جاء رجل من العرب فأهان تلك الكنيسة ، فهاج ذلك غضب ابرهة فعزم ان يثأر لبيعته بهدم الكعبة . فجهز لذلك جيشا وسار على رأسه قاصداً مكة وما زال يطوى المفاوز والموامى حتي وصل الي ضواحي مكة واستاق من اموالها ابلا لعبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت قريش قد اخلت البلدة ولجأت الي الشعاب تاركة البيت الحرام وما فيه من اصنامها ونصبها لرحمة المغير الحاقد . وهنالك اصاب جيشه حادث اضطره للاسراع بالرجوع. فعاد وقد باد اكثر عسكره ، ولم يقض مما اراده وطراً . في هذه السنة ولد النبي صلى الله عليه وسلم فكانت هذه الغارة قبل بعثته باربعين سنة

هذا موجز من تاريخ العرب مقتبس من ابحاث العلماء الغربيين الذين عنوا بدرس الآثار العربيه ، واغروا بتحرير تاريخ هذه الامة على نور ماهدوا اليه من المعالم التاريخية والآثار العمرانية

مناقشة ما كتبه الدكتور طه حسين في العرب

يقول حضرته ان الشعر المسمي بالجاهلى لا يمثل حياة الامة العربية قبل البعثة المحمدية . ونحن لا يسعنا الا موافقة الاستاذ على ذلك . فاننا نرى كما رأى النَقَدة الاقدمون و نقلناه عنهم فى الفصل الاول من هذا الكتاب ان هذا الشعر الذى بين ايدينا اكثره مختلق وضعه الوضاعون فى القرن الاسلامى الاول والثاني والثالث كما وضعوا مئات الالوف من الاحاديث ونسبوها للنبي صلى الله عليه وسلم وكما وضعوا خطبا لا تحصى وكلمات مأثورة لا تحصر على كبار الصحابة والتابعين والملوك والقادة من جميع الاجناس والنحل . ولئن كان الرواة الاولون قد حفظوا عن الجاهليين شعراً صحيحا فانما هم قد تحروا منه مالا يصادم الاسلام تأثما من نقل اخبار المشركين واذاعة ضلالاتهم الاعتقادية . وقد ثبت ان العرب الاسلاميين في ابان نهضتهم قد تحرجوا من ترجمة الالياذة المنسوبة لهوميروس الشاعر اليوناني القديم وكان ذلك كما يقول العلامة درابر *Draper* في كتابه المنازعات بين العلم والدين *Les conflits de la science et de la religion* تحرجا من ذكر الآلهة اليونانيين ، وتعظيم ابطالهم الممتازين . فلا غرو ان يهمل الرواة حفظ القصائد الدينية التي قالها العرب وفيها مافيها من ذكر الاصنام والخرافات التي لا تخف على سمع من كان يعنون بالشعر فى تلك الايام



ويقول الدكتور طه حسين : «ان القرآن اصدق مرآة للحياة الجاهلية ، واصح تمثيلا لها من الشعر المسمي بالجاهلى»

ونحن نوافقه على ذلك من وجه ونخالفه من وجه آخر . اما ان القرآن يعتبر اصقل مرآة لما كان عليه عرب الجاهلية من النقائص الخلقية والعيوب الاجتماعية ، والمنكرات العادية فنَعَم . لان القرآن قد عرض عقائد ودافع عنها ، وعرض عقلية الجاهليين

وسخر منها ، وعرض اعتراضاتهم على دعوته ودحضها ، وعرض تفصيلات جمة عن احوالهم الاجتماعية ، وعاداتهم الزوجية ، ومألوفاتهم البيتية ، ومنازعاتهم السياسية والاقتصادية وشنع عليها وعابها ، ولم يدع كبيرة ولا صغيرة من اخلاقهم الرديئة ومعاملاتهم المعيبة الا اتي عليها وازرى عليها وتهكم بها ، واستنزل سخط العقلاء عليها ، فهو يمثل حياة الجاهليين من وجهة نقائصهم وسيآتهم تمثيلا لايدانيه فيه شعر ولا تاريخ . وكيف لايكون كذلك وهو انما جاء لمقلهم مما هم عليه الى حال ارقى منه درجات،وتهيئتهم لان يحيوا حياة صالحة تأخذ بهم الى معارج الارتقاء ،وتحفزهم الى تخطي دوائر الجمود التى كانوا فيها ولا يبغون عنها تحولا ، ولا يتخيلون وراءها مذهبا . وهل يتأتي له ذلك الا بالدخول في صميم شؤنهم الحيوية ، وحكاية ماهم عليه من المنكرات الاجتماعية ، ثم الكر عليها بالتقبيح والتهجين ، او بالتعديل والتقويم

ونخالف الدكتور طه حسين من وجه كفاية القرآن وحده فى تجلية ما كان عليه العرب من الصفات المحمودة ، وليس له ان يعرض لذلك وهو فى مقام دعوتهم الي دين يقلب وجودهم الاجتماعي رأسا على عقب ، ويهدم ماهم عليه من اساسه ، ويقيم على انقاضه صرحا جديدا لحياة جديدة لم يعرفوها الي ذلك الحين

فتكون النتيجة اللازمة لمذهب الدكتور طه حسين اننا نبقى جاهلين بما كان عليه عرب الجاهلية من الكرم الذي ضربت به الامثال وبلغ حد التضحية بالنفس ، وحفظ الجوار الذى لم يؤثر مثله عن غيرهم ، والشجاعة واباء الضيم وحب الحرية والصبر على المكاره والنجدة والصدق فى القول والذكاء وهي الصفات التى يجلبها الشعر المدعو بالجاهلي فى حدودها البدوية كل التجلية . فهذا الشعر لا يمكن الاستغناء عنه فى بناء تاريخ العرب الجاهليين ولا يكفى القرآن وحده في ذلك . وما دام الشعر المنسوب لهم ، وفيه المختلق والصحيح . قد اجمع على نسبة هذه الصفات لهم فيمكن الاعتماد عليه في تكميل بناء تاريخهم.والافنكون قد حكمنا بعدم امكان الوصول الي هذا التاريخ على الاطلاق

***

فلننظر الآن فيما يقوله الدكتور طه حسين من ان القرآن يمثل لنا فى عرب

الجاهلية حياة دينية قوية ، وقدرة على الخصام والجدال ، وانهم كانوا اصحاب علم وذكاء وعواطف رقيقة ، وعيش فيه لين ونعمة ، وانهم كانوا على اتصال قوى بمن حولهم من الامم قسمهم احزابا وشيعا ، وكانوا يعنون بسياسة امتي الفرس والروم ، وعلى اتصال اقتصادى بغيرهم من الامم ، وانهم تجاوزوا باب المندب الي بلاد الحبشة ، وتجاوزوا الحيرة الى بلاد الفرس ، وتجاوزوا الشام وفلسطين الى مصر، وانهم كانوا متأثرين بالسياسة العامة ومؤثرين فيها ، وبذلك فقد كانوا امة متحضرة راقية لا امة جاهلة همجية . ثم قال وكيف يستطيع رجل عاقل ان يصدق ان القرآن قد ظهر فى امة جاهلة همجية؟

نقول اننا لانرى رأى الاستاذ في كل هذه الاطلاقات ونوجز رأينا في الفصول الآتية :

هل كان للعرب الجاهليين حياة دينية قوية وحياة عقلية قوية ؟

لاجدال فى ان العرب كانوا قبل البعثة المحمدية على دين هو الوثنية على اخس اشكالها لا كوثنية اليونان ذات الميتولوجيا المتأنقة فى الخيال ، ولا كوثنية المصريين والهنود والصينيين الثرية في الاصول الداعية الى تطهير النفس، والتجرد من عالم المادة والتغلغل فى الحياة الروحية بفرض الرياضات ، وايجاب العبادات . وقد دفعت الاديان الوثنية اصحابها الي كثير من العلوم والفنون فعبادة الكواكب جعلت من الكلدانيين اول المستكشفين لمساتير القبة الزرقاء واول الضابطين لحركات الاجرام العلوية ، وعبادة الطبيعة في قواها المتعددة حفزت اليونانيين للنظر في عوالمها وتقليد صنائعها فوصلوا الي غايات بعيدة في فنون النقش والنحت والتصوير، ودفعت بفريق آخر منها الي باحات الفلسفة والعلوم . وقل مثل ذلك عن الهنديين والصينيين والمصريين الاقدمين . اما العرب فكانت وثنيتهم ساذجة مبهمة قليلة السلطان على عقولهم لم تدفعهم لاى صناعة من الصناعات التي يدفع اليها التدين، ولو لا اصنام كانوا اقاموها في مكة يحجون اليها فى كل عام مرة لساغ عدهم من الامم المجردة من العاطفة الدينية

يقول الدكتور ان الامة العربية كانت قوية فى دينها . ونحن نقول أسمعت ان امة تكون قوية في دينها ، وليس لها هيئة كهنوتية ، ولا اساطير دينية ، ولامعا بدمحلية ، ولا كتاب يرجع اليه في شؤنها العبادية ، وتهتدى بهديه في امورها التعاملية ؟ أ كان للعرب من مظاهر التدين الا انهم كانوا يحجون البيت الحرام بمكة كل عام مرة ثم تعود كل قبيلة الى محلتها لاترابطها مع جاراتها رابطة ملية ، ولا تجمعها واياها عاطفة روحية ، حتي انه لما اعتزم ابرهة عامل ملك الحبشة على اليمن هدم الكعبة وصمد اليها على رأس جيش لتنفيذ هذه العزيمة ، كان كل ماعمله العرب لدرء الخطر عن البيت الذى يحترمونه ان لزمت كل قبيلة مكانها ، ماضية في شأنها من الاغارة على جيرانها وسلب أموالها وسبي نسائها ، وتركت جيش ابرهة يخترق صحاريها ومعاميها آمنا مطمئنا . وكان كل مافعلته قريش التي كانت تتولى سدانة الكعبة ان فرت من وجه المغير بنسائها واولادها وماشيتها معتصمة بشعاب الجبال تاركة تحت رحمته آلهتها وكعبتها يفعل بها مايبدوله . فلوكان لهذه الامة غيرة على دينها وهي امة حربية بطبيعتها ، أما كانت تداعت لحماية اصنامها وانصابها ، فتدفقت سيول فرسانها من كل حدب والتفت حول حرمها تدافع عنه المعتدين عليه وتستميت في الذياد عنه ولو فنيت دونه ؟

اما ولم تفعل ماكانت تفعله كل امة تغار على كرامتها الدينية فلا نستطيع ان نوافق الدكتور طه حسين على انها كانت ذات نزعة دينية قوية . بل نستطيع ان نقول انها كانت قليلة الغيرة على دينها الى درجة معيبة

يعتمد الدكتور طه حسين على القرآن نفسه في التدليل على ان العرب كانوا ذوى حياة دينية قوية، يستنتج ذلك من تشددهم في رفض الدين الجديد وثباتهم على دينهم الموروث ، وذهابهم في الاستعصاء على الدعوة كل مذهب حتى اداهم ذلك الى الحرب الضروس . ولوكان تأمل قليلا فى نفسية العرب الجاهليين لرأى هذا الاستعصاء منهم كان حالة اشتركت في احداثها بضعة عوامل تعتبر من مميزات الامة العربية فى جاهليتها . وبما ان الدكتور طه حسين لايعتد في بناء تاريخ الجاهلية الا بالقرآن فنحن سنسرد هذه العوامل واحداً واحداً مستندين الى نص القرآن نفسه ، فاليك :

(اول هذه العوامل)ضعف العاطفة الدينية عندهم . واجلى مظهر لهذا الضعف انهم لم يكونوا على امر جامع من عقائدهم شأن الذين لاعراقة لهم في الدين . فقد كان بعضهم دهريا لا يعتقد بوجود اله ، و بعضهم لم يكونوا يعتقدون بالبعث بعدالموت. ومنهم من كانوا يعبدون الكواكب . ومنهم من كانوا يعبدون الملائكة . ومنهم من كانوا يعبدون الاصنام و يعتقدون انها شفعاؤهم عند الله

فهل يعقل ان تكون امة على مثل هذا الخبط من امر دينها ، لا تجمعها جامعة ، ولا ترجع في عبادتها الي اصل مدون ، وليس لها في تلك العصور هيئة ممتازة تهيمن على عقائدها ، وتكون مع هذا كله قوية في دينها ؟ واذا ثبت ضعف العاطفة الدينية عندها من هذا الطريق فلا عجب ان يلاقى كل دين جديد من تلكؤها في قبوله مالاقى الاسلام في اول امره منها

(ثاني هذه العوامل) افراط العرب في الفخر بآبائهم ، والتباهي بمناقبهم وماثرهم فقد لا تصادف في امم الارض قديما وحديثا من يشاكلهم في هذه الخصلة ، فكان يصعب عليهم ان يسجلوا على اولئك الآباء ، بقبولهم الدين الجديد، انهم كانوا على ضلال مبين

(ثالث هذه العوامل) جمودهم على ماكان عليه آباؤهم بغير تعقل ولا اعمال روية . وقد حكي عنهم القرآن ذلك فقال : « انهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون» «قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على اثارهم مهتدون » « واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا انما نتبع ماوجدنا عليه آباءنا»

(رابع هذه العوامل) مجيء الدين من طريق محمد بن عبد الله وهو وان كان من ذؤابة قريش نسبا وحسبا الا انه لم يكن من الموسرين المستكثرين ، ولا من زعمائهم المتصدرين . وقد اشار الي ذلك القرآن فى قوله تعالي : « وقالوا لولا انزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » المراد بالقريتين مكة والطائف . ومؤدى هذه الآية انه لو كان قام بالدعوة الي الاسلام احد هؤلاء الزعماء لاتبعوه . وقد صرح القرآن بانهم كانوا يقلدون رؤساءهم بلا روية ولا تفكير ونعي ذلك عليهم فى صورة حكاية ماسيقولونه يوم يعرضون على العذاب في الحياة الآخرة: «وقالوا ربنا انا اطعنا سادتنا

وكبراءنا فاضلونا السبيلا »

فاشتراك هذه العوامل الاربعة يكفي في تعليل استعصائهم على الدعوة الاسلامية بادئ ذي بدء

على ان القرآن قد صرح ان العرب كانوا لا يعبأون بالدين لقولهم « ءاذا كنا ترابا وآباؤنا ءانا لمخرجون ؟ لقد وُعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ان هذا الا اساطير الاولين »

وقال : « وما كان دعاؤهم عند البيت الا مكاء وتصدية » اى وما كانت عبادتهم في البيت الحرام الا صفيراً وتصفيقا . وقال : « ان هؤلاء ليقولون ءاذا متنا وكنا ترابا وعظاما ءانا لمبعوثون ؟ أوَ آباؤنا الاولون ؟ قل ان الاولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم »

ولو كان حقا مايقوله الدكتور طه حسين من ان ذلك الاستعصاء الذي قابل به العرب الدعوة الاسلامية كان ثمرة قوتهم فى دينهم لكان جدالهم مع النبي صلى الله عليه وسلم أخذ شكلاً يُسعر بانهم على عقائد مقررة ، واصول محددة على مثال الجدال الذى كان يقوم به اليهود ، فقد كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم فى امور ويجيبهم عنها ويحاكمهم الى كتابهم اذا انكروها ، ولكن عرب الجاهلية قابلوا الدعوة الاسلامية بسلاح العاجز وهو قولهم انهم لا يستطيعون ان يتخلوا عن دين آبائهم الاولين : وكل مافعلوه بعد ذلك انهم كانوا يتعجبون من التوحيد فقالوا كما حكاه عنهم القرآن : « أجعل الآلهة الها واحداً ان هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم ان امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد . ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق »

ولا يخفى ان التعجب من وحدانية الله لايدل على شيء من الذكاء ، والتواصى بالصبر على آلهتهم لا يتجاوز المقاومة السلبية ، مقاومة الجهلة الاغبياء . وتصريحهم بانهم لم يسمعوا بهذا التوحيد في الملة الآخرة يدل على سذاجة لا يعذرون عليها على اية حال

وقد استنفد القرآن كل انواع البيان في اقناعهم فلم يظفر بطائل فاخذ يسألهم : ألكم كتاب فيه تدرسون ، أعندكم أثارة من علم عنها تصدرون ، ألكم عقول بها تميزون

وعلى حكمها تنزلون ؟

فلما أعياهم أمرهم، واستعصى على علاجه جمودهم قررانهم كالانعام بل أحط من الانعام فقال : «أم تحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون ، انهم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا» . وقال : «لهم قلوب لا يعقلون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، ولهم اعين لا يبصرون بها ، انهم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا»

فاين بعد هذا ما يستخرجه الدكتور طه حسين من القرآن من قوة حياتهم الدينية والعقلية ، وسمو قدرتهم الجدلية والمنطقية ، وعلو كعبهم في الشؤن العلمية ؟

لعله عرض ما ذكره القرآن من تعنتهم فى طلب الآيات فعده من فرط ذكائهم ، وقوة ادراكهم ، ونحن نعرض عليك ما ورد فى القرآن من ذلك انرى هل يدل على ذكاء أم غباء ، فاليك :

قال الله تعالي : «وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ، او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا ، او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، او تأتي بالله والملائكة قبيلا ، او يكون لك بيت من زخرف او ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه»

«وقالوا لوما تأتينا بالملائكة ان كنت لمن الصادقين»

«وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا ، او يلقى اليه كنز او تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون الا رجلا مسحورا»

«وقالوا هل هذا الا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون»

«بل قالو اضغاث احلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما ارسل الأولون»

«ام يقولون افتراه ، قل ان افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا ، هو اعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم . قل ما كنت بدعا من الرسل وما ادرى ما يفعل بي ولا بكم ، إن اتبع الا ما يوحي الي ، وما انا الا نذير مبين»

«ويقولون أإنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون»

« ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده ، وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون »

« ام يقولون به جنة ؟ بل جاءهم بالحق واكثرهم للحق كارهون »

«وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد؟ أفتري على الله كذبا ام به جنة؟ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد »

« وقال الذين كفروا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . وما يأتونك بمثل الا جئناك بالحق واحسن تفسيرا»

« واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا الا رجل يريد ان يصدكم عما كان يعبد آباؤكم . وقالوا ما هذا الا إفك مفترى . وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين . وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما ارسلنا اليهم قبلك من نذير . وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلى فكيف كان نكير»

« وقالوا ياأيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون . لوما تأتينا بالملائكة ان كنت لمن الصادقين . وما ننزل الملائكة الا بالحق وما كانوا منظرين »

«وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل انا عاملون »

« واذا قيل لهم تعالوا الي ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون »

« وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون »

« ام يقولون نحن جميعا منتصر . سيهزم الجمع ويولون الدبر، بل الساعة موعدهم والساعة ادهي وأمر »

هذه صورة كاملة من الآيات التي وردت في القرآن فيما يتصل بالجدال الذى وقع بين عرب الجاهلية ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يؤخذ منها انهم كانوا على شيء من الذكاء والعلم والقدرة على الخصام ، بل يتبين منها انهم كانوا على نقيض ذلك كله . فان كل ما طلبوه ان يخرق لهم النبي صلى الله عليه وسلم العادة بعين ماء

يفجرها ، او بجنة تكون له فيا كل منها ، او ببيت يُعطاه من الذهب فياوى اليه ، او يطير الى السماء و يأتيهم بكتاب منها يقرأونه ، او يأتيهم بالله وملائكته ليروه بأعينهم ، او يسقط السماء عليهم قطعا قطعا فيهلكهم ، وهذا كله بالهزل اشبه منه بالجد، ولا يدل على شيء من الفطنة والفهم ، بل هو نوع من الهذيان يقدر عليه حتي الاطفال.

اما الذى يدل على الصفات التي نحلهم اياها الدكتور طه حسين فهو قرع الحجة بالحجة ومقابلة البيان بما يبطل سحره ، و يلاشي خُدعه ، والاستشكال على اقوال النبي وافعاله بشبه يحار فيها العقل ، و يضيق عنها الوسع

زعموا ان القرآن مفترى فتحداهم بأن يأتوا بسورة مفتراة من مثله فعجزوا . « فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين »

فما هي القيمة العلمية والجدلية لقوم يصيحون بأن هذا القرآن مفترى ثم يعجزون عن تأليف سورة من كلام يشبهه ؟

كان كل مافعلوه ازاء هذا التحدي المخزى ان تداعوا الي اللغو والتهويش حين يُتلى عليهم القرآن ليبطلوا تأثيره فيهم وفي غيرهم فقال الله فيهم . «وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون »

فهل هذا فعل قوم يوصفون بالذكاء والعلم والقدرة على الجدال ؟ وهل عهد في تاريخ المناظرات ان يستعين الخصم باللغط والضوضاء حين يدلي الخصم بحجته ليبطلها بهذا النحو من العبث الذى لا يصدر الا من الغوغاء ؟

***

هنا نسأل انفسنا اذا كانت الحالة العقلية والنفسية للعرب كانت على ما وصفه القرآن من الانحطاط والسقوط فكيف يمكن تفسير اقامتهم لحكومة عقب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة امكنها ان تلم شعثهم ، وتجمع شتاتهم وتحافظ على وحدتهم، وتدفعهم لدحر الامتين العظيمتين اللتين حماوا نيرها قرونا طويلة وهما الفرس والرومان فسحقت الاولى ومثلتها بجثمانها، وهزمت الثانية وامتلخت الشام ومصر من براثنها؟ هل كانت تكفى المدة التى لبثها النبي صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم وهي ثلاث

وعشرون سنة لأن تخلقهم خلقا جديدا فيصبحوا قادرين على مالم يكونوا يحلمون به امام جاهليتهم ؟ هب انه اوجد فيهم صلاحا وورعا وادبا فهل اوجد فيهم عقلا عمليا ومرانا حكوميا ، واستعدادا للترقى وقدرة على تصريف الامور من قبيل الطفرة ؟

يقول قائل : نعم ان هذه المدة تكفى لأن تتمكن روح عالية كروح النبي صلى الله عليه وسلم من تقلهم من حال الي حال يناقضها، وتعدهم لان يقوموا باعباء مملكة شاسعة الاطراف لم تقسن لهم فى اى عهد من عهودهم

نقول هذا سائغ من الوجهة الخيالية الشعرية ولكنه من الوجهة العملية لا ينقع غلة المنقب عن العلل الطبيعية ، ولا ينطبق على السنن الاجتماعية . وحل هذاالمشكل في نظرنا هوماسنجمله فىالاسطرالتالية:

عرب الجاهلية وبخاصة في مكة والطائف ويثرب كانوا لاختلاط كثير منهم بالامم المجاورة لهم وترددهم على سورية ومصر وفارس ولاشتغالهم بالتجارة والمعاوضات على شيء من الحياة المدنية اقتبسوها اختلاسا في رحلاتهم المتكررة وبمزاولة مهنتهم المحلية . ولكنهم كانوا فىهذه المدن مقيمين على النظام البدوى المحض من الانقسام الي قبائل وبطون وافخاذ وفصائل واسر . فلم تكن لهم حكومة مركزية، ولا رئيس محدود السلطة ، ولا شرطه ، ولا محاكم، ولا شيء مما يميز الحكومة النظامية . وكانوا يغيرون على جيرانهم ويُغار عليهم كسائر العرب وكما سنبين ذلك فى هـذا الكتاب . فلم يكن من فارق بينهم وبين اهل البادية الا ان هؤلاء كانوا يقيمون فى دور مبنية بدل الخيام ، وكان مرتزقهم من الاتجار وتربية الانعام . فلما ظهر النبى صلى الله عليه وسلم ودعا الناس سرا الى الاسلام تسارعت اليه العناصر الصالحة من هؤلاء الناس وقبلوا دعوته ، وكتموا امرهم عن الدهماء . فلما اُمر النبي باعلان الدعوة واخذ المشركون يضطهدونهم لصبوءهم عن دين آبائهم صبروا معه صبرا استنفد كل ما في وسعهم من احتمال . ثم قرروا ، وقد بلغ السيل الزبى، ان يهاجروا الى حيث يأمنون على انفسهم ودينهم من عنت المشركين فاختاروا ان تكون دار هجرتهم الحبشة . ولما شدد الكافرون النكير على رسول الله ومن بقى معه قرروا الهجرة الى المدينة بعد الاتفاق

مع اهلها سرا على ذلك . فتسللوا اليها تحت جنح الظـلام ، ثم لحق بهم من كان قد ذهب الى الحبشة منهم ، فكان هؤلاء المهاجرون الاولون وهم صفوة قريش والعناصر الصالحة فيهم ، ومن انضم اليهم من اهل يثرب (المدينة) نواة لدولة جـديدة كُتب لها ان تنمو وتمتد وتحـدث فى العالم الانساني حـدثا جللا لايزال له نور يتـألق الي اليوم

واتفق فى ذلك الحين ان الدولتين اللتين كانتا تتنازعان السلطان في الارض وهمـا دولتا الفرس والرومان آخذتين فى الانحلال ، فبعد أن تحققت للعرب وحدة دينيـة وسياسية ، ودفعتها طبيعة الاجتماع المنظّم للتبسط في الارض انتزعت سورية ومصر من الرومانيين ، وكان أهلوهمـا ينتظرون فرجا من عسف المستعمرين ، ثم وجهوا وجوههم شطر فارس وكانت فى حالة النزع فما هي الا ضربتـان حتي تفككت اوصالهـا، وضاع وجودها ،وتبادر عقلاؤها لقبول الدين الجديد، فانضم الى العرب بذلك عنصر عريق في المدنية كان له اثر كبير في حفظ وجود الدولة الاسلامية

***

هذا ولسنا ممن يذهبون مذهب الذين يعدون عرب الجاهلية همجا متوحشين ، عارين من كل فضيلة ، وكاسين بكل رذيلة . بل نعتقد كما يعتقده الدكتور طه حسين بأنه كانت لهم حياة دينية وعقلية ، وانهم كانوا اذكيـاء بفطرتهم ، وبأنه كانت لهم عواطف ، وكان لبعضهم عيش فيه لين ونعمة ، وانهم كانوا على اتصال سياسى واقتصادى بمن حولهم من الامم جنى على الملاصقين منهم للامم المتمدنة الوقوع تحت نيرها ، وان اهل المدن منهم كانوا على شيء من الحضارة

كل هذا صحيح من بعض الوجوه ، ولكنهم كانوا قبيل البعثة المحمدية وفى إبانها فى دور تدهور وانحلال ، عقب دور اخذوا فيه حظهم من الحضـارة والغلب والاسـتقلال . ولا أدل على ما نقول من ان جميع بـلادهم المجاورة لدولتي الفرس والرومان والحبشة وقعت تحت نير هذه الامم حتى ان القبائل العدنانية الوسطي سكان الحجاز ونجد لم تنج من الخضوع لسلطان الاجنبي فقد كانوا تابعين لعرب اليمن الى اواخر القرن الخامس . وكان عرب اليمن تابعين اذ ذاك للاحباش . وأدل من هذا على

انهم كانوا في دور تدهور وانحلال ان دولتي الفرس والرومان كانتا إبان البعثة المحمدية وقبلها في دور انحطاط مريع ، فاستمرار الاقاليم العربية المجاورة لهما على حمل نيرهما وهما في هذا الدور من الدلائل المحسوسة على ان اهلها كانوا في حالة نفسية يقبلون معها كل اذلال يفرض عليهم

وليس أدل على تدهور وانحلال القبائل العدنانية فى نجد والحجاز ايضا من تركهم جيش ابرهة عامل الحبشة يتوغل فى بلادهم على عزم هدم الكعبة دون ان يلاقى اية مقاومة . اين هذا من غيرة اليونان حين اعتزم (الملك اكسيركسيس) ملك الفرس في القرن الخامس قبل ميلاد المسيح على اكتساح بلادهم فقاوموه شبرا شبرا حتي اصلوه فى مضايق الترموبيل نار حرب طاحنة لم يجد معها مناصا من الارتداد على عقبه رغما عما كان معه من الجيوش الجرارة والعدد المجتاحة

وان تذكرت ان جواب قريش نفسها على تلك الغارة الحبشية كان تركها الكعبة وما فيها من آلهتها تحت رحمته ولياذها بالشعاب دون ان يراق من رجالها قطرة دم علمت ان داء الانحلال كان قد سرى فى جسد الامة العربية متحضرها ومتبديها سريانا لم تعد معه تصلح لحماية حوزة، ولا للدفاع عن كرامة

نعم قد كان لبعض العرب ذكاء وفهم، وعيش فيه لين ونعمة ، ومن سكان المدن منهم كانوا على شيء من الحضارة ، ولكنهم كانوا على حال من الانحلال الادبي والاجتماعي لايرجي لهم معه قيام . فكانوا من الدين على وثنية منحطة خالية مما يموهها من المعابد الفخمة ، والهيا كل الضخمة ، والسدنة الراقين ، والمرشدين الروحيين ، وكانت عبادتهم تنحصر في حج البيت والتصفيق والصفير فيه . وكان لديهم السفاح ذائعا ، وشرب الخمر شائعا ، ولعب الميسر مباحا ، وتعدد الزوجات الي ما لا حد له سائغا ، وحرمان النساء من الميراث بل وراثتهن كما تورث الانعام والتحكم فيهن حقا مقررا ، واجبار فتياتهن على البغاء طمعا فى اجورهن عملا محللا . وكانوا مع ذلك يَدُعّون اليتيم ، ولا يتحاضون على طعام المسكين ، ويأكلون التراث أكلا لماً، ويحبون المال حبا جما

كل هذا صرح به القرآن ، وشهد به عليهم ، وجبههم به على رؤس الاشهاد .

وهو ليس بشيء في جانب داء دوى سرى في دمائهم ، واختلط بكيانهم ، واصبح عنصراً من عناصر وجودهم ، واصلا من اصول طبيعتهم ، الا وهو داء الفرقة مع كل ما يستتبعه من تناحر وتنازع ، وما يقتضيه من تناكر وتقاطع ، فكانت سيوفهم لا تجف من دمائهم ، ورماحهم لا تطهر من اشلائهم ، لا يجمعهم دين جامع ، ولا يلم شعثهم غرض واحد. قال تعالى: «لو انفقت ما في الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم »

فاذا كنا لا يجوز لنا ان نعتمد على اقوال المؤرخين الاسلاميين فيما رووه عن عسف ملوك العرب المجاورين للفرس بالعراق ، وللرومان في حدود الشام ، وعن انهماك الناس هنالك على السفاسف والدنيئات من الامور ، والقعود عن استرداد استقلالهم ، وقناعتهم بحياة العبودية والذل . وفيما رووه عن تناحر الاوس والخزرج بيثرب ، وشغل اهل مكة باللهو بالقيان ، والعزف بالعيدان ، والفسوق والعصيان ، قلنا اذا كان لا يجوز لنا الاعتماد على اقوال المؤرخين في ذلك لاتهامهم بتحقير الجاهلية والجاهليين ، وترويجهم دعوة الاسلام والمسلمين ، فان الحوادث تشهد عليهم بذلك ، فان هذه القبائل الكثيرة منهم قد لبثت قرونا قبل البعثة المحمدية في حالة جمود وخمود لم ينبغ فيهم داع الى هداية ، ولا رادع عن غواية ، ولا مصلح يحاول لم شعثهم ، وجمع متفرقهم ، وتوحيد كلمتهم ، ولا مشترع يجهد ان يضع لهم نظاما ، او يطلب لهم وئاما ، ولا فيلسوف ينظر في الحقائق ، ويحاول ادراك الدقائق ، ولا طامع في ملك يعالج من امرهم ما عالجه الطامعون في الامم ، ويعاني ما عاناه الساعون في بعث الهمم ، واحياء الرمم ، ولا صانع حتى في عواصمهم المتحضرة يحسن نحت اصنامهم ، او بناء معابدهم ، هذا والامم المتمدينة تحيط بهم من كل مكان ، والاتصال بينهم حاصل في كل آن ، فماذا تستنتج من هذه الحالة الراكدة ، والحياة الهامدة ، الا انهم كانوا قد استنفدوا كل ما في قدرتهم من اسباب البقاء ، ولم يبق لهم منها ما يبعثهم على الارتقاء ، لمباراة الاحياء ؟

يقولون قد بعث النبي صلى الله عليه وسلم في عهد كان العرب فيه يتحفزون للنهوض ، ويتهيأون للوثوب ، وقد بحثنا في مبلغ هذا القول من الصحة فلم نجد له اثرا

يدل عليه ، بل وجدنا ان الجمود ، والتمسك بالقديم ، والاستنامة الى المألوف العتيق ، كان قد بلغ منهم حدا يكاد لا يوجد له شبيه في تاريخ الامم . فقد دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الي توحيد الله وتنزيهه ، وترك ماهم عليه من الوثنية السافلة ، والعادات الساقطة ، ولم يترك وجها من وجوه التأثير عليهم الا آتي به على أكمل ما يكون ، فلم يلبه من اهل مكة الا عشرات من اهل الفهم والفطنة ، فرماهم مواطنوهم عن قوس ، واذاقوهم جميع الوان الاذى ، فصبروا على هذا الاضطهاد صبر الكرام ، فلما فاض الاناء ، وطفح الكيل ، فروا بدينهم حيث يأمنون عليه فى بلاد الحبشة ، وقضي رسول الله فيهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم الي الخروج من الظلمات الي النور ، فلم يزحزحهم ذلك عما هم فيه قيد شعرة . بل ظلوا يتهمونه بالكهانة تارة ، وبالسحر اخرى ، وبالشعر حينا ، وبالجنون حينا آخر ، حتي قيض الله له اهل المدينة وهم بنو الاوس وبنو الخزرج هاجروا الى يثرب بعد سيل العرم في القرن الثاني بعد الميلاد وكان يحيط بالمدينة يهود كثيرون ، فروا بدينهم من بطش الرومانيين ، فوقف منهم اولئك القحطانيون على ماهية الدين والتوحيد والنبوة فصاروا يعرفون عن كل هذه الامور شيئا ، ويميلون ان ينالوا منها حظا ، محاكاة لليهود ، وتخلصا من تعييرهم اياهم بالوثنية التي كانوا عليها ، فاستعدوا ان لا ينفروا من التحول عن باطل الي حق يُدعون اليه ، ولا عن قبيح الي حسن يعرض عليهم ، ولا عن ركود الي حركة يندبون اليها . فلما دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الي الاسلام ، وقرأ عليهم شيئا من القرآن ، وآنسوا من ذلك حقا ساطعا ، وجمالا رائعا ، لبوا نداءه ووعدوه بحماية دعوتهم ضد كل من يتصدى له ما دامت فيهم بقية من حياة

فكانت هذه الطائفة ومن انضم اليهم من مهاجرة مكة حجر الزاوية فى صرح الدولة الاسلامية التى ندبتها العناية الالهية لاحداث اكبر الحوادث العالمية وقلب الشؤن الارضية من حال الي حال آخر

واني اميل ايضا لان اجعل لطول الخصومة والحرب بين الاوس والخزرج دخلا ايضا في ترامیهم على الاسلام ليكون وسيلة سلام بين الفريقين دون ان يشعر طرف منهما بذلة المقهور ، وان يتحمل غطرسة الغالب الفخور

هذا ان ابينا ان نعتد في بحثنا هذا بغير العوامل الطبيعية والسنن الاجتماعية ، ولكنا إن وسعنا قليلا من دائرة التعليل حتي شملت القوة المدبرة للافراد والجماعات، والمهيمنة على نظام الوجود والموجودات، ساغ لنا ان نقول ان دخول الاوس والخزرج فى الاسلام لأول دعوة من رسول الله وتحمسهم له الى حد التضحية بالنفس دون تأميل فى اجر دنيوى يمكن ان يعتبر من الاستحالات الاجتماعية الفجائية ، على نحو الاستحالات الفجائية الحيوية التي اثبت العالم الالماني دوفريس *De Vries* حصولها بالتجربة في عالم النباتات والحيوانات ودحض بها مذهب دارون القائم على النشوء الطبيعى ، والتطور التدريجي ، حتي قال العلامة البيولوجي لودانتك *LeDantec* «لا اقول على مذهب دارون فحسب، ولكن اقول على مذهب التطور السلام »

نعم يمكن ان تعتبر الاستحالة الفجائية التي دخل فيها الأوس والخزرج من ناحية الدين من قبيل التدبير الالهي لاحداث ما يبتنى عليه من التطورات العالمية العظيمة، ولكنا نغفل هذا الاعتبار مادام يمكننا التعليل بالعوامل الاجتماعية حتي لا ندخل في العلم المتفق على حدوده اصولا من طبيعة علوية لم تبلغها وسائله بعد

يلوح من هذا لاول وهلة ان العرب لو كانوا على وشك نهضة لما صادفت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم منهم كل هذا النفور ولما كانت حجتهم المثلى في رفض الدين الجديد قولهم : « انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون » و « انما نتبع ماوجدنا عليه آباءنا » فان الامم المتحفزة للنهوض لا تدفع المجددين بمثل هذا الاصل الدال على اقصي درجات الجمود . بل عهدناها تكتسب شعورا حادا يسوقها لكراهية ما كان عليه آباؤها الاولون، وقد تغلو فتنسلخ من حقهم و باطلهم، وحسنهم وقبيحهم علي السواء، وتترامى في احضان كل جديد حتي ما كان منه ضارا بها كما يشاهد فى تركيا ومصر اليوم . فالفضل في التطور العظيم الذى دخلت فيه الامة العربية فأصبحت به منقذة العالم من براثن الجهالة والهمجية يرجع الى الروح المحمدية التي بثت الحياة في هذه الاشباح الجامدة فحركتها لطلب الحياة الصحيحه من كل مظانها، و بثت هذا الشعور فيمن حولها من الجماعات حتي استحقت خلافة الله في الارض كما استحقتها قبلها امم لا صلة بينها و بين العرب في شيء : « وعد الله الذين آمنوا منكم

وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم آمنا يعبدوننى لا يشركون بي شيئا »

مبلغ اتصال العرب بالامم الاجنبية من الوجهة السياسية والاقتصادية وتأثيرهم في السياسة العامة

يقول الدكتور طه حسين ان عرب الجاهلية كانوا على اتصال قوى بمن حولهم من الامم قسمهم احزابا وشيعا، وانهم كانوا يعنون بسياسة الفرس والروم وعلى اتصال اقتصادي بغيرهم من الشعوب، وانهم تجاوزا باب المندب الى بلاد الحبشة، وتجاوزوا الحيرة الى بلادالفرس، وتجاوزوا الشام وفلسطين الى مصر،وانهم كانوا امة متحضرة راقية لا امة جاهلة همجية

نقول قبل نقد هذا الكلام انه يجب على القارىء ان يذكر ان العرب كانوا فريقين فريق يجاور الفرس والروم فى العراق والشام والاحباش في اليمن، وفريق في نجد والحجاز بعيد عن مطامع الامم الاجنبية لصعوبة الوصول اليهم من جهة ، وجدوبة ارضهم من جهة اخرى . فاما الفريق الاول فكان واقعا تحت سلطان الامم الاجنبية منذ قرون قبل البعثة المحمدية. وقد استنام لذلك السلطان حتي صار لا يحدث نفسه بالانفصال عنها . فكان أفراد من هذا الفريق يجاوزون حدود بلادهم فيجوبون بلاد الفرس والرومان والحبشان طلبا للعيش . ونحن مع اقتناعنا بأن عرب تلك البلاد كانوا علي شيء من الحضارة الا ان شخوصهم الى تلك الاقطار لا يصح الاستدلال به علي رقيهم الادبي والاجتماعي فان كثيرين من بدو طور سيناء وطرابلس وبرنو وغيرها يحضرون الي مصر ويعودون الي بلادهم وهم علي ماهم عليه من شظف العيش والجمود علي المألوف

وهذه الاقطار العربية التى كانت خاضعة للاجانب لم ترفع بالاسلام رأسا عند ظهور النبي صلي الله عليه وسلم، بل بقيت مخلصة لاساداتها الاجانب وساعدت جيوشهم لصد العرب المسلمين عن بلادها وبلادهم . وقد ارسل رسول الله صلي الله عليه وسلم

جيشا فخلص اليمن من مخالب الفرس وغزا بنفسه شمال بلاد العرب فدفعت له بعض قبائلها الجزية . ثم خلفه ابو بكر فلم تطل مدته لعمل شيء اكثر من ارجاع القبائل العربية التي ارتدت بعد وفاة النبي الي حظيرة الاسلام ومن فتح بعض سورية . ثم لما خلفه عمر فتح بلاد العراق والفرس ومصر وألحقها ببلاد المسلمين

وكان تحضر هذا الفريق ورقيه ينحصران في ان الطوائف المجاورة للفرس اقتبست بعض عاداتهم فى الملبس والمأكل والمسكن والمجاورة للرومان دانت لملتهم واخذت إخذهم في حياتهم، ولكنهم لم يبلغوا قط مبلغ قاهريهم في علومهم وصنائعهم ولم يدركوا شأوهم فى مدنيتهم وترفهم . فلم يترك لنا المجاورون للفرس مثل ماتركه سادتهم في ذلك العهد من طبهم وفلسفتهم وآدابهم، ولا المجاورون للرومان مثل ما ابقوه من شرائعهم ونظمهم وعلومهم . والحكم للشعوب بالرقى والمدنية لا يكفى فيها بمجرد الادعاء ، فان للمدنية آثارا تبقى ، وللرقى معالم يقف عليها الاخلاف فيعرفون منها مبلغ ماوصل اليه اسلافهم . فان قلنا ان المصريين كانوا متمدنين راقين منذ خمسة آلاف عام فانما نستدل على ذلك بما تركوه لنا من الاهرام والانصاب والتماثيل والنقوش والمصنوعات . فهل لمن جاور الفرس والرومان من العرب شيء من هذه المتروكات لنستدل بها على انهم كانوا راقين متمدنين وعلى مبلغ ماوصلوا اليه من الرقى والمدنية ، اللهم الا اطلال قصور كانوا يستأجرون البنائين الاجانب لاقامتها لهم كما يستأجر القروى الثري بعض البنائين من القاهرة ليبنوا لهم دورا فخمة لا تقل عن احسن قصور العاصمة، بينما جمهور اهل القرية يسكنون الاكواخ المتخذة من الطين

اما الفريق الثاني من العرب وهم اهل نجد والحجاز فقد كانوا دون الأولين فى كل ناحية من نواحي الترقى الادبي والمادى لاشتغالهم بالغارات وبعدهم عن مراكز الحركة المدنية . فلم يكونوا على اتصال قوى بمن حولهم، قسمهم احزابا وشيعا كما يقول الدكتور طه حسين ، وما كانوا يعنون بسياسة الفرس والروم ، ولا كانوا متأثرين بالسياسة العامة ولا مؤثرين فيها

قد يكون حدث ان بعضهم تقلب فى بعض بلاد الفرس والرومان طلبا للعيش بنقل

بعض البضائع و بيعها هنالك . ولكن لا يصح تسمية هذه الانتقالات الفردية ، والمعاوضات التافهة اتصالا قويا فى العرف السياسي . فلدينا هنا اليوم رجال من بورنو وشنقيط والصومال يتعلمون العلم في مدارسنا ويوردون الينا شيئا من مصنوعاتهم ومحصولاتهم وينقلون لبلادهم شيئا من مصنوعاتنا ومحصولاتنا ومع ذلك فلا يقال ان بيننا وبينهم اتصالا قويا . ويتبع هذا انهم لا يعقل ان ينقسموا الى احزاب وشيع بسبب هذا الاتصال الذى لا يذكر والا لطهر تأثيره فيهم ، ولا انتقل خبره الينا في شيء من الشعر او التاريخ على علاتهما . وقد ذكر في اشعارهم انهم اتصلوا بالجن والاغوال والسعالي وورد في تاريخهم اخبار عن هذه الكائنات ، ولم يصلنا عن اتصالهم بالفرس والروم شيء غير ما ذكرنا

اما ما استند اليه الدكتور طه حسين فى هذا الصدد من قوله تعالى « غُلبت الروم في ادني الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » فان له سببا : وذلك انه لما وردت اخبار الركبان بان الفرس غلبوا الرومان في حرب كما يرد الي نيجيريا او ليبريا او السنغال اخبار عن مصر وتركيا والصين والسويد ، فرح المشركون لانتصار الفرس، لا لأن ذلك الانتصار سيكون له تأثير في نجد والحجاز ، ولكنهم تفاءلوا منه لانفسهم اذ قالوا ان الروم اهل كتاب مثلكم ، والفرس لا كتاب لهم مثلنا ، وقد انتصر الاخيرون على الاولين فسننتصر عليكم نحن كذلك . فنزلت هذه الآية تنبئهم بأن النصر سيكون للروم في بضع سنين ويومئذ يفرح المؤمنون بانتصار اهل الكتاب على من لا كتاب لهم . فراهن ابو بكر بعض المشركين على ان ذلك سيقع بعد ثلاث سنين واخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما فعل فقال له ان البضع تمتد الى التسع فمد في الاجل الي تسع وزده في الرهان . ففعل . ولم تمض هذه المدة حتي كر الروم على الفرس فهزموهم

هذه حقيقة تلك الآية وهي لا تعدو التفاؤل كما تفاءل المصريون بانتصار اليابانيين على الروس باعتبار انهم شرقيون مثلهم ، وكما فرحوا بانتصار الاحباش على ايطاليا لكراهتهم لمبدأ الاستعمار لا لتأثرهم من انتصار احداهما على الاخرى في اى ناحية من نواحي شؤنهم الادبية او الاقتصادية

والا فماذا كان تاثير الفرس غير الكتابيين في الدعوة الاسلامية وقد لبث امد انتصارهم تسع سنين ؟ أقلل من نشاط النبي صلى الله عليه وسلم ؟أصد الناس عن الدخول في الاسلام ؟ أأمد المشركين بما يمكنهم من ابادة الذين آمنوا بالقرآن ؟

ثم ماذا كان من تأثير كرة الروم على الفرس ؟ أفتّ في عضد المشركين فحملهم على الدخول في دين الله افواجا ؟ أهالهم امره فسلموا مكة لرسول الله بلا حرب ؟ أستوجب ان يمد الروم المسلمين بالسلاح والمال ليتقووا بهما على المشركين ؟

شيء من ذلك لم يكن، وهو اول دليل على ان ماورد في القرآن مما يتصل بهذا النزاع بين الروم والفرس كان الداعي اليه ماذكرناه من نفي تفاؤل المشركين لانهم كانوا مؤثرين في السياسة العامة ولا متأثرين بها

اما اتصالهم الاقتصادى (اى اهل نجد والحجاز) بغيرهم من الشعوب فكان على ادني ما يمكن ان يتصوره العقل وكل مافي هذه المسئلة ان سكان مكة كان لهم رحلتان احداهما في الصيف الى الشام والاخرى في الشتاء الي اليمن . وكان غرضهم من ذلك مبادلة أشياء من محصولاتهم ومصنوعاتهم بأشياء من محصولات ومصنوعات ذينك القطرين . ومثل هاتين الرحلتين لا نسميان اتصالا اقتصاديا بالمعنى المعروف عند علماء الاقتصاد . فان كل مافيها ان أهل مكة والمدينة كانوا يسافرون مرة الى الشمال ومرة الى الجنوب لاستيراد بعض ماهم في حاجة اليه من الاقمشة والآنية والاسلحة كما يحصل بين كل بلدين متجاورين . وما كان اهل مكة والمدينة في حاجة الى شيء يعتد به يصح تسميته اتصالا اقتصاديا

فان كان لابد من الاستدلال بالارقام فاليك ماجاء في السيرة النبوية عند الكلام على غزوة العشيرة . وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم خرج في نحو مئتين من اصحابه يريد عير قريش التي صدرت من مكة الى الشام بالتجارة . وكانت قريش جمعت اموالها في تلك العير ويقال ان فيها خمسين الف دينار والف بعير . وكان قائد تلك العير ابو سفيان بن حرب ومعه سبعة وعشرون وقيل تسعة وثلاثون رجلا منهم مخرمة بن نوفل وعمرو بن العاص فوجدها قد مضت قبل ذلك بأيام . وهذه العير هي التي خرج اليها لما عادت من الشام فأفلتت منه وحدثت بسببها

وقعة بدر (١)

فثروة تقدر بخمسين الف او مئة الف دينار ليست بشيء يذكر ولا يخفى ان مؤلفي المسلمين لا يتهمون في بخس ثروة قريش

وماذا يرجى ان يكون من الاتصالات الاقتصادية بالخارج في مدينة يسكنها زهرة العرب وليس فيهم من يعرف القراءة والكتابة غير رجلين اثنين حتى انه لما نشأت الدولة الاسلامية واحتاج الامر لتدوين الدواوين واحصاء الجنود واصحاب الحقوق اضطروا لاستخدام الكتبة من غير العرب فكانت اللغات الرسمية في الولايات هي لغات اهل تلك الولايات لعدم وجود من يصلح من العرب لذلك . فلما وجد في العرب متعلمون في خلافة عمر ابدل هؤلاء بأولئك

فنحن وافقنا الدكتور طه حسين في ان عرب الجاهلية كانوا على اتصال بمن حولهم من الامم ، وعلى ان بعضهم كان على شيء من الحضارة ، ولكن في الحدود التي رسمناها هنا بشهادة الواقع نفسه ، والا فأي سحر بيان في العالم يستطيع ان يقنع الناس بأن امة يقال انها كانت متحضرة وراقية ومتصلة اتصالا اقتصاديا قويا بالامم المجاورة لها ، وكانت مؤثرة في السياسة العامة ، ومع هذا كله لم يوجد فيها بعد ان صارت دولة رجال من ابنائها ممن يعرفون القراءة والكتابة يستطيعون ان يتولوا العمل لا نقول في وزارات ومصالح ولكن في بضعة سجلات يحصرون فيها اسماء الجند واصحاب المرتبات ؟

ان كل من يتعمق في دراسة تاريخ عرب الجاهلية ويستبطن ما كانوا عليه من عوامل التقهقر التي اوقعتهم تحت نير الامم المجاورة لهم وقضت على البعيدين منهم عن تلك الامم في حالة بداوة وفوضى وتناحر آمادا طويلة ، يدهش من عظم تأثير الروح المحمدية التي اذابت هذه الكتل المتحجرة من الطوائف المتعادية ذات التقاليد والعادات الموبقة ، وكونت منهم امة ذات اصول ومبادىء عالية دفعتها في سنين معدودة الى بلوغ غاية من العلم والمدنية لم تبلغها امة قبلها ، ولا يزال العالم يتأثر بروح منها

(١) السيرة النبوية والآثار المحمدية لزيني دحلان صفحة ١٨٨ من المجلد الاول

الي اليوم

٤
الشعر الجاهلى واللغة

ننتقل الآن الي الفصل الرابع من فصول كتاب الشعر الجاهلى ونلخصه فيما يلى مع المحافظة على عبارات المؤلف قال :

(الشعر الذى رأينا انه لا يمثل الحياة الدينية والعقلية للعرب الجاهليين بعيد كل)
(البعد عن ان يمثل اللغة العربية فى العصر الذى يزعم الرواة انه قيل فيه . فلنجتهد)
(في تعرّف اللغة الجاهلية هذه ماهي ، او ماذا كانت فى العصر الذى يزعم الرواة)
(ان شعرهم الجاهلى هذا قد قيل فيه . اما الرأى الذي اتفق عليه الرواة او كادوا)
(يتفقون عليه فهو ان العرب ينقسمون الى قسمين : قحطانية منازلهم الاولي في اليمن)
(وعدنانية منازلهم الاولي في الحجاز)

(وهم متفقون على ان القحطانية عرب منذ خلقهم الله فطروا على العربية فهم)
(العاربة ، وعلى أن العدنانية قد اكتسبوا العربية اكتسابا ، كانوا يتكلمون)
(لغة اخرى هي العبرانية او الكلدانية ثم تعلموا لغة العرب العاربة . وهم متفقون)
(على ان هذه العدنانية المستعربة انما يتصل نسبها باسماعيل بن ابراهيم)

(ويتفق الرواة ايضا على ان هناك خلافا قويا بين لغة حِمْير (وهي العرب)
(العاربة) ولغة عدنان (وهي العرب المستعربة)

(اذا كان ابناء اسماعيل قد تعلموا العربية من أولئك العرب العاربة فكيف)
(بَعُد ما بين اللغة التى كان يصطنعها العرب العاربة واللغة التى كان يصطنعها العرب)
(المستعربة حتي استطاع ابو عمرو بن العلاء ان يقول انهما لغتان متمايزتان . وواضح)
(جدا لكل من له المام بالبحث التاريخي عامة و بدرس الاساطير والاقاصيص خاصة)
(ان هذه النظرية متكلفة مصطنعة في عصور متأخرة دعت اليها حاجة دينية او)
(اقتصادية او سياسية)

(للتوراه ان تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل، وللقرآن ان يحدثنا عنهما ايضا ولكن)
(ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لايكفى لاثبات وجودهما التاريخي فضلا)
(عن اثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم الى مكة ونشأة)
(العرب المستعربة فيها . ونحن مضطرون الى ان نرى في هذه القصة نوعا من الحيلة)
(فى اثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة و بين الاسلام واليهودية والقرآن)
(والتوراة من جهة اخرى . واقدم عصر يمكن ان تكون نشأت فيه هذه الفكرة انما)
(هو هذا العصر الذى اخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية و يبثون)
(فيه المستعمرات . فنحن نعلم ان حروبا عنيفة شبت بين اليهود المستعمرين و بين)
(الذين كانوا يقيمون في هذه البلاد وانتهت بشيء من المسالمة والملاينة . فليس)
(يبعد ان يكون هذا الصلح الذى استقر بين المغيرين واصحاب البلاد منشأ هذه)
(القصة التى تجعل العرب واليهود ابناء اعمام)

(ولكن الشيء الذى لاشك فيه هو ان ظهور الاسلام وما كان من الخصومة)
(العنيفة بينه و بين وثنية العرب من غير اهل الكتاب قد اقتضى ان تثبت الصلة)
(الوثيقة بين الدين الجديد و بين الديانتين القديمتين : ديانة النصارى واليهود)
(فاما الصلة الدينية فثابتة واضحة ، ولكن هذه الصلة معنوية عقلية يحسن ان)
(تؤيدها صلة اخرى مادية ملموسة بين العرب واهل الكتاب . فما الذى يمنع ان)
(تستغل هذه القصة قصة القرابة المادية بين العرب العدنانية واليهود؟)

(وقد كانت قريش مستعدة لقبول مثل هذه الاسطورة في القرن السابع)
(للمسيح . فقد كانت في اول هذا القرن قد انتهت الي حظ من النهضة السياسية)
(ولاقتصادية ضمن لها السيادة في مكة وما حولها و بسط سلطانها المعنوى على جزء)
(غير قليل من البلاد العربية الوثنية . وكان مصدر هذه النهضة وهذا السلطان)
(امرين : التجارة من جهة والدين من جهة اخرى)
(فاما التجارة فكانت قريش تصطنعها في الشام ومصر و بلاد الفرس واليمن)
(و بلاد الحبشة)

(واما الدين فهذه الكعبة التي كانت تجتمع حولها قريش و يحج اليها العرب)

(المشركون في كل عام والتي اخذت تبسط على نفوس هؤلاء العرب المشركين نوعا)
(من السلطان قويا ، والتى اخذ العرب المشركون يجعلون منها رمزا لدين قوى كان)
(يريد ان يقف فى سبيل انتشار اليهودية والمسيحية . فنحن نلمح فى الاساطير ان)
(شيئا من المنافسة الدينية كان قائما بين مكة ونجران . ونحن نلمح في الاساطير ايضا)
(ان هذه المنافسة بين مكة و بين الكنيسة التى انشأها الحبشة في صنعاء هي التي دعت)
(الي حرب الفيل التي ذكرت في القرآن)
(فقريش اذن كانت في هذا العصر ناهضة نهضة مادية تجارية ونهضة دينية)
(وثنية . وهي بحكم ها تين النهضتين كانت تحاول ان توجد في البلاد العربية وحدة)
(سياسية وثنية مستقلة تقاوم تدخل الروم والفرس والحبشة وديانا تهم في البلاد)
(العربية . فيكون من المعقول جدا ان تبحث هذه المدنية الجديدة لنفسها عن اصل)
(تاريخي قديم يتصل بالاصول التاريخية الماجدة التي تتحدث عنها الاساطير .)
(واذن فليس مايمنع قريشا ان تقبل هذه الاسطورة التي تفيد ان الكعبة من تأسيس)
(اسماعيل وابراهيم)
(امر هذه القصة اذن واضح : فهى حديثة العهد ظهرت قبيل الاسلام)
(واستغلها الاسلام لسبب دينى وقبلتها مكة لسبب دينى وسياسى ايضا . واذن)
(فنستطيع ان نقول ان الصلة بين اللغة العربية الفصحي التي تتكلمها العدنانية واللغة)
(التي كانت تتكلمها القحطانية انما هي كالصلة بين اللغة العربية واي لغة اخرى من)
(اللغات السامية. وان قصة العاربة والمستعربة وتعلم اسماعيل العربية من جرهم كل)
(ذلك حديث اساطير لاخطر له ولا غناء فيه)
(والنتيجة من هذا البحث هي ان الشعر الذى يسمونه الجاهلى لا يمثل اللغة)
(الجاهلية ولا يمكن ان يكون صحيحا . ذلك لاننا نجد بين هؤلاء الشعراء الجاهليين)
(قوما ينتسبون الى عرب اليمن التى كانت تتكلم لغة غير لغة القرآن والتي اثبت)
(البحث الحديث ان لها لغة اخرى غير العربية)
(ولكننا حين نقرأ الشعر الذى يضاف الي شعراء هذه القحطانية فى الجاهلية)
(لا نجد فرقا بينه و بين شعر العدنانية ، بل لا نجد فرقا بينه و بين لغة القرآن .)

(فكيف يمكن فهم ذلك او تاويله ؟ امر ذلك يسير وهو ان هذا الشعر الذي يضاف)
(الى القحطانية ليس منها في شيء وانما حمل على شعرائها بعد الاسلام لاسباب)
(مختلفة سنبينها حين نعرض لهذه الاسباب)

راينا فى هذا الكلام

ذهب علماء العربية الى ان القحطانيين عرب اُخلّص لغتهم العربية الفصحي وان العدنانيين عرب ولكن جدهم الاعلى اسماعيل بن ابراهيم ، ويذهب الدكتور طه حسين الى ان لغة اليمن لغة غير العربية اعتمادا على قول اللغوى عمرو بن العلاء و بعض الباحثين المحدثين . وان الصلة بين العربية الفصحي التى كانت تتكلمها العدنانية و بين اللغة التي كانت تتكلمها القحطانية انما هي كالصلة بين اللغة العربية واي لغة اخري من اللغات السامية . ونحن لا نوافقه على هذا الرأى بل هو غير معقول اصلا واليك البيان :

الاصل في اللغات السامية البابلية وقد اشتقت منها العبرانية والحبشية والسريانية والعربية حتي ان العارف باحدى هذه اللغات يستطيع ان يعيش بين ظهراني اهل سائر هذه اللغات و يؤدى حاجاته الضرورية بلغته ثم لا يلبث غير قليل حتي يصير فى لغتهم كأحدهم . وقد كانت سميت اللغة التي يتكلم بها ساكنو الحبشة باللغة الحبشية واللغة التى كان يتكلم بها ساكنو بابل باللغة البابلية فمن الحق ان تسمي اللغة التى يتكلمها اهل البلاد التي اصطلح على تسميتها قديما وحديثا ببلاد العرب باللغة العربية . وقد أطلق مؤرخو الاقدمين على اليمن اسم البلاد العربية حتي سماها اليونانيون لغناها ببلاد العرب السعيدة . واذا كانت اليمن من بلاد العرب فمن العبث ان لا تسمي لغتها باللغة العربية . واذا ثبت ان بين لغة اليمن ولغة نجد وتهامة اختلافا فيجب ان نلتمس تعليل هذا الاختلاف في الاسباب السياسية والاقتصادية والجغرافية لا في غيرها . واذا كنا رغما عن الخلاف الكبير بين اللغات الحبشية والعبرانية والسريانية والعربية ندعي انها كلها مشتقة من البابلية فمن العبث ان يحملنا الخلاف الموجود بين لغتي شمال

العرب وجنوبها على القول بانهما لغتان متمايزتان مع وجود الصفة المميزة الوحيدة للغة العربية وهي الاعراب في كلتا اللهجتين العدنانية والقحطانية

واذا كان بين اللهجتين العدنانية والقحطانية خلاف فبأي مرجح ندعي ان العدنانية هي اللغة العربية الفصحى وان اليمنية لغة اجنبية ، مع ان اهل هاتين اللغتين جميعا يسكنون بلادا اطلق عليها الناس من يوم خلقت اسم البلاد العربية ، ولا مرجح لذلك لا من الوجهة الجغرافية ولا من الوجهة الدينية فكلتا الطائفتين كانت تسكن بلادا واحدة وتحج الى كعبة واحدة ، وتجري في اخلاقها وعوائدها على سنة واحدة ، وتعرفان انهما ابناء امة واحدة وكلتاهما دخيلتان في البلاد العربية

نعم لك ان تقول ان لغة العدنانية كانت ارق من اللغة القحطانية ، وان لهجة قريش كانت ارق من سائر لهجات القبائل العدنانية التي كانت تتخالف فيما بينها تخالفا عظيما ، حتى نزل القرآن بها . ولكن لك ليس ان تقول ان القحطانية ليست بعربية بسبب الخلاف بينها وبين العدنانية

اما هذا الخلاف بين اللغتين العدنانية والقحطانية فسببه يرجع الى عوامل سياسية واقتصادية . فان اليمن لعظم مواردها الطبيعية قد تعاورها الفاتحون من زمان بعيد فاحتلها الفرس والاحباش آمادا طويلة . وقصدها التجار من مختلف الاقطار فتسربت الى لغتها الفاظ كثيرة من لغات الفاتحين والمتعاوضين فباينت بها عربية شمال بلاد العرب كما باينت اللغة التركية التي يتكلمها اتراك الاناضول وتراقيا اللغة التركية الاصلية التي يتكلمها الاتراك الخلص في التركستان و بلاد التتار ، وذلك بسبب دخول الفاظ عربية وفارسية واوربية اليها حتى صار التركى الاناضولى لا يفهم لغة التركى التركستاني او التتارى . وكما باينت اللغة الالمانية التي يتكلمها المان امريكا لغة اخوانهم الالمان في وسط اوروبا

***

اما تقسيم اللغويين القدماء العرب الى عاربة لغتها الاصلية العربية ، والى مستعربة لغتها الاصلية العبرانية فليس بشيء . فان اسماعيل لما سكن مكة كان غلاما صغيرا كما يقولون واختلط هنالك ببني جرهم . فالمعقول ، وبخاصة مع تقارب اللغتين العبرانية

والعربية ، انه لم يلبث معهم شهورا حتى صار يتكلم العربية مثلهم . ثم لم تمض عليه بضع سنين حتي نسي لغته الاصلية . وقد روى انه تزوج امرأة من جرهم وولدله اولادمنها ، فكيف يعقل ان اولاده تكلموا العبرانيه في تلك البيئة التى ليس فيها من يتكلمها حتى ولا ابوهم لنسيانه اياها اولاستغنائه عنها

فالمعقول ان اسماعيل وبنيه نشأوا يتكلمون العربية لغة امهم فاية حاجة بعد هذا لتقسيم العرب الي عاربة ومستعربة ؟ ألان اسماعيل كان عبرانيا ؟ اذن وجب قياسا على هذا ان يكون بين العرب عرب مستعربة لايحصى لهم عدد فقد تزوج رجال من الزنوج والاحباش والفرس والروم فى كل الاجيال نساءعربيات فيجب ان يطلق على اولادهم جريا على هذه القاعدة اسم عرب مستعربة . هذا لم يحصل قط . فلماذا اذن خُص اولاد اسماعيل بهذا الاسم الى اليوم ؟ وهل كان بقى من عبرانيتهم شيء من عهد اسماعيل الى عهد النسابين الذين وضعوا هذ التقسيم في صدر الاسلام عن جهل وهذه المدة تقدر بنحو سبعة وعشرين قرنا

كان هذا التقسيم يكون له موضع لو ان قبيلةعبرانية برمتهاهاجرت من فلسطين الى بلاد العرب وحافظت على دياناتها وتقاليدها ومقوماتها ولكنها اتخذت اللغة العربية لغة لها . فيصح ان يطلق على هذه القبيلة انها مستعربة ولكن تسمية نصف الامة العربية بالمستعربة لان رجلا واحدا اندمج فيهامنذ عشرات من القرون فهذا اغرب مايسمع من انساب الامم وليس له نظير فى العالم كله

***

يقول الدكتور طه حسين : « انا مضطرون ان نرى في قصة هجرة اسماعيل الى مكة ونشوء العرب المستعربة بها نوعا من الحيلة فى اثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الاسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة اخرى . واقدم عصر يمكن ان تكون نشأت فيه هذه الفكرة انما هو العصر الذي اخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية . فنحن نعلم ان حروبا عنيفة شبت بين اليهود وبين الذين كانوا يقيمون في هذه البلاد وانتهت بشيء من المسالمة والملاينة فليس ببعيد ان يكون هذا الصلح منشأ هذه القصة التى ستجعل اليهود والعرب

اولاد اعمام »

ثم قال : « امر هذه القصة اذن واضح فهي حديثة العهد ظهرت قبيل الاسلام واستغلها الاسلام لسبب ديني ، وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي ايضا »

ونحن نقول ان شمال بلاد العرب لا يسكنه العدنانيون من ذرية اسماعيل وحدهم بل يساكنهم فيه العرب القحطانيون فكان بنو غسان في بادية الشام وهم اول من لقيهم اليهود من العرب في طريق هجرتهم . وكانت قبيلتا الاوس والخزرج سكان المدينة الذين اختار اليهود جوارهم من القحطانيين ايضا . وكان في شمال بلاد العرب من القبائل القحطانية بنو مذحج في اطراف الحجاز ، و بنو الازد في منى ، و بنو خزاعة بجوار مكة وجل هذه القبائل اشتركت في اصلاء اليهود نيران الحروب وكانت اشدها عليهم فاذا كانت قصة هجرة اسماعيل الي مكة قد اخترعها اليهود لاثبات قرابتهم للعرب بقصد رد عاديتهم عنهم فلماذا جعلوا هذه القرابة خاصة ببعض العرب دون البعض الآخر وكلهم كانوا سواء في خصومتهم ، بل كان اول من قابلهم في طريقهم القبائل اليمنية وقد اختاروا ان يجاوروا تلك القبائل بقرب يثرب ؟ وما دام اساس هذه القصة الخدع والتزوير وقد حدثت قبيل ظهور الاسلام اى بعد هجرة القبائل اليمنية الى شمال بلاد العرب فأى داع جعلهم يقصرون الخدع على بعض القبائل دون البعض الآخر ؟

ثم لو كانت هذه القصة حيلة من اليهود افتعلوها ليعيشوا مع العرب بسلام آمنين لكانوا، حين اجمعوا على الهجرة الي بلاد العرب، جعلوا ترويجها بين العرب باكورة اعمالهم لا أن يبدأوا هجرتهم بالحروب العنيفة حتي اذا طحنتهم المعارك سنين ابتكروها لتكون سببا في اجتلاب عطف خصومهم عليهم

وهل ابتكارها بعد تلك المعارك الطاحنة لا يثير في نفوس العرب الشك في صحتها، بل الجزم بأنها حيلة يراد بها خضد شوكتهم ، وثلم حميتهم ؟

وعلى اى اساس طاف بمخيلة اليهود ان هذه الحيلة ترد عادية العرب عنهم؟ أآنسوا انهم يكبرون شأنهم الى حد انهم يفخرون بقرابتهم لهم وهم يضربون وجوههم وادبارهم ، ليطردوهم من بلادهم ؟

أرأوا ان العرب يباهون بالاعتزاء الي اب اجنبي عنهم فاتوهم من جهة ميلهم هذا وأوهموهم انهم ابناء اسماعيل لا ابناء رجل عربي صميم ، وهم معروفون منذ اقدم ايامهم بكراهية الدخلاء ، وتحقير الملحقين والادعياء ، حتي انهم ليسمون من كانت امه عربية وابوه احنبيا بالهجين تحقيرا له ؟

أشاهدوا ان العرب يعظمون اليهودية ، ويعتبرونها دينا سماويا صحيحا فيسرهم ان يكرموا وفادة الآخذين به فزوروا لهم هذه القرابة ؟

أأحسوا ان العرب يعظمون ابراهيم ويعدونه نبيا ويسرهم ان ينتسبوا اليه فقاموا بتزوير هذه النسبة لهم توسلا بها لنيل مرضاتهم ؟

أعلموا ان العرب كانوا يحبون التوحيد حبا جما ويحبون كل داع اليه ، ويسرهم ان يكونوا اقرباء زعمائه الاولين ، فاختلبوا البابهم بتمويه هذه الحيلة عليهم، وهم المعددون للآلهة ، القائلون لمحمد عليه الصلاة والسلام : « أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب ، وانطلق الملأ منهم ان امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يُراد، ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق» وقالوا: «ءانا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون؟ » كما ورد في القرآن عنهم في سورتي ص والصافات

***

ثم اننا نقول ان قريشا لم تعمل قط على ترويج نسبتها الى ابراهيم واسماعيل لعدم وجود اى دليل على ذلك . ولعلها امتنعت عن ذلك لثلاثة اسباب :

(اولها) انها لم تكن تأبه بهذه النسبة لان اسماعيل لم يكن في نظرها ممن يؤبه له لامن الوجهة الدينية، فانها كانت وثنية، ولامن الوجهة الدنيوية، فانه لم يكن ملكا عظيما ، ولا فاتحا خطيرا ، ولا فارسا مغوارا ، ولا شيئا مما يعتد به الجاهليون ويفخرون به . ولو كانوا يرون فى الانتساب اليه فخرا لهم لأكثروا من تسمية انفسهم بابراهيم واسماعيل ولكانوا على دينهما متشددين في التوحيد، متمسكين بآدابهما الى مدى بعيد

(ثانيها) ان ترويج نسبة قريش اليهما لم يكن يُرجي من ورائه فائدة لها ذلك لأنها لم تكن هي القبيلة الوحيدة التي تنتسب اليهما فقد كان نحو نصف العرب ينتسبون اليهما ،

ويعرفون انهما هما اللذان بنيا الكعبة

(ثالثها) لأن هذا الترويج كان يفضي الى إضغان القبائل اليمنية عليها. وأن تلك القبائل لم تكن تعتقد بنبوتها حتي تخضع للمنتسب اليهما، فكانت تعد ذلك من قريش فضولا يسقط من كرامتها بدل ان يرفع من منزلتها

ومما يدل دلالة تكاد تكون محسوسة على ان قريشا لم يطف بخيالها هذا الترويج قط عدم عنايتها بتسمية اولادها بابراهيم اواسماعيل وانت خبير أن هذه التسميات ذات دلالات قوية على تطور الحوادث الاجتماعية حتي انها وحدها لتشير الي مبلغ تشيع الشعوب لبعض الافراد الممتازين ، او الي دور انتقال جديد ، او الى اتجاه الامة نحو مثل أعلى في الحياة الادبية

اما الذي احيا هذا التاريخ القديم في البلاد العربية ، ووصل بين حلقات الحوادث الخاصة به، واشاد بذكر ابراهيم واسماعيل فهو القرآن وحده لانه جاء بالتوحيد وابراهيم كان اشهر الداعين اليه فى الاولين ، وهو مع هذا الجد الأعلى لكثير من القبائل العربية ، وباني الكعبة . فكان من مصلحة الدعوة الاسلامية ترويج هذا التاريخ الصحيح واشاعته بكل مافي الوسع من بيان وتأثير

فالقرآن هو الذى احيا اسمي ابراهيم واسماعيل في بلاد العرب ، ونوه بديانتهما الحنيفية القائمة على التوحيد والتنزيه ، ودعا ذريتهما العرب الي الاخذ بها ونشرها فى العالمين حتي ان الدين قرن اسمه فى التشهد في الصلاة باسم خاتم النبيين وهو «اللهم صل وسلم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم في العالمين انك حميد مجيد »

وقد انتج التنويه بابراهيم واسماعيل نتيجته الطبيعية فأخذ الناس بدينهما واكثروا من التسمي باسميهما . هذا هو الترويج لتاريخهما ودينهما ، وهذا اثره فى حياة أمة برمتها لا ما كان عليه الحال في الجاهلية

لهذا الترويج لزعماء المذاهب الكبرى فائدة لاتنكر فهذا هو الدكتور طه حسين نفسه يكثر من ذكر ديكارت ويروج اسلوبه في البحث ترويجا رآه بعضهم (بغير حق) داعيا الى السخرية . فما ظنك لو كان ديكارت هذا جدا أعلى للامة المصرية

أكانت دعاية الدكتور طه حسين له تقف عند حد ؟ وهل كان يلومه عاقل على استهتاره ذلك وبلوغه منه أقصي مايحتمله الوسع ؟

***

ويقول الدكتور طه حسين : ان قصة هجرة اسماعيل الي مكة نوع من الحيلة لاثبات الصلة بين الاسلام واليهودية والقرآن والتوراة

ونحن نسأله أكان الاسلام ، لأجل ان يقوم بما انتدب له من هداية العرب ورفعهم الي مستوي الامم الحية ، فى حاجة الي انتحال الصلة بينه و بين اليهودية حتي يصح ان يقال انه استغل هذه القصة لمنفعته الشخصية ؟

ان اساس اليهودية التوحيد فهل كان العرب يحبون التوحيد الي حد أنهم لا يقبلون دينا جديدا لا يكون ذا صلة بالدين الذى يدعو اليه من زمان بعيد وهو اليهودية ؟

ان العرب كانوا يكرهون اليهود واليهودية و يعملون على طردهم وطردها من البلاد بالسيف والرمح فهل من حسن سياسة الدين الجديد الذى يعمل لان يكون دين العرب كلهم ان يثبت ان بينه و بين اليهودية صلة وثيقة من بعض الوجوه ؟

واذا قيل ان محمدا استغل هذه القصة ليسوغ له ادعاء النبوة باعتبار أنه من ولد اسماعيل بن ابراهيم فهل كان هو وحده من بين جميع القبائل العدنانية من ذرية اسماعيل ابن ابراهيم ؟

وهل كان من القواعد المقررة عند العرب انه لاينال النبوة الا رجل من ذرية اسماعيل بن ابراهيم ؟

وهل كان العرب يعتقدون بنبوة اسماعيل وهو موحد وهم معدودون ؟

ان العرب العدنانية كانوا يعرفون بأنهم ذرية اسماعيل بن ابراهيم ولكنهم لم يكونوا يفخرون بذلك . ولو كانوا يفخرون به لملأوا الدنيا شعرا في هذا الباب ولاشتد التناظر بينهم و بين العرب القحطانيين ، ولامتنع هؤلاء عن الحج الى مكة نكاية فى العدنانية . والحقيقة ان العرب لاشتغالهم بتنازع البقاء ، ولوقوعهم فى التناحر الشديد ، كانوا بعيدين عن البحث فى امثال هذه المسائل الكمالية . فكل الذى كان يعنيهم هو ان يحصلوا على القوت والماء فى تلك الصحاري والمهامه القاحلة الماحلة التى تسع انهار

الدنيا مجتمعة ولم تمنح منها بجدول يدل غلة اهلها بشبم زلال ، و ينبت لاهلها بعض ماتحتاج اليه من النباتات

بقي القرآن،فهل كان في حاجة لأن يثبت ان بينه و بين التوراة صلة،وهو ينعى على اهل التوراة تحريفهم للكلام ، وصرفهم الامور عن وجوهها ، و يشنع عليهم بذكر تمردهم على موسى وهرون،وعبادتهم العجل في دور من أدوارهم الخ الخ، فهل مما جرت به العادة ان يعمد المحتال على اثبات صلة كتاب بكتاب الي مهاجمة اهله هذه المهاجمة العنيفة ، و يؤلمهم هذا الايلام الشديد، ليحملهم على العمل ضده بكل ما في استطاعتهم، ام يلاينهم و يصانعهم ، و يتوسل لاثبات تلك الصلة بوجوه غاية في المهارة وحسن الاسلوب ؟

ثم اننا نسأل هل كان عرب الجاهلية يحترمون التوراة و يرونها كتابا الهيا و يتخذون منها تمائم وطلاسم للتبرك بها ، و يكتبون آياتها على جدران بيوتهم،و يحفظون نسخا كاملة منه في معابدهم ، فرأى محمد أن من حسن التوسل الى قومه ان يعمل جهده على اثبات ان بين كتابه و بين التوراة صلة مؤكدة ليأنسوا به و يحبوه حبهم للتوراة اواقل قليلا ؟ وهم الذين كانوا يعملون على طرد اليهود من بلادهم بما حملوا من كتابهم واساطيرهم بأقسى مايتصوره العقل من حرب طاحنة ؟

اللهم اننا لانرى وجها للحيلة في اثبات الصلة بين الاسلام واليهودية ولا بين القرآن والتوراة ، ، فان كان في القرآن ذكر عن اليهودية والتوراة ففيه ذكر عن النصارى والانجيل ، بل هو قد ذكر النصاري والانجيل وعيسي والحواريين والرهابنة بكثير من العطف فقال : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصاري ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون». وقد ذكر ايضا الصابئة والمجوس والدهريين ومنكرى البعث وغيرهم . ذلك لان الاسلام قد جاء باصلاح دينى عام للامم كافة فكان لابد من ذكر هذه الاديان والتنبيه على مافيها من الانحراف عن جادة المنطق للتأثير في اهلها كما يضطر الفيلسوف الى ذكر مذاهب اسلافه ونقدها

***

ويقول الدكتور طه حسين : « ان قريشا كانت تحاول ان توجد في البلاد العربية وحدة سياسية وثنية مستقلة تقاوم تدخل الروم والفرس والحبشة ودياناتهم في البلاد العربية . فيكون من المعقول جدا ان تبحث هذه المدنيـة الجديدة لنفسها عن اصل تاريخي قديم يتصل بالاصول التاريخية الماجدة التى تحدث عنها الاساطير . واذن فليس مايمنع قريشا ان تقبل هذه الاسطورة التي تفيد ان الكعبـة من تأسيس اسماعيل وابراهيم »

ونحن نقول ان كان هذا صحيحا وكانت قريش تحاول ان توجد في البلاد العربية وحدة سياسية وثنية كانت بحثت لنفسها عن اصل تاريخي يعم جميع العرب لاعن اصل يشطرها شطرين فيجعل بعضها من ولد اسماعيل وبعضها لااصل له ، خصوصا وان الجهات الواقعة تحت براثن الاستعمار الفارسى والروماني والحبشى كل سكانها من القحطانيين. فاليمن وهي بيئة القحطانيين كانت تئن تحت النير الحبشي والعراق الذى كان يسكنه بنو تنوخ كان تحت سلطان الفارسيين ، وشمال بلاد العرب الذى كان يشغله الغسانيون كان يرزح تحت كلاكل الرومانيين وكل هذه الاقطار كانت مأهولة بالقبائل القحطانية التى تمتّ الى اسماعيل بسبب، فهل يعقل ان تختار قريش اصلا يخرج من حظيرتها هذه القبائل التي تحاول تخليصها من نير الاستعمار الاجنبي وهي اقوى العناصر العربية واصلحها للوقوف فى وجـه الاجنبي لو توحدت كلمتها ، وحسنت قيادتها ؟

ثم نقول : ان الطائفة التي تنتحل اصلا تاريخيا لمحاولة ايجاد وحدة سياسية تحت سلطانه انما تعمد الي اصل تبجله تلك الامة كل التبجيل ، وتفخر بالاعتزاء اليـه ، فهل كانت الامة العربية وهي غرقى في لجة وثنيتها تعتقد بنبوة ابراهيم واسماعيل قبل تلفيق تلك النسبة ليسوغ القول بأنها فى نظرها من الاصول الماجدة ؟ وهل كانت تفخر بالانتساب اليهما وهي تطارد اليهود الذين يمتّون اليهما باسباب شتى كما تطارد الوحوش الضارية ، وتأنف ان تجمعها واياهم جامعة ؟

***

ويقول الدكتور طه حسين : « ان هذه القصة (قصة بناء ابراهيم واسماعيل

للكعبة وانها جدا العرب العدنانية) أمرها واضح فهي حديثة العهد ظهرت قبيل الاسلام وانتحلها الاسلام لسبب ديني، وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي ايضاً »

ونحن نقول ان قول الدكتور طه (قبيل الاسلام) يعني قبله بخمسين او بمئة سنة على الاكثر، اذ لا نظن ان قُبيل تحتمل اكثر من ذلك. وانت تعلم ان هذه الكعبة كان يعظمها العدنانيون والقحطانيون على السواء، اي من كان منهم من ذرية اسماعيل ومن لم يكن من ذريته، فهل تكفي هذه المدة الوجيزة لترويج فرية كهذه في مثل بلاد العرب الشاسعة الارجاء حتى تصبح الرمز الوحيد لديانتها الوثنية

عُرف العرب بأنهم من أشد الامم محافظة على قديمهم، وترسما لخطوات أسلافهم فلا يعقل ان فرية يختلقها اليهود للتمكن من البقاء في ارض غير ارضهم تنتشر في بلاد العرب من اقصائها الى اقصائها في مدى نصف قرن اوقرن، وتحمل الناس على ضرب آباط الابل اياما وليالي في أشد بلاد الله جدوبة وقحولة، ليحجوا معبدا قيل انه قد بناه جد بعض قبائلهم . أتدري كم بين الشحر وعمان وحضرموت وعدن وصنعاء والعراق وبين مكة من الاميال، وما طبيعة الارض التي تسير فيها الجمال، والعقبات التي تصادفها في طرقها المتداخلة، والاخطار التي يتعرض لها الناس من المناسر، الكامنة في الكهوف والمغاور، أتكفي والحالة هذه خمسون او مئة سنة لنشر فرية لا أساس لها في شعب جاهلي عنيف قليل الاهتمام بالدين فيصبح افراده في جميع أصقاع البلاد العربية لا فرق بين رجل وامرأة وطفل يعرفون البيت الحرام ويتمنى كل منهم ان يطوف به او يجاوره تاركا اهله وعمله سنين ؟

اللهم ان هذا محال، وان قُدر لفرية ان تروج في العرب هذا الرواج الكبير فلا بد لها من زمان طويل، ولا تتناول الا الطائفة التي يجعل جدها الأعلى بطلا للرواية، اما سواهم ممن لا ناقة لهم فيها ولا جمل كالقحطانيين فلا

***

يقول الدكتور طه حسين : « ان قريشا في هذا العصر كانت ناهضة نهضة تجارية مادية ونهضة دينية وثنية، وهي بحكم هاتين النهضتين كانت تحاول ان توجد في البلاد العربية وحدة سياسية وثنية مستقلة تقاوم تدخل الروم والفرس والحبشة

ودياناتهم في البلاد العربية »

ونحن نقول : اما ان قريشا كانت قبيل البعثة المحمدية ناهضة نهضة تجارية مادية فما لا دليل عليه . فان آية « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » لا تدل على شيء اكثر من ان قريشا كانت لها رحلتان رحلة في الصيف الى بلاد الروم ورحلة في الشتاء الى اليمن ولا نظن ان طائفة من الناس يقيمون في مدينة ولا يحتاجون الي اشياء من محصولات ومصنوعات البلاد الخارجية . فاذا كان لسكان العريش ورفح وسيوه والواحات رحلات الى القاهرة لبيع بضائعهم واخذ بدلها ولا يدل ذلك على ان هذه القرى في دور نهضة تجارية ، ولا على وشك تكوين وحدة سياسية ، فلا نظن ان رحلتي اهل مكة تدلان على اكثر مما تدل عليه رحلات اهل هذه القرى والواحات

اما انتداب قريش لتكوين وحدة سياسية وثنية لتخليص البلاد من مطامع الفرس والروم والحبشة فهذا هو الذي ننازع الدكتور طه حسين فيه ونطلب منه الدليل عليه

هل كان لقريش مركز ممتاز بين العرب من ناحية القوى الحربية او المالية او العلمية او الدينية فتحدثها نفسها ارتكانا على شيء من ذلك باحداث امر جلل في جزيرة العرب لم يكن يحلم به سواها

ان كان لها ذلك المركز من اية ناحية كانت فهل من دلائل تاريخية ، او قرائن ظنية تسمح لنا ان نعزو اليها هذا المقصد العظيم ؟

لم يكن لقريش مركز ممتاز من أية ناحية من نواحي المميزات الاجتماعية غير سدانتها للكعبة . وهذه السدانة لم تكن حقا خالصا لها غير متنازع فيه ، فانها ليست القبيلة الوحيدة التي تعتزى الي اسماعيل بن ابراهيم فتحتكر هذه الخطة . ولم يكن حق السدانة معتبرا من نصيب ولد اسماعيل على وجه عام ايضا . فانه لما نزحت بنو خزاعة ، وهم يمنيون لا ينتسبون لاسماعيل ، الى الحجاز في نحو القرن الثاني للميلاد تسلطوا على مكة وأقصوا اهلها الاصليين وهم من بني اسماعيل عن سدانة الكعبة فلم تنازعهم العرب في ذلك ، ولم نسمع انه حدث لذلك حدث بين القبائل ، وبقيت

سدانة الكعبة فى يد خزاعة الى القرن الخامس حيث قويت كنانة وهي من القبائل العدنانية وتفرعت منها قريش فاتفق ان سيد قريش كان فى ذلك العهد قصى بن كلاب بن مرة فتزوج بابنة صاحب سدانة الكعبة الخزاعي تذرعا لوراثته فيها . فلما حضرت حماه الوفاة اوصى بسدانة البيت لابنته زوجة قصى . فاعتذرت لابيها عن احتمال هذا العبء ، فأوصى بها لابن له اسمه المحترش فابتاع قصى هذا المنصب منه بعرض قليل فشق ذلك على خزاعة وحدثت بسببه حروب بينهما وبين قريش ، ثم تداعوا الي التحكيم فحكم لقصي . فما زالت سدانة الكعبة لقريش حتي جاء الاسلام

هذا مجمل تاريخ سدانة الكعبة ومنه يرى القارىء ان هذه السدانة لم تكن حقا صريحا لقريش ولا للقبائل العدنانية فان بقاءها في يد اليمنيين بضعة قرون بلا منازع ، ثم خفوف بنى خزاعة للمطالبة بها بالسيف يدل على ان المتغلبين كانوا يتداولونها طلبا للشرف ليس غير

ويدل هذا التاريخ ايضا على ان سدانة الكعبة لم يكن امرها عظيما عند العرب فان ايصاء صاحبها الخزاعي بها لابنته ثم لابن سفيه له يبيعها بعرض تافه امر فيه نظر. ولا عبرة بقيام الحرب بين خزاعة وقريش من اجلها فان القبائل العربية كانت تتناحر لاتفه الاسباب كسبق حصان او عقر ناقة

فان قال قائل ان صحة هذا التاريخ مشكوك فيها قلنا ذلك لا يضيع من قيمة حكمنا على تلك السدانة من انها لم تكن ذات خطر عند العرب فانهم هم الذين وضعوا هذا التاريخ ، ولو كانت هذه الخطة ذات خطر عندهم لما تجارأوا على الحط من قيمتها بوضع مثل هذه الاسطورة في شانها

ولو كان للسدانة شأن كبير عند العرب لرأيناهم يحترمون قريشا ويمنحونها مكانا ممتازا بينهم ، ويجعلون اسادتها سدنة البيت خطرا عظيما ولكننا رأينا من تاريخهم غير ذلك ، رأينا ان الحروب كانت تقع بين قريش وغيرها من القبائل على حد سواء . وقد حضر النبي صلى الله عليه وسلم نفسه حرب الفجار قبل ان يتشرف بالرسالة . وكان سبب هذه الحرب التي لم تكن الاولى من نوعها ان رجلا اسمه البراض قتل

عروة بن عتبة سيد هوازن فابت ان تقتل به البراض لانه كان رجلا لا قيمة له . وطلبت ان تقتل سيدا من قريش . فوقعت الحرب وهزمت كنانة وقريش معا وفى ذلك يقول خداش بن زهير وهو من هوازن :

ياشدة ماشددنا غير كاذبة على سخينة لولا الليل والحرم
لما رأوا خيلنا تزجي اوائلها آساد غيل حمي اشبالها الأجم
واستقبلوا بضراب لا كفاء له يبدى من الغول الا كفال ماكتموا
ولوا سلالا وعظم الخيل لاحقة كما تخب الي اوطانها النعم
ولت بهم كل محضار ململمة كأنها لقوة بجنبها حزم

ثم تلاقوا في السنة التالية في يوم سموه يوم شمطة فجمعت كنانة قريشها وعبد منافها والاحابيش ومن لحق بهم من بنى اسد تحت قيادة حرب بن امية فدارت الدائرة على كنانة وقريش واستحر فيهم القتل . وفى ذلك يقول خداش بن زهير وهو من هوازن:

الم يبلغك ما لقيت قريش وحي بنى كنانة اذ ابيروا
دهمناهم باوعر مكفهر فظل لنا بعقوتهم زئير

ثم التقوا للمرة الثالثة في يوم يقال له العبلاء فانهزمت فيه كنانة وقريش ايضا . ثم تلاقوا فى يوم اسمه يوم شرب فانتصرت فيه كنانة وقريش على هوازن . ثم تصادموا في يوم اسمه يوم الحريرة فهزمت فيه هوازنُ كنانة وقريشا

فلو كانت لقريش مكانة ممتازة من الوجهة الدينية، لما اجترأ مجترىء على قتالها . ولو كان لرؤسائها خطر يفوقون به سواهم لما طالبت هوازن بقتل احدهم فى ثأر

قد يقول قائل ، جريا على طريقة التشكك الواجبة فى هذه المواطن ، ان هذه الوقائع والاشعار موضوعة مختلقة ، وضعها الانصار للحط من قيمة القرشيين

نقول يجوز ذلك ، ولا مانع منه ، ولكن الواقع المحسوس الذى لا يمكن التماري فيه ان قريشا حين قصدها النبي صلى الله عليه وسلم عام فتح مكة لم تجد من ينجدها من العرب المجاورين لها ودخلها الجيش الفاتح بحركة اشبه بمداورة عسكرية منها بوقعة حربية ، فلو كانت هذه القبيلة ذات مركز ممتاز بين العرب لتسارع العرب

لا نجادها خفافا وثقالا ولاحتشد حولها عشرات الالوف من المقاتلة يذودون من يريد اذلالها والاستيلاء على الكعبة التي هي مجتمع اصنامهم وانصابهم ولم يتركوها لحما على وَضم امام الجيش الفاتح

فلا يمكن ان يقال في هذا الموطن ان العرب كانوا قد خُضِدت شوكتهم، وخمدت حميتهم فلم يعودوا يقوون على إنجاد لئلا يصيبهم من جراء عملهم ماهم في غنى عنه . لا يمكن ان يقال مثل هذا القول لأن قبيلة هوازن العظيمة المجاورة لمكة ، بعد أن تم للنبي صلى الله عليه وسلم التغلب على قريش خشيت ان يصيبها مثل ما أصابها فحشدت رجالها والقت منهم فى ساحة الحرب عشرين الفا وقيل ثلاثين الفا وشنت على المسلمين حربا ضروسا لقي فيها المسلمون شدة عظيمة حتى انكشفوا عن رسول الله متقهقرين وكاد التقهقر ينقلب الي هزيمة عامة لولا كر اهل السابقات الحسنة واستماتتهم في القتال

فلو كان لقريش منزلة ممتازة عند العرب لتسارعت هوازن وغيرها الي امدادها ولوجد المسلمون امامهم جيشا عرمرما قد لا يقل عن خمسين الف مقاتل كما هي سنة البشر قديما وحديثا ، ولاستعصي على المسلمين فتحها . ولكن الذى حدث ولا سبيل الى انكاره ان المسلمين لم يصادفوا امامهم فيها الا زعانف لا بصيرة لهم يقودهم رجال لا ميزة لهم الا انهم صبروا على الباطل حتى احيط بهم ، ثم تراموا على الاسلام لحماية حياتهم . لم يؤثر عنهم انهم فعلوا كما يفعل الحماة من الاستماتة في الدفاع والموت فى ساحات القتال ، او اللجأ الي القبائل المجاورة وإثارتها لصد التيار الجارف ، كما فعل حماة الترك في العهد الحديث اذ تسللوا الي الاناضول بعد ضياع عاصمتهم . وما زالوا يتقهقرون أمام المغير الفاتح لا يمكنونه من ناصيتهم حتي رأوا الساعة مناسبة لان يحاكموه الي الحديد والنار ففعلوا وفازوا بالحسنيين معا الحياة المستقلة والذكرى الخالدة

اما من وجهة القوى الحربية فلم يكن لقريش في الجاهلية ما يجعلها بمنزلة ممتازة تحدثها معها نفسها بزعامة العرب . يدل على ذلك ضعف مقاومتها للدعوة الاسلامية، وضعف انتقامها ممن كانوا يترصدون لتجارتها فان القوة التي كانت ترمى بها الى ساحات الحرب أمام المسلمين لم تزد عن المئات عدا

واما من الناحيـة المالية فلم تك قريش فى مثل ثروة المنـاذرة بالعراق ، ولا الغساسنة بالشام ولا التبابعة باليمن

واما من الوجهة العلمية فقـد كانت دون كل الاقطار الواقعة تحت سلطان الدول المستعمرة ناهيك ان النبي صلى الله عليه وسلم بعث ولم يكن فى مكة غير رجلين او ثلاثة يعرفون القراءة والكتابة حتي سماهم القرآن بالاميين فقال تعالى : « هو الذى بعث في الاميين رسولا منهم »

وبعد، فان قبيلة لا امتياز لها من الوجهة الدينية ، ولا خطر لها من النواحي الماليـة والحربية والعلمية، على اى سلطان تستند لتولي زعامة العرب ، واحداث وحدة سياسية وثنية تحرر بها بلادها من الربقة الاستعمارية ؟

ان التظني فى مثل هذه المسائل الاجماعية لا قيمة له فكل انسـان يستطيع ان يتخيل الامور على ما يوده و يلائم هواه ، ولكن هنالك امارات و قرائن يمكن الاستدلال منها على ما يُراد الاستدلال عليه ، فان لم توجد هذه الامارات والقرائن كان كل فرض يمكن ان يقابل بضده

فالدكتور طه حسين يقول ان قريشا هذه كانت فى نهضة وانها كانت تحدث نفسها باقامة دولة مستقلة وثنية تحرر بها البلاد العربية ، فهل هناك امارات وقرائن تدل على ذلك ؟ هل كانت تُبذ ّث لها دعوة فى القبائل القريبة منها والبعيدة عنهـا ؟ هل أحدثت تغييراً مّـا في شكل سدانتها للكعبة ، اودونت كتابا يفصل امورها الدينية ، او سنت للحج والعبادة سننا جديدة ما يؤخذ منه انها تتذرع بالعاطفة الدينية لقضاء مآربها الاجتماعية ؟ هل احدثت نظاما للمبادلات وعملت على ايجاد روابط تجارية بين القبائل تتوسل بها الي الوصول الى مرامها من وجهة اقتصادية ؟ هل ارسلت من يثير حمية القبائل ويشعل فيها جذوة النعرة القومية تذرعا الى ايجاد وحدة سياسية ؟ هل حاولت ان تقتدى بنظام الحكومات التي كانت ترحل الى بلادها للتجـارة فشرعت فى اقامة حكومة مركزية ، واتخذت لمدنيتها شرطة، ومحاكم ، وجيشا عاملا، تحايلا على ان يصبح نواة لهيئة اجتماعية ؟

شيء من هذا لم يكن ، فـكيف يمكن ان يدعي انهـا كانت فى حالة نهضـة

سياسية وانها كانت ترمى الى آمال بعيدة من تكوين وحدة دينية وثنية مستقلة تحرر بها البلاد العربية

ولكننا ندعي انها كانت في حالة انحلال ادبي واجتماعي وصل بها الى نهاية أدواره واستدللنا على ذلك بضعف وسائلها في مقاومة الدعوة الاسلامية وبوهن محاولاتها في الدفاع عن بيئتها الاجتماعية ، وتسارع قادتها الي اظهار الاسلام نفاقا عند مادهمهم الخطر استبقاء لحياتهم الشخصية

***

يقول الدكتور طه حسين : « ان ورود اسمي ابراهيم واسماعيل في التوراة والقرآن لا يكفى لاثبات وجودهما التاريخي فضلا عن اثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم الي مكة ونشأة العرب المستعربة فيها »

ونحن نقول ان قول الدكتور طه حسين ان ورود اسمي ابراهيم واسماعيل فى التوراة والقرآن لايكفى لاثبات وجودهما تاريخي ، معناه انه لا يمكن اثبات وجودهما اذا جرى التاريخ على اسلوبه في اثبات وجود الرجال ، وتحقيق الحوادث المعزوة اليهم ، مستقلا عن نصوص الكتب السماوية . لأن التاريخ وسائر العلوم قد أعلنت استقلالها عن الاديان منذ نحو ثلاثة قرن . . . ريخ يطلب فى اثبات وجود الرجال أدلة حسية ، وآثارا مادية فوق ماتذكره عنهم الكتب الدينية وبخاصة بالنسبة للافراد المتغلغلين فى القدم كابراهيم واسماعيل . . . أن هذا الموقف من العلوم في الاستقلال عن النصوص الدينية ضروري لها لتستطيع ان تؤدي وظيفتها من التحرير والتمحيص مطلقة الحرية ، في دائرة العالم الطبيعية . فلا يجوز لحفظة الاديان الصحيحة ان يكردوا هذا الاستقلال لها فانها بما تتأدى اليه من نتائج علمية محققة من طرق مادية محضة تؤيد الدين وتصدقه فتساق النفوس لحبه والاخذ به، والتأدب بأدبه، خلافا لما اذا كانت العلوم تابعة للدين . . . تحت رعايه قادته اى تحت وصاية رجال ليسوا من أهلها ، فيرون في كل حركة من حركاتها انحرافا ، وفى كل رأى من آراء الباحثين فيها تطرفا فيقع التنازع بين الهيئتين فان انتصر رجال العلوم عملوا على ملاشاة الدين واهله . تتنادينا من . . . نزع . . . الاديان والعلوم معا تراضي

الناس على ان يسير كل منهما مستقلا في طريقه

والقول بأن ابراهيم واسماعيل لم يثبت وجودهما تاريخيا ليس معناه ان التاريخ قرر بأنهما لم يوجدا ، ولكن معناه انه لا يستطيع اثبات وجودهما اثباتا ينطبق على أسلوبه الحسي ، وهذا العجز من العلم لا ينفي انهما كانا موجودين ، وانهما بنيا الكعبة

فنحن نحترم هذا العجز من العلم ، ونشجعه على الاعتراف به ، بل ولا نقبل منه ان يدعي علم مالا ينطبق أسلوبه عليه ، وادراك مالا تصل وسائله اليه

ولا يسعنا فى هذا المقام الا ان نلاحظ على الدكتور طه حسين انه لم يحسن التعبير عن رأيه فى هذه المسئلة فقد كان يستطيع ان يقول مثل ما قلنا فلا يلومه احد

وبعد فنقول :

اذا لم يكن لدينا الى اليوم آثار محسوسة تدل على ان ابراهيم واسماعيل كانا موجودين وعلى انهما بنيا الكعبة فان المرجحات التاريخية على وجودهما وعلى صحة ما عُزي اليهما تكاد تضع هذه المسائل في عداد المحسوسات :

(اولها) لا مانع من العقل يمنع من وجود ابراهيم واسماعيل . فان القائلين بوجودهما لا يزعمون بأنهما كانا مَلَكين ، او كائنين فذين ، بل يقولون انهما كانا رجلين كسائر الرجال يأكلان الطعام ويمشيان في الاسواق . وكل ما عُزي اليهما من الميزات انهما كانا نبيين يدعوان الناس الى توحيد الله وتنزيهه، والاخذ بالفضائل، وتجنب الرذائل ، مثلهما في ذلك كمثل جميع الانبياء الذين لا سبيل الى انكار وجودهم التاريخي كموسى وعيسى ومحمد

(ثانيها) انهما مذكوران بالاسم في تاريخ أمة عظيمة هي الامة الاسرائيلية وقد اعتبر اولهما جدا أعلى لتلك الامة وثانيهما احد ابنائه . فان لم يكن هو جدها الاعلى لكان غيره ، فأي مرجح يرجح انه كان غيره ؟

(ثالثها) انه لا يوجد مانع تاريخي ولا جغرافي يمنع من ان يكون ابراهيم نشأ بالعراق ثم رحل الي فلسطين

(رابعها) انه لا يوجد مانع تاريخي ولا جغرافي يمنع من ان يكون ابراهيم زار

بلاد العرب مرة او مرات وترك فيها ابنا له مع امه لسبب من الاسباب

(خامسها) انه لا يوجد مانع مادي يمنع من ان يكون ابراهيم لما زار بلاد العرب بنى بمكة بيتا للعبادة سُمي فيما بعد بالكعبة ، وهي حجرة وحدة قليلة الارتفاع مبنية بالاحجار والطين مناسبة لمباني تلك الجهة ، يقوم بعملها بنّاء واحد ، وقد تهدمت مرارا ، وأعيد بناؤها وزيدت مساحتها ، ولم يقل احد بأنها كانت معلقة في الهواء او من الاتساع بحيث تسع الالوف المؤلفة ، ولا انها اقيمت من ذهب وفضة ورصفت ارضها بالجواهر الكريمة

(سادسها) انه لا يوجد مانع من أي نوع كان يمنع من ان يكون اسماعيل قد شب وترعرع في مكة ولما بلغ مبلغ الرجال تزوج امرأة من قبيلة كانت هناك تسمي بنى جُرْهُم وانه رزق منها بأولاد

(سابعها) انه لا يوجد مانع يحمل العرب على انتحال جد اجنبي عنهم وهم من أشد العرب فخرا بخلوص عربيتهم . ولم يُنحل اسماعيل من المميزات الادبية والمادية ما يجعل الانتساب اليه من المفاخر التالدة ، ولم ينقل عن العرب في الجاهلية انهم كانوا يفتخرون بانتسابهم الي اسماعيل . وقد فضلوا ان يتلقبوا بالعدنانية نسبة الى واحد من أجدادهم (عدنان) عن ان يتلقبوا بالاسماعيلية جدهم الاعلى

كل هذه المرجحات ترجح ان ابراهيم واسماعيل كانا موجودين وان الثاني منهما شب وترعرع ببلاد العرب وتزوج منهم وامتاز نسله عن العرب القحطانية باسم العرب العدنانية

ولو حذفنا من التاريخ كل شخص لم ترد على وجوده أدلة حسية ، وآثار مادية لحذفنا اكثر رجاله المشهورين ولم يبق منهم الا اسماء معدودة

على ان اجماع امة برمتها كاليهودية على تسمية نفسها بالاسرائيلية نسبة الى اسرائيل وهو يعقوب بن ابراهيم من منذ وجودها ، واجماع امة اخرى وهي العربية على اعتبار بعضها من ذرية اسماعيل مما لا يصح ان يقابل بالتحفظ الا اذا وجدت قرائن تدل على غير ذلك . وقد رأيت ان القرائن كلها ترجح صحة ذلك

اما لقول بأن قصة اسماعيل حيلة دبرها اليهود ليستعطفوا قلوب العرب عليهم فما لا يسيغه العقل للاسباب التي ذكرناها في محالها من الصحف التي سلفت. ونقول هنا زيادة على ما تقدم انه اذا كان لليهود نية مصلحة في قبول هذه الحيلة فهل للعرب القحطانية من مصلحة في مشايعتها على هذه الفرية؟

٥

الشعر الجاهلى واللهجات

قال الدكتور طه حسين في فصله الخامس تحت العنوان المتقدم ما ملخصه:

(الرواة مجمعون على ان قبائل العدنانية لم تكن متحدة اللغة ولا متفقة اللهجة)
(قبل ان يظهر الاسلام ولكننا لا نرى شيئا من ذلك في الشعر الجاهلى. فنرى)
(مطولات امرىء القيس وزهير وعنترة ولبيد ليس بينها اختلاف في اللهجة او)
(تباعد فى اللغة او تباين في مذهب الكلام. فنحن بين اثنين اما ان نؤمن بأنه لم)
(يكن هناك اختلاف بين القبائل العربية من عدنان وقحطان فى اللغة ولا في اللهجة)
(ولا في المذهب الكلامى، واما ان نعترف بأن هذا الشعر لم يصدر عن هذه القبائل)
(وانما حمل عليها حملا بعد الاسلام)

راينا فى هذا الكلام

نقول اننا نعجب كما يعجب الدكتور طه حسين من ورود الشعر الجاهلى كله بلغة قريش مع تباين لهجات القبائل ومن اختلافها في قراءة القرآن نفسه. وقد بقى هذا التباين في الاسلام بضع قرون. ولكن يدهشنا ان يغفل عن ذلك كبار رواة اللغة والشعر فلا يلحظون هذا الامر مع انه من البديهيات

ومما يزيد هذه المسئلة تعقيدا ان هذه الملاحظة الحقة تقضى علينا بان نحكم بأنه لا يوجد شعر جاهلى غير قرشى اصلا فيما كان يروى من الشعر المنسوب للعرب وهو بعيد عن العقل. فهذه المسئلة تقتضى كما يقول الدكتور طه حسين بحثا جديا فى فراغ من البال ولعله يوفق اليه



الكتاب الثاني

اسباب انتحال الشعر

١

ليس الانتحال مقصورا على العرب

قال الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان ما ملخصه :

(يجب ان يتعود الباحث درس الامم القديمة التي قدر لها ان تقوم بشيء من)
(جلائل الاعمال ، وما اعترض حياتها من الصعاب ، ليفهم تاريخ الامة العربية على)
(وجهه ، و يرد كل شيء الى اصله)

(والذين كتبوا فى تاريخ هذه الامة انما نظروا اليها كأنها أمة فذة لم تعرف)
(احدا ولم يعرفها احد ، لم تشبه احدا ولم يشبهها احد ، لم تؤثر فى احد ولم يؤثر)
(فيها احد ، قبل قيام الحضارة العربية وانبساط سلطانها على العالم القديم)

(والحق انهم لو درسوا تاريخ هذه الامم القديمة وقارنوا بينه و بين تاريخ العرب)
(لتغير رأيهم فى الامة العربية ، ولتغير بذلك تاريخ العرب أنفسهم)

(لقد كان شأن الامة العربية كشأن اليونان والرومان تحضرت كما تحضروا)
(بعد بداوة ، وتأثرت كما تأثروا بصروف سياسية مختلفة ، وتجاوزت)
(حدودها الطبيعية كما تجاوزوا ، وتركت كما تركوا تراثا قيما خالدا فيه أدب)
(وعلم ودين)

(وفي الحق ان التفكر الهادىء في حياة هذه الامم الثلاث ينتهي بنا الى نتائج)
(متشابهة ان لم نقل متحدة ، وقد أثرت فيه مؤثرات واحدة او متقاربة فانتهت)
(الي نتائج واحدة او متقاربة)

(نريد من هذا ان نقول ان هذه الظاهرة الادبية التي نريد ان ندرسها في)
(هذا الكتاب ، والتى يجرع لها انصار القديم جزعا شديدا ، وهي انتحال الشعر)
(ليست مقصورة على الامة العربية وانما تتجاوزها الي غيرها من الامم القديمة)
(ولا سيما اليونانية والرومانية . وقد انخدع الناس بما حمل على قدمائها من الشعر حتي)
(كان العصر الحديث واستطاع النقاد ان يردوا الاشياء الى اصولها ما استطاعوا الي)
(ذلك سبيلا . ومنشأ هذه الحركة النقدية انما هو تأثر الباحثين بمذهب ديكارت)
(الفلسفي . وانتشار العلم الغربي فى مصر سيقضى بأن يصبح عقلنا غربيا وأن)
(ندرس آداب العرب وتاريخهم متأثرين بمنهج ديكارت)

(ولقد احب أن تلم الماما قليلا بأى كتاب من الكتب الكثيرة التى تنشر الآن)
(في اوروبا فى تاريخ الآداب اليونانية او اللاتينية ، وان تسأل نفسك بعد هذا)
(الالمام ماذا بقى مما كان يعتقده القدماء في تاريخ الآداب عند اليونان والرومان ؟)
(ولكنك لاتكاد تجد شيئا من الفرق بين ماكان يتحدث به اسحاق ويرويه)
(الطبرى من تاريخ العرب وآدابهم ، وما يكتبه المؤرخون والادباء عن العرب فى)
(هذا العصر . ذلك لان الكثرة من هؤلاء المؤرخين والادباء لم تتأثر بعد بهذا)
(المنهج الحديث ولم تستطع بعد ان تؤمن بشخصيتها ، وان تخلص هذه الشخصية)
(من الاوهام والاساطير)

(واذا كان قد قدّر لهذا الكتاب أن لا يرضي الكثرة من هؤلاء الكتاب والمؤرخين)
(فنحن واثقون بأن ذلك لن يقلل من تأثيره في هذا الجيل الناشىء فالمستقبل لمنهج)
(ديكارت لا لمناهج القدماء)

راينا فى هذا الكلام

يقول الدكتور طه حسين : « ان الذين كتبوا في تاريخ العرب انما نظروا اليها

كأنها امة فذة لم تعرف احدا ولم يعرفها احد ، والحقيقة هو ان الامة العربية كسائر الامم القديمة تأثرت كما تأثروا بصروف سياسية مختلفة وتجاوزت حدودها الطبيعية كما تجاوزوا الخ

وانا لا ندرى هل يقصد الدكتور بهذا القول الذين تكلموا فى تاريخ العرب قبل الاسلام او بعده . فاما تاريخها بعد الاسلام فكل الذين كتبوا فيه لم ينظروا اليها كأمة فذة، لم تعرف احدا ولم يعرفها احد ، بل أجمعوا بانها تحضرت بعد بداوة ، وتأثرت بالمؤثرات المختلفة وأثرت فى غيرها ، وتجاوزت حدودها الطبيعية ففتحت سورية وشمال افريقيا وفارس وما وراء النهر الى حدود الصين ، وفتحت من اوروبا اسبانيا والبرتغال وجزءا من فرنسا الي نهر اللوار ، وأفاضوا فيما تأثرت به من العوامل السياسية والاجتماعية والعلمية ، وفيما أحدثته من الآثار في الامم مما يملأ اسفارا ضخمة

وان كان يقصد الدكتور الذين تكلموا في تاريخ العرب قبل الاسلام فان مؤرخي العرب انفسهم ذكروا عن تحضرها ومدنيتها امورا تكاد تكون خيالية حتي قالوا ان ارم ذات العماد كانت مبنية بالذهب والفضة ولمدينتها سور مرصع بصفائح الذهب الخ الخ

وذكروا عن مملكة تدمُر العربية ان سلطانها امتد في عهد ملكتها الزباء الى مصر والشام والعراق وما بين النهرين وآسيا الصغرى الي انقرة

وذكروا ان سعدا ابا كرب ملك اليمن غزا اذربيجان وهزم الترك والروم والفرس وجازَ الصين وغنم منها مغانم شتي ، وضرب ابنُه يعفر الجزية على القسطنطينية ثم سار الى رومية وحاصرها

وقال ابن خلدون عن جهينة وبلى من بطون بنى قضاعة ان منازلهم كانت بين ينبع ويثرب ومصر وعلى شواطيء البحر الاحمر ، وانهم فتحوا مصر وبلاد الحبشة والنوبة ومكثوا في هذه البلاد اجيالا الخ الخ

ولو اردنا ان نسرد ما كتبه مؤرخو العرب في هذا الصدد لملأنا منه صحفا . فالذين كتبوا فى تاريخ الامة العربية قديما وحديثا عن الجاهلية والاسلام لم ينظروا

اليها كأنها أمة فذة لم تعرف أحدا ولم يعرفها أحد بل نظروا اليها نظرهم الى كل أمة تحضرت بعد بداوة واختلطت بالامم وأثرت فيهم وأثروا فيها

يقول الدكتور طه حسين : « وانتشار العلم الغربي في مصر سيقضي بان يصبح عقلنا غربيا وأن ندرس تاريخ العرب وآدابهم متأثرين بمنهج ديكارت »

نقول اننا لا نظن انه يوجد عقل شرقى وعقل غربي ، وانما نعتقد انه يوجد علم وجهل . وهذا العقل الغربي حينما كان الجهل مخيما على اوروبا لم يغن عن اهلها شيئا . فكانت الشعوب تباع مع اراضيها ، وكان كل مجتمع منها منقسما الى طبقات بعضها يستغل البعض الآخر ، ويسخره لشهواته ، وكان كل من يتجارى على البحث في شيء من العلم والفلسفة بل على طلب الفهم في الدين يلقى فى تنور مسجور . وكان العقل الشرقى اذ ذاك يكشف المساتير للباحثين ، وينير الغياهب للسالكين ، ويبنى العلم والفلسفة والسياسة على أساس متين ، ويقيم أركان العدل والمساواة والحرية بين الناس اجمعين

فالعقل لاشرقى ولا غربي وانما هوة قوة إن تولاها العلم أداها الى عليين ، وان قادها الجهل ساقها الى أسفل سافلين

٢

السياسة وانتحال الشعر

قال الدكتور طه حسين في الفصل الثاني من الكتاب الثاني ماملخصه :

(قلت ان العرب قد خضعوا لمثل ماخضعت له الأمم القديمة من المؤثرات التي)
(دعت الي انتحال الشعر والاخبار . والمؤثر الذي طبع الامة العربية بطابع لا يمحي)
(مؤلف من عنصرين قويين جدا هما الدين والسياسة . ولا سبيل الى فهم التاريخ)
(الاسلامى الا اذا وضحت مسألة الدين والسياسة توضيحا كافيا . فان العرب لم)
(يستطيعوا ان يخلصوا منذ ظهر الاسلام من هذين المؤثرين فى لحظة من لحظات)

(حياتهم في القرنين الاول والثاني)

(هم مسلمون ظهروا على العالم بالاسلام فهم محتاجون ان يتميزوا به و يجدوا في)
(اتصالهم به ما يضمن لهم هذا الظهور وهذا السلطان . وهم في الوقت نفسه اهـل)
(عصبية ، واصحاب مطامع ومنافع ، فهم مضطرون الي ان يراعوا هذه العصبيـة)
(ويلائموا بينها و بين منافعهم ومطامعهم ودينهم)

(واذا كانت حياتهم متأثرة تأثرا متصلا بالدين والسياسة وجادة في الاستفادة)
(منهما جميعا فخليق بالمؤرخ السياسي او الادبي او الاجتماعي ان يجعل مسالة الدين)
(والسياسة عند العرب أساسا لبحثه)

(واول ما يجب ان نلاحظه هو الجهاد العنيف الذى اتصل بين النبي واصحابه)
(من ناحية ، و بين قريش واوليائها من ناحية اخرى)

(في اول ظهور الاسلام كان هذا الجهاد جدليا خالصا . وكان النبي يجادلهم)
(بالقرآن فيفحمهم فيزداد عدد اتباعه حتي تكوّن له حزب . ولكنه لم يكن حزبا)
(سياسيا ذا خطر ولم يطمع فى ملك ولا تغلب . وكان كلما قوى هـذا الحزب)
(اشتدت مناضلة قريش له حتي اضطره للهجرة الاولي ثم الهجرة الثانية)

(هذه الهجرة وضعت الخلاف بين النبي وقريش وضعا جديدا فجعلت الخلاف)
(سياسيا يعتمد فى حله على السيف بعد ان كان يعتمد على الجدال)

(أحست قريش ان الامر تجاوز الاوثان والآراء الموروثة الي السيادة السياسية)
(في الحجاز ، والطرق التجارية بين مكة و بين البلاد التى كانت ترحل اليها ، فاصبح)
(موضوع النزاع ليس مقصورا على ان الاسلام حق اوغير حق ، بل صار يتناول)
(الامة العربية اوالحجازية لمن تذعن ، والطرق التجارية لمن تخضع . وهذا أدى الي)
(نشوء عداوة بين قريش واهل المدينة « الاوس والخزرج » وكانت علاقاتهم ودية)
(قبل الاسلام . واصطبغت هذه العداوة بالدم يوم انتصر الانصار على قريش فى)
(بدر ويوم انتصرت قريش فى احد واشترك الشعر في هذه العـداوة مع السيف)
(فوقف شعراء قريش وشعراء الانصار يتهاجون . وكان النبي يحرض شعراءه)
(ويعدهم بالاجر عند الله كما يعد المقاتلين)

(مضت قريش فى جهادها وأعانها من أعانها من العرب واليهود، ولكنها لم)
(توفق. وامست ذات يوم واذا خيل النبي قداظلت مكة. فنظر زعيمها وحازمها ابو)
(سفيان فرأى الحزم في ان يصانع ويصالح ويدخل فيما دخل فيه الناس لعل هذا)
(السلطان السياسى الذى انتقل من مكة الي المدينة ومن قريش الي الانصار ان)
(يعود الى قريش والى مكة مرة اخرى . فأسلم ابو سفيان واسلمت قريش واصبح)
(الناس جميعا فى ظاهر الامر اخوانا)

(ولعل النبي لو عمر بعد فتح مكة زمنا طويلا لاستطاع ان يمحو تلك الضغائن .)
(ولكنه توفي ولم يضع قاعدة للخلافة ولا دستورا لهذه الامة التى جمعها بعد فرقة فاي)
(غرابة في ان تعود هذه الضغائن الي الظهور)

(فلم يكد النبى يدع هذه الدنيا حتي اختلف المهاجرون والانصار في الخلافة)
(اين تكون ولمن تكون وكاد الامر يفسد بين الفريقين لولا بقية من دين، وحزم نفر)
(من قريش ولولا ان القوة المادية كانت اذ ذاك الى قريش . فاذعنت الانصار)
(وانصرفت قوة الجميع الى ما كان من انتقاض العرب على المسلمين ايام ابي بكر)
(والي ما كان من الفتوح ايام عمر . ولكن المقيمين من اولئك وهؤلاء فى مكة والمدينة)
(لم يكونوا يستطيعون ان ينسوا تلك الخصومة العنيفة التي كانت بينهم ايام النبي ولا)
(تلك الدماء التي سفكت في الغزوات)

(وقد حال حزم عمر بين قريش والانصار وبين الفتنة . فقد نهي عن رواية)
(الشعر الذي تهاجي به المسلمون والمشركون امام النبي . وهذه تثبت رواية اخري)
(وهي ان قريشا والانصار تذاكروا ما كان قدهجا به بعضهم بعضا ايام النبي وكانوا)
(حراصا على روايته يجدون فى ذلك من اللذة والشماتة ما لا يشعر به الاصحاب)
(العصبية القوية)

(وقد ذكر الرواة ان عمر مر ذات يوم فاذا حسان في نفر من المسلمين ينشدهم)
(في المسجد فاخذ باذنه وقال أرغاء كرغاء البعير؟ قال حسان اليك عنى يا عمر فوالله)
(لقد كنت انشد في هذا المكان من هو خير منك فيرضى . فمضى عمر وتركه. وفقه)
(هذه الرواية يسير لمن يلاحظ ان الانصار كانوا موتورين فكانوا يتعزون)

(بنصرهم للنبي وانتصافهم من قريش قبل موت النبي . وعمر قرشي تكره عصبيته ان)
(تزدرى قريش ، وكان فوق هذا اميرا حازما يريد ان يؤسس ملك المسلمين على شيء)
(غير العصبية فلم يظفر بكل ما يريد)

(وتحدث الرواة ان عبد الله بن الزبعرى وضرار بن الخطاب قدما المدينة ايام)
(عمر فذهبا الي ابي احمد بن جحش وطلبا اليه ان يحضر حسانا لينا شداه الشعر . فلما)
(جاء حسان اخذا ينشدانه مما قالت قريش في الانصار حتي استشاط . ولما فرغا)
(تركاه ومضيا الى مكة. فذهب حسان الى عمر وقص عليه الخبر . فأرسل عمر من)
(ردهما . فلما مثلا بين يديه قال لحسان أنشدهما ماشئت . فأنشدهما حتي اشتفى .)
(وقال عمر بعد ذلك قد كنت نهيتكم عن رواية هذا الشعر لأنه يوقظ الضغائن فاما)
(اذا ابوا فاكتبوه)

(قال ابن سلام : نظرت قريش فاذا حظها من الشعر قليل في الجاهلية فاستكثرت)
(منه الاسلام . وليس من شك عندي في انها استكثرت من هذا الشعر الذى يهجي)
(فيه الانصار)

(ولما تولى عثمان تقدمت الفكرة السياسية التي كانت تشغل ابا سفيان خطوة)
(اخرى . فلم تصبح الخلافة في قريش فحسب . بل اصبحت فى بنى امية خاصة .)
(واشتدت عصبية قريش ، واشتدت عصبية الامويين ، واشتدت العصبيات)
(الاخرى بين العرب . وهدأت حركة الفتح واخذ العرب يفرغ بعضهم لبعض .)
(وكان من نتائج ذلك ما تعلم من قتل عثمان ، وافتراق المسلمين ، وانتهاء الامر كله)
(الى بنى امية)

(في ذلك الوقت فشلت الخطة التي كان يختطها عمر ، وهي منع العرب ان)
(يتذاكروا ما كان بينهم من الضغائن قبل الاسلام . وعاد العرب الي شر مما كانوا فيه)
(من التنافس في جميع الامصار الاسلامية . ويكفى ان اقص عليك ما كان من)
(تنافس الشعراء من الانصار وغيرهم عند معاوية ويزيد ابنه)

(لعلك قرأت ان عبد الرحمن بن حسان شبب برملة بنت معاوية فاصطنع معاوية)
(الحلم وقال له اين انت من اختها هند . واما يزيد فكان صورة جده ابي سفيان .)

(كان رجل عصبية وقوة وفتك وسخط على الاسلام وما سنه للناس من سنن .)
(فاغرى كعب بن جُعَيل بهجاء الانصار فاستعفاه وقال اتريد ان تردني كافرا)
(بعد اسلام ؟ فاغري الاخطل وكان نصرانيا فاجابه وهجا الانصار)
(ويزيد هذا هو صاحب وقعة الحرة التي انتهكت فيها حرمات الانصار في)
(المدينة والتي انتقمت فيها قريش من الذين انتصروا عليها في بدر والتي لم تقم)
(للانصار بعدها قائمة . ويقول الرواة انه قتل فيها ثمانون من الذين شهدوا بدرا اى)
(من الذين اذلوا قريشا)
(وقد طلب عمرو بن العاص من معاوية ان يمحو اسم الانصار . فقال الانصارى)
(الوحيد الذى شايع بنى امية وهو النعمان بن بشير:)

(ياسعد لا تجب الدعاء فما لنا نسب نجيب به سوى الانصار)
(نسب تخيره الاله لقومنا أثقل به نسبا على الكفار)
(ان الذين ثووا ببدر منكم يوم القليب هم وقود النار)

(فسمع معاوية هذا الشعر ولام عَمرا على تسرعه ليس غير . وكان اصحاب)
(العصبية القرشية يتفاوتون تفاوتا شديدا فكان منهم المسرف كيزيد، والمقتصد)
(كمعاوية . ومنهم من يتجاوز الاقتصاد الي العطف على الانصار والرثاء لهم كالزبير)
(ابن العوام . فقد روى انه مر بنفر من المسلمين فاذا فيهم حسان ينشدهم وهم)
(غيرحافلين بما يقول فلامهم وذكر موقع حسان من النبي . فقال حسان يمدحه،)
(واحب ان تلتفت الي اول هذا الشعر فهو حسن الدلالة على ما اريد ان اثبته)
(من دخول الحزن على نفوس الانصار لهذا الموقف الجديد الذى وقفته منهم)
(قريش :)

(اقام على عهد النبي وهديه حواريه والقول بالفعل يعدل)
(اقام على منهاجه وطريقه يوالى ولى الحق والحق اعدل)
(هو الفارس المشهور والبطل الذى يصول اذا ما كان يوم محجل)

الخ الخ

(فانظر الي هذين البيتين في اول المقطوعة كيف يمثلان ذكر حسان لعهد

(النبي وحزنه عليه وأسفه على ما فات الانصار من موالاه النبي لهم)
(وانصافه اياهم)
(وقد ذكرت لك ما كان من هجاء الاخطل للانصار. فقيل ان النعمان بن)
(بشير غضب لهذا الهجاء وانشد بين يدى معاوية ابياتا نرويها لك فسترى فيها)
(مثل ما رأيت في أبيات حسان من أثر هذه العصبية التى تضيف الي الشعراء ما لم)
(يقولوا. فقال النعمان بن بشير لمعاوية:)

(معاوى ان لاتعطنا الحق تعترف لِحَيِّ الازد مشدود عليها العمائم)
(أيشتمنا عبد الاراقم ضلة وماذا الذى تجدى عليك الاراقم)
(فما لي ثأر دون قطع لسانه فدونك من ترضيه عنك الدراهم)
(وراع رويدا لاتسمنا دنية لعلك في غير الحوادث نادم)
(متي تلق منا عصبة خزرجية او الاوس يوما تخترمك المخارم)
(وتلقاك خيل كالقطا مستطيرة شماطيط ارسال عليها الشكائم)

الى ان قال:

(فما انت والامر الذى لست اهله ولكن ولي الحق والامر هاشم)
(اليهم يصير الامر بعد شتاته فمن لك بالامر الذى هو لازم)

(فانت ترى الي اى حد كانت العصبية قد انتهت بقريش والانصار، وانت)
(ترى تأثيرها في الشعر والشعراء، وانت ترى من هذين الاستطرادين كيف استغلت)
(العصبية الزبيرية والهاشمية شعر حسان وشعر النعمان بن بشير لمناهضة خصومها.)
(ولا اريد ان ادع هذه العصبية دون ان اذكر ما كان بين عبد الرحمن بن حسان وعبد)
(الرحمن بن الحكم اخي الخليفة مروان من هذا النضال العنيف الذى لم يبق لنا منه)
(الا آثار ضئيلة)

(كان الانصار يتحدثون ان هذين الرجلين كانا صديقين وكان عبد الرحمن بن)
(حسان يحب امرأة صاحبه القرشي فبلغ ذلك صاحبه فراسل امرأه عبد الرحمن)
(ابن حسان وانبأت هذه زوجها فاحتال حتي حمل امرأة صاحبه على ان تزوره فى بيته)
(واخفاها فى احدى الحجر. واحتالت امرأته حتى حملت القرشي على ان يزورها)

(فلما استقر به المقام عندها أقبل زوجها فارادت ان تخفيه فادخلتـه في احدي)
(الحجر فاذا هو يرى امرأته . ففسد الامر بين الصـديقين . واما قريش فكانت)
(تروي القصة نفسها ولكنها تعكسها وتظهر صاحبها مظهر الوفي لصديقه فلا يجيب)
(على رسائل امرأته رعاية لحرمة الصديق)

(وقد تجاوز الامر هذين الشاعرين فاستعان القرشي بشعراء من مضر وربيعة)
(ثم انتهى الامر الى معاوية فأرسل الي واليه على المدينة سعيد بن العـاص بان)
(يضرب كلا من الشاعرين مئة سوط . وكان سعيد عطوفا على الانصار . وكانت)
(بين سعيد وعبد الرحمن بن حسان مودة فكره ان يضربه فعطل امر معاوية . فلما)
(خلفه على ولاية المدينة مروان بن الحكم ضرب عبد الرحمن بن حسان مائة سوط،)
(فكتب للنعمان بن بشير بدمشق شعرا، فدخل هذا على معاوية وذكر له ان سعيدا)
(عطل امره وأن مروان انفذه فى الانصارى وحده . فامر معـاوية مروان ان)
(يضرب اخاه فضربه خمسين سوطا واستعفى عبد الرحمن بن حسان في الباقى فعفا .)
(ولكنه اخذ يذيع في المدينة ان مروان قد ضربه حد الحر مئـة سوط وضرب)
(اخاه حد العبد خمسين . فشقت هذه المقالة على عبد الرحمن بن الحكم وطلب الى)
(أخيه ان يتم عليه المئة ففعل)

(ولقد يستطيع الكاتب السياسى ان يضع كتابا خاصا ضخما فى هذه العصبيـة)
(بين قريش والانصار وما كان لها من التأثير فى حياة المسلمين ايام بنى امية ، لا نقول)
(في المدينة ومكة ودمشق بل نقول في مصر وافريقيـا والاندلس . ويستطيع)
(الكاتب فى تاريخ الادب ان يضع سفرا مستقلا فيما كان لهذه العصبية بين)
(قريش والانصار من التأثير فى شعر الفريقين الذى قالوه فى الاسلام ، وفي الشعر)
(الذى انتحله الفريقان على شعرائهما في الجاهلية . وقد تجاوزت العصبيـة هؤلاء)
(الي العرب كافة . فتعصب العدنانية على اليمانية ، وتعصبت مضر على بقية عدنان)
(وتعصبت ربيعة على مضر ، وانقسمت مضر نفسها فكانت فيها العصبية القيسية)
(والتميمية والقرشية . وانقسمت ربيعة فكانت فيها عصبية تغلب وعصبية بكر .)
(وقل مثل ذلك فى اليمن فقد كانت الازد عصبيتها ولحمير عصبيتها ولقضاعة عصبيتها)

(وكانت هذه العصبيات تتشعب وتتفرع وتتشكل باشكال الظروف السياسية)
(والاقليمية التي تحيط بها . فلها شكل في الشام وآخر في العراق وثالث في خراسان)
(ورابع في الاندلس . وانت تعلم حق العلم ان هذه العصبية هي التى ازالت سلطان)
(بنى امية لانهم عدلوا عن سياسة النبي التي تريد محو العصبيات وارادوا ان يعتزوا)
(بفريق من العرب على فريق . قووا العصبية ثم عجزوا عن ضبطها فادالت منهم بل)
(أدالت من العرب للفرس)

(واذا كان هذا تأثير العصبية فى الحياة السياسية فانت تستطيع ان تتصور)
(هذه القبائل العربية في هذا الجهاد السياسى العنيف تحرص كل واحدة منها على)
(ان يكون قديمها فى الجاهلية خير قديم . وقد ارادت الظروف ان يضيع الشعر)
(الجاهلى لأن العرب لم تكن تكتب شعرها بعد . فلما كان ما كان من حروب الردة ثم)
(الفتوح ثم الفتن قتل من الرواة والحفاظ خلق كثير . ثم اطمأنت العرب فى الامصار)
(ايام بنى امية وراجعت شعرها فاذا اكثره قد ضاع ، واذا اقله قد بقى ، وهي في)
(حاجة الى الشعر تقدمه وقودا لهذه العصبية المضطرمة فاستكثرت من الشعر ونحلته)
(شعراءها القدماء)

(وقد كان القدماء يحسون كما نحس ان هذا الشعر الذى يضاف الي الجاهليين)
(اكثره منحول ولكن مناهجهم في النقد كانت اضعف من مناهجنا فكانوا يبدأون)
(ثم يقصرون عن الغاية)

(ومهما يكن من شيء فان هذا الفصل ينتهي بنا الى نتيجة نعتقد انها لا تقبل)
(الشك وهي ان العصبية وما يتصل بها من المنافع السياسية قد كانت اهم الاسباب)
التي حملت العرب على انتحال الشعر واضافته الى الجاهليين وقد رأيت ان القدماء قد)
(سبقونا الي هذه النتيجة)

راينا فى هذا الكلام

قال الدكتور طه حسين : « المؤثر الذى طبع الامة العربية بطابع لا يمحي مؤلف

من عنصرين قويين جدا هما الدين والسياسة . ولا سبيل الى فهم التاريخ الاسلامى الا اذا وُضّحت مسألة الدين والسياسة توضيحا كافيا . فان العرب لم يستطيعوا ان يخلصوا منذ ظهر الاسلام من هذين المؤثرين في لحظة من لحظات حياتهم فى القرن الاول والثاني »

ونحن نقول : لم يكن العرب بِدْعا من الامم في الاشتغال بالدين والسياسة فليس فى العالم أمة قديمة او حديثة لم يعمل هذان المؤثران في حياتها عملا مستمرا . فالدين يستغرق جميع ميولها الادبية ، ومراميها المعنوية ، ومُثُلها العليا ، والسياسة تستوعب جميع جهودها للبقاء حرة مستقلة ، وكل مساعيها لاقامة حكومة منتظمة قوية . فأى امة من الامم القديمة والحديثة عَرَضتَ على عقلك أمورها فلا تجدها تخلو عن التأثر بهذين المؤثرين الا مايُعرف عن بعض الامم الاوربية منذ نحو قرن فانها بدأت تدفع تأثير الدين عنها . والمراد بالدين هنا رجاله والقائمون عليه ، لا الدين نفسه ، فالنفوس والعقول لاتزال في شغل شاغل به نفيا واثباتا ، بحثا وتمحيصا . ناهيك ان في اوروبا وامريكا اليوم اكثر من ثلاث مئة مجلة تبحث في الروح وخصائصها وخلودها

وقد تحفظنا فقلنا (الا مايُعرف عن بعض الامم الاوربية) ذلك لان كثيرا منها لايزال المؤثر الدينى فيها على أشد مايكون . فهذه ارلندة كادت تهلك منذ سنتين من جراء النزاع الدينى بين بروتستانت اولستر وكاتوليك بقية الجزيرة فيما يتعلق بتبعيتها او عدم تبعيتها للدولة الانجليزية . وهذا المؤثر الدينى لايزال حيا فى البلاد البلقانية ، وفى مكسيكا بامريكا مشكلة دينية بين البروتستانت والكاتوليك كادت توقعها في حرب مع الولايات المتحدة

اما المؤثر السياسى فلا اريد ان احدثك عنه بشيء فأنت خبير بأنه قد استوعب جهود الجماعات والافراد منذ عُرف الاجتماع ، ولا يزال يستوعبها ما دام الاجتماع والنظام العالمي قائما . وهو اليوم على أشد مايكون بنسبة انتشار الديموقراطية . فقد جاوز رجالَ السياسة الأعلين الي سائر الافراد، وتخطاهم الى طلاب المدارس ،وصبية المكاتب ، وأُغيلمة الازقة . واخترق كل هذه الطبقات الى فلاحات الحقول ،

وخادمات الدور

فاذا كان الاسلام قد اوقع العرب منذ ظهر تحت تأثير هذين المؤثرين ، الدين والسياسة ، فيكون معنى ذلك انه نقلهم الي الطريق التي تقوم عليها الامم المتمدينة ، وتتأدى بالجرى عليها الى كمالها المقدر لها كما هو مشاهد ، بعد ان كان لاشغل لهم الا التناهب والتناحر ، وقصر الجهود على السفاسف والصغائر . وثمرة هذا الانتقال ظهرت حتي بهرت الانظار . فقد كانوا قبل الاسلام خاضعين للامم الاستعمارية ، او هائمين على وجوههم في القفار على حالة بدوية . فلما نقلهم الاسلام الي هذه الطريق ، طريق الشغل بالدين والسياسة اجتمعوا بعد فرقة ، وأثروا بعد فاقة ، وامتد سلطانهم على اكثر المعمور ، واصبحوا دولة آلت اليها خلافة الله فى الارض

يقول الدكتور طه حسين : « ان العرب لم يستطيعوا ان يخلصوا منذ ظهر الاسلام من هذين المؤثرين في لحظة من لحظات حياتهم فى القرن الاول والثاني »

ونحن نقول : بل لم يستطيعوا ان يخلصوا منهما الى اليوم ، ولن يخلصوا منهما ما دامت للروح حاجة فيما وراء المحسوسات ، وما دامت بهم حاجة الى حكومة حكيمة تدبر امورهم ، والي مكان يشغلونه بين الامم

ولست ارى ان تأثر المسلمين بهذين المؤثرين فى القرنين الاول والثاني كان أشد من تأثرهم بهما في القرون التي تلتهما فان نشوء الفرق الاسلامية التي أربت على السبعين ، وتنازعها في فهم الدين ، وتنافسها فى اجتذاب المشايعين ، وقع اكثره في القرن الثالث وما بعده . وظهور الفتن الخاصة بالخلافة والخلفاء ، وتغلب الفرس والديلم والترك المسلمين على اكثر الممالك الاسلامية ، وتجاذبهم اطرافها بالايدى المسلحة والجيوش الجرارة ، وقيام الدول وسقوطها بين عشية وضحاها ، وما اقتضاه كل ذلك بين المسلمين من الاشتغال بالدين والسياسة ، حصل كله في القرن الثالث وما يليه

فاما ان المسلمين كانوا يعتزون بدينهم وهم فى الوقت نفسه اهل عصبية وأصحاب مطامع ، وكانت حياتهم متصلة بالدين والسياسة ، وان المؤرخ السياسى او الادبي او الاجتماعي يجب ان يجعل الدين والسياسة اساسا لبحثه فى احوال العرب ، فهذه

الخصال كانت لجميع شعوب العالم . فاليهود قد ظهروا باليهودية واعتزوا بها ، واتصلت حياتهم بحياتها اتصالا وثيقا ، وما خرجوا من مصر وتاهوا فى شبه جزيرة طور سيناء، وفتحوا فلسطين ، وتنقلوا فى ادوار الاجتماع تحت حكم القضاة ثم الملوك الا تحت تأثير الدين والسياسة . وما اصابهم ما اصابهم من التشتت والتفرق فى الارض ، وما لقوه من الاضطهاد الشنيع والمذابح المنكرة الا بسبب دينهم وسياستهم. فالاسرائيليون يعتبرون من هذه الوجهة مثلا يضرب في هذا الموطن

والمسيحيون قد ظهروا بالمسيحية واعتزوا بها ، واتصلت حياتهم بها اتصالا محكما، وظلت اوروبا تحت السلطان المطلق لقادتها نحو الف سنة ثم ظهرت البروتستانتية ونجمت بسببها الحروب الدينية قرونا اخرى حتى القرن التاسع عشر

ولا اريد ان احدثك عن البرهمية الهندية والبوذية التي نشأت اصلاحا لها والزرادشتية الفارسية والكونفسيوسية الصينية وغيرها فكل هذه الامم استوعب الدين منها كل جهودها واتصل دينها بسياستها اتصالا اكيدا وكان من اثره عليها ما تفيض به تواريخها اليوم

***

يقول الدكتور طه حسين « بدأ الجهاد بين النبي وقريش جدليا ثم لما هاجر الى المدينة ووجد له فيها انصارا اعتمد الجهاد على السيف وتجاوز الخلاف كون الاسلام حقا او باطلا الى النزاع على حكم الامة العربية او القبائل الحجازية ومصير الطرق التجارية »

ونحن نقول هذا صحيح فقد بدأ الجهاد بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش جدليا ، ثم لما اشتدت وطأة الاضطهاد على رسول الله ومن آمن من قومه فاضطر اكثرهم ان يهاجروا الى الحبشة فرارا بدينهم . فزادت وطأة الاضطهاد شدة حتى أدت الي تحالف قريش على مقاطعة المسلمين فاضطروا للجلاء عن مكة وسكنى بعض شعابها مدة عانوا اشد ضروب الحرمان . ثم عادت قريش الى معاملتهم فعادوا الى دورهم ، ولكن الاضطهاد لم ينقطع ثم اتفق ان شرح الله صدر اهل المدينة وهم قبيلتا الاوس والخزرج القحطانيتين الي الاسلام ، ودعتا النبي صلى الله عليه وسلم

ليقيم بين ظهرانيهم . واتفق ان قريشا كانت اتفقت على قتله ، فتسلل هو وصاحبه متنكرين حتي خرجا من مكة وتبعتهما قريش فلجآ الي بعض الغيران ثم تابعا سيرهما الي المدينة فوصلاها سالمين بعد ان لبث النبي صلى الله عليه وسلم في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو قومه فلا يجيبونه . فلما آنس رسول الله من الاوس والخزرج قبولا الى تأييده بالقوى المسلحة دفعهم الى الجهاد فحدثت وقعة بدر التي انتصرت قبضة من المسلمين عددهم ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلا على جيش يقدر بنحو الف مقاتل وكان ذلك في سنة ثلاث من الهجرة . ثم تلتها وقعة احد التى انتصرت فيها قريش على المسلمين ولكنها لم توفق لان تستغل انتصارها بتعقبهم الي المدينة واستئصالهم كما كان هذا غرضها من قبل

وفي سنة اربع او خمس خرج ابوسفيان بن حرب قائد قريش في اربعة آلاف مقاتل وخرجت معه بنو سليم و بنو اسد و بنو غطفان و بنو مرة و بنو اشجع فتم عددهم عشرة آلاف مقاتل . فأسرع النبي صلى الله عليه وسلم بحفر خندق حول المدينة وجعل عليه المقاتلة فعز على المتحالفين اقتحامه واتفق ان هبت ريح عاصفة أضرت بمعسكرهم فاضطروا الي رفع الحصار عن المدينة

وفى سنة ست من الهجرة خرج النبي صلى الله عليه وسلم في الف وخمس مئة من اصحابه قاصدا مكة معتمرا . فاجتمعت قريش في دار ندوتها وقررت منعهم من دخول مكة ، وكان فى استطاعة المسلمين ان يقتحموها عنوة ويبيدوا قريشا . فقد كان ادركهم الوهن باسلام اكبر زعمائهم فيقيم هو ومن معه بمكة ثلاثا عليهم سلاح الراكب السيوف في القرب والقسي ، وان توضع الحرب بينهم عشر سنين ، وان يأمن بعضهم بعضا

فقفل النبي صلى الله عليه وسلم راجعا الي المدينة راضيا بهذه المعاهدة التي عدها جمهور اصحابه مهينة لهم ومزرية بكرامتهم مع قدرتهم على سحق عدوهم والفراغ منه نهائيا . فكان من ثمرتها ان اختلط المشركون بالمسلمين اذ جاء الاولون الى المدينة لقضاء بعض مصالحهم ، وذهب الآخرون الي مكة لمثل ذلك فتعارف الطرفان ، ورأت قريش من امر المسلمين ما كانت لاتتوهمه فدخل كثير من زعمائهم فى الاسلام

كعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما . واعتزم كثير ممن بقى قبول الاسلام دينا لهم عند سنوح الفرصة . فحدث ان بعض حلفاء قريش تعدوا على بعض حلفاء رسول الله فعدها النبي صلى الله عليه وسلم نقضا للمعاهدة واعتزم غزو مكة فبلغ ذلك قريشا فهالها الامر لتحققها من عجزها عن مقاومة المسلمين.فارسلت زعيمها أبا سفيان الي المدينة ليرجو رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يغضي عما حدث و يمد في أجل الهدنة . فلم يقبل . فتوسل بكثير من كبراء المسلمين فلم يقبلوا التوسط . فآب الى قومه فأخبرهم فاضطربوا وهلعوا لهذا الامر وما هي الا ايام حتي خرج النبي صلى الله عليه وسلم على رأس عشرة آلاف مقاتل من رجاله فوجه خالد بن الوليد الذى كان قبل قليل قائدا من اكبر قواد قريش الوثنية على رأس فرقة من الفرسان لاقتحام مكة من اسفلها ، وامر الزبير بن العوام ان يدخلها برجاله من كَدَاء . فلما وصل خالد الى أسفل مكة وهمّ بدخولها اعترضه قوم من بنى بكر و بنى الحرث بن عبد مناف وناس من هذيل كانت استنصرت بهم قريش فقاتلهم خالد وقتل من بنى بكر نحو اربعة وعشرين ومن هذيل اربعة فانهزموا وتحصنت طائفة منهم بالجبال وتبعهم المسلمون فصاح حكيم بن حزام وابوسفيان: يامعشر قريش علام تقتلون انفسكم من دخل داره فهو آمن ومن وضع السلاح فهو آمن فجعلوا يقتحمون الدور و يغلقونها عليهم

اما ابو سفيان هذا فقد كان خرج يتجسس اخبار الجيش القادم فقبض عليه بعض الحرس واوفده للنبي صلى الله عليه وسلم فأسلم قبل وصول رسول الله الى مكة

فلما تم الفتح اخذ الناس يدخلون فى الاسلام افواجا وامر النبي بهدم الاصنام التي كانت بالبيت . وكاد هذا الفتح يكون مفضيا الى خضوع جميع المشركين لولا ان بنى هوازن دفعتها الحماسة الجاهلية لمقاومة هذا التيار الاسلامى الجارف فحشدت من رجالها نحو عشرين الف مقاتل وسارت بهم لمهاجمة المسلمين فلقيها النبي صلى الله عليه وسلم بجيشه الذى فتح به مكة فهزمهم بعد قتال عنيف واستولى على جميع ما كان لهم وبذلك انتهت كل مقاومة من المشركين واصبحت بلاد العرب كلها

اسلامية طوعا وكرها

فانت ترى من هذا البيان ان قريشا لم تقاتل النبي صلى الله عليه وسلم قتالا جديا يصح ان يستنتج منه انه كان تناحرا بين طائفتين لنصر دين على دين اولضمان سلامة طريق تجارية ضرورية لحياة احدى الجماعتين. فغزوة بدر حدثت بسبب ماشيع من ان المسلمين استولوا على تجارة قريش فخرجت فرقة تقدر بألف رجل لاستردادها. وغزوة احد شنها المشركون للاخذ بثأر من قتل منهم في بدر. وغزوة الخندق كانت باغراء نفر من اليهود منهم سلام بن مشكم وابن ابي الحقيق وحيي بن أخطب خرجوا من خيبر وقدموا مكة وحرضوا قريشا على غزو المدينة واستئصال شأفة المسلمين فيها وتعهدوا ان ينضم اليهود اليهم. فلبت قريش دعوتهم وقصدوا المدينة في نحو عشرة آلاف مقاتل كما قدمنا فلما حاصروا المدينة ووجدوا الخندق حولها وخرجت عليهم العاصفة اتخذوا هذه الحادثة عذرا لعودتهم بدون قتال. ولم تبد قريش بعد هذه الرجعى اقل حركة لمحاربة المسلمين ولم يؤثر عنها فى تلك الوقائع الثلاث الماضية مثل مايؤثر عن الطوائف الموتورة في دينها ودنياها من غليان الصدور بالسخائم، واضطرام النفوس بالضغائن، وابلاغ الحرب الي أقصي شدتها، والذهاب بالصبر والثبات الي مثل مايروى عن المستبسلين والمستميتين فى الدفاع عن وجودهم. سمعنا ان قريشا استنفرت بعض من حولها من العرب للحرب ليعينوها على الاخذ بالثأر او لنصرة اوثانها ومعبوداتها ولكنا لم نسمع قط انها استنفرت البعيدين عنها كما يفعل الذين تلتهب فى قلوبهم نيران الحمية. ولم تذكرهم بضرورة تأمين الطرق التجارية، ولم ينقل الينا انها قامت بنشر دعوة حارة ضد المسلمين تصلح لجمع كتلة من المحاربة تتمكن بهم من عمل شيء جدى. ذلك لأنها لم تكن من العرب على ماوصفها به الدكتور طه حسين، ولم يكن لانقطاع الطرق الاقتصادية في نظرها كبير خطر يدفعها للاستماتة في الدفاع عنها

لقد كانت بلاد العرب كلها في عهد الجاهلية اشبه بدار حرب فتجارة قريش على تفاهة قدرها وتجارات غيرها من القبائل كانت فى حاجة الى الحماية سواء كان طريقها ساحل البحر الاحمر أو العراق

أليس يدل هذا الفتور من قريش في حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعجزها عن جمع اكثر من عشرة آلاف من العرب المحالفين لها على انها لم تكن كما يقول الدكتور طه حسين منيعة الحوزة ، عزيزة الجانب ، تحدث نفسها بجمع كلمة العرب لتكوين دولة وثنية مستقلة تطرد الاجانب من بلادها ؟

ثم ألا يدل عدم اجتماع العرب على محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يسفه احلامهم ، ويسب اصنامهم ، ويتوعدهم بالفناء على انهم كانوا منصرفين عن امور دينهم ودنياهم ، وقانعين من العيش بما هم فيه من التناهب والتناحر ، ومن الاجتماع بما هم عليه من التنافر والتدابر ، على مثال الوحوش الهائجة ، والكواسر الهائمة ؟

ألا يدل تمكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من ناصية الامة العربية كلها حاضرها وباديها ، عدنانيها وقحطانيها ، بواسطة قبضة من رجال ذوى ايمان صحيح على ان هذه الامة كانت لحما على وضم ، وانها كانت من الانحلال ، وتفكك الاوصال ، وقلة المبالاة بدينها ودنياها بحيث لا تضرب ضربتين او ثلاث ضربات حتي تستخذى صاغرة ، وتستكين خاضعة ؟

***

يقول الدكتور طه حسين : « وهذا ادى الي نشوء عداوة بين قريش واهل المدينة ، واصطبغت هذه العداوة بالدم يوم انتصر الانصار على قريش في بدر . ومضت قريش في جهادها ولكنها كسرت فى آخر الامر. فنظر زعيمها وحازمها ابو سفيان في الامر فرأى ان يصانع و يصالح و يدخل فيما دخل فيه الناس لعل هذا السلطان السياسى الذى انتقل من مكة الي المدينة ومن قريش الى الانصار ان يعود الي قريش والى مكة مرة اخرى »

ونحن نقول اما نشوء عداوة بين قريش واهل المدينة فصحيح وسببها نصرتهم للنبي صلى الله عليه وسلم . اما قوله واصطبغت هذه العداوة بالدم يوم انتصر الانصار على قريش في بدر . فكلام ان ساغ من ناحية كتابية شعرية فلا يسوغ من وجهة اجتماعية علمية تتطلب تقديم الاسباب والعلل، وعزو الحوادث الي عواملها الحقيقية. والحق

ان الذى انتصر فى بدر هي قريش المسلمة على قريش الوثنية . واما الانصار فكان مكانهم فى هذه الحوادث مكان المعين المالىء ليس غير . أترى لو قمعت فرنسا فتنة الدروز بجنود مغربية او ارمنية او سنغالية يصح ان يقال انتصر المغاربة او السنغاليون او الارمنيون على الدروز، في حين ان الحرب كانت لمصلحة فرنسا، والروح التي تحركها روح فرنسا ، والغرض من اشعال نيرانها تأييد مزاعم فرنسا فى تلك البلاد ؟

فاذا صح لقريش ان تحقد فلتحقد على ابنائها محمد واصحابه الذين كفروا بآلهتها، وانفصلوا عن جامعتها ، واخذوا بديانة غير ديانتها ، وانتهجوا فى الحياة طريقة غير طريقتها ، واغروا اصدقاءها على عداوتها

هذا مايقتضيه علم الاجتماع الذى يربط العلل بمعلولاتها ، والاسباب بمسبباتها ، والا فقد كان الاوس والخزرج في غفلة عن الاسلام ، وفى غنى عن عداوة قريش ، ولولا محمد واصحابه لبقوا على ما كانوا عليه ماشاء الله ان يبقوا ، فالروح المدبر لهذا الامر هي قريش المسلمة لا أهل المدينة ولا غيرهم ممن يلتحق بالمسلمين ويفنى فيهم

ولكن الدكتور طه حسين رتب هذه المقدمات وتسامح في درس علل هذه الحوادث على الاسلوب العلمي ، وخالف العرف وطبيعة الاشياء لخدمة غرض ادبي محض هو تعليل الاختلاق فى الشعر الجاهلى. فكان مثله كمن يشعل مدينة برمتها ليأخذ منها قبسا . وليس هذا من العمل الصالح في شيء

اما قوله : « فنظر زعيمها وحازمها ابو سفيان في الامر فرأى ان يصانع ويدخل فيما دخل فيه الناس لعل هذا السلطان السياسى الذى انتقل من مكة الي المدينة، ومن قريش الي الانصار ان يعود الي قريش والي مكة مرة اخرى » فهو كلام خال من التحقيق العلمي ، ومتسامح فيه كل التسامح . فان ابا سفيان هذا الذى يصفه الدكتور طه حسين بالحزم و بعد النظر كان بعد اسلامه يعمل على الاجهاز على ما بقى من آمال قريش الوثنية وعلى تأييد قريش المسلمة. فقد شهد حرب الطائف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبلى في قتال اهلها بلاء حسنا حتى فقئت احدى عينيه . ثم

وجهه النبي صلى الله عليه وسلم لهدم صنم بني ثقيف . وقد لزم الانقيـاد حتي انتقل رسول الله الي الرفيق الأعلى . وحافظ على اخلاصه مدة ابي بكر . ولما تولي عمر الخلافة وجهه الي اليرموك لقتال من هنالك من متنصرة العرب ووثنييهم فأبلى احسن بلاء فيها حتى فقئت عينه الثانية فبقي كفيف البصر بقية مدة عمر وشطرا من خلافة عثمان، لم يلاحظ عليه غير الطاعة والولاء حتي توفي . فلو كان ابو سفيان هذا يطوف برأسه مثل تلك الاحلام لالتجأ قبل سقوط مكة مع طائفة من كرام رجاله الى بعض القبائل التي كانت لاتزال على الوثنية كقبيلة هوازن مثلا كما يفعل القـادة الذين يكافحون لتأييد المبادىء العالية ، بل كما يفعل القادة من ذوى الخبرة الحربية لاسيما وقد اصرت قبيلة هوازن على وثنيتها وجمعت للنبي صلى الله عليه وسلم بعد فتح مـكة جيشا جرارا قُدر بعشرين و بثلاثين الف مقاتل، ودفعت بهم لمحاربته ، فحدثت وقعة حنين المشهورة التي اعتبرت من اشد الوقائع هولا اذ انكشف فيها المسلمون في اول صدمة وكاد الامر يفضي الي هزيمـة منكرة لولا كرة صادقة كرها اهل السابقـات الحسنة في ذلك اليوم

اما وقد استسلم ابو سفيان ودخل فيما دخل فيه الناس ، وقام بهدم بعض الاصنام بأمر النبي صلى الله عليه وسلم وحارب معه ومع خلفائه اعداء الاسلام،وعرض نفسه للهلكة في هذا السبيل حتى فقد عينيه فلا يصح ان يقال عنـه انه كان حازم قريش ورجلها الفذ ، وانه كان ينتظر ان يعود لقريش الوثنية مجدها القديم. أيّ مجد يصح ان يُتمنى عوده وهو نفسه يعمل على تقويضـه وازالة معالمه معطيـا بذلك اسوأ الامثال لكل من كان دونه ؟

يقول الدكتور طه حسين : « كان ابو سفيان هذا يرجو ان يعود السلطان السياسي الى قريش بعد ان انتقل منهم الى الانصار . »

ونحن نقول ان السلطان السياسي في عهد الاسلام لم يكن لقريش ولا للانصار بل كان للمسلمين كافة بمن فيهم من الاجانب عن العرب ، لان الاسلام محق الجنسيات وعفّي على آثارها. فلو فرضنا ان ابا سفيان بعد اسلامه كان لايزال يستبطن الوثنية ، و يكره الاسلام،ويرى وجود شيء اسمه قريش ، أفما كان يري ان قريشا قد اسلمت

على بكرة ابيها وتولت نشر الدين الجديد بتحطيم الاصنام واجبار العرب بالسيف على الاسلام ؟ فأي قريش كان يريد ان ينتقل اليها ذلك السلطان لسياسي؟ء أولئك العامة المستضعفين الذين بقوا فى مكة بعد الفتح ، ام أولئك الرجال الكبار ، والقادة المحنكين امثال ابي بكر وعمر وعثمان وعلى وابي عبيدة وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وابنى ابي سفيان يزيد ومعاوية الخ الخ من القرشيين الذين كانوا بالمدينة يديرون ذلك السلطان الاسلامى ويعملون بأنفسهم وأموالهم على تقوية شوكته واعلاء كلمته ؟

ان كان ابو سفيان يعنى بقريش اولئك الذين كانوا في مكة فقد كان أولئك مستضعفين، جلهم رعاة واجراء لا فى العير ولا فى النفير. واما ان كان يعنى بهم رجالها الاعلين ، وصناديدها المعدودين ، وقوادها المحنكين، فاولئك انتقلوا كلهم قبل الفتح وبعده الى مكة وتولوا تدبير امر الاسلام والمسلمين تحت اشراف النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان منهم قادة الجيوش ، وامراء السرايا ، ورؤساء البعوث ، والسفراء الى القبائل ، والدعاة للدين ، والولاة على الاقاليم، قلنا اما ان كان ابو سفيان يعنى بقريش هؤلاء، وهم زهرة قريش بل الذين لولاهم لما كانت قريش قريشا فان عودهم للكفر امر لا يطوف بخيال انسان يعتد بعقله

***

يقول الدكتور طه حسين : « لم يكد النبي يدع هذه الدنيا حتي اختلف المهاجرون والانصار في الخلافة . وكاد الامر يفسد بين الفريقين لولا بقية من دين ، وحزم نفر من قريش ، ولولا ان القوة المادية كانت اذ ذاك الى قريش ، فأذعنت الانصار ، وانصرفت قوى الجميع الي ما كان من انتقاض العرب على المسلمين ايام ابي بكر والي ما كان من الفتوح ايام عمر ، ولكن المقيمين من اولئك وهؤلاء في مكة والمدينة لم يكونوا يستطيعون ان ينسوا تلك الخصومة العنيفة التى كانت بينهم ايام النبي ، ولا تلك الدماء التي سفكت في الغزوات وقد حال حزم عمر بين قريش والانصار وبين الفتنة ، فقد نهي عن رواية الشعر الذى كان يتهاجي به المسلمون والمشركون ايام النبي وقد كانت قريش والانصار يتذاكرون ما كان قد هجا به بعضهم بعضا ايام

النبي وكانوا حراصا على روايته يجدون فى ذلك من اللـذة والنماتة ما لا يشعر به الا صاحب العصبية القوية »

ونحن نقول لما توفى النبي صلى الله عليه وسلم اجتمع نفر من الانصار وتذاكروا فى مصير امر المسلمين وشرعوا فى اقامة امير منهم . فسمع بذلك ابو بكر وعمر فأسرعا اليهم فى نفر من قريش وتداولوا الكلام في امر خلافة النبي صلى الله عليه وسلم وأدلى كل فريق بحجته ، فاقتنع الانصار بصحة رأى المهاجرين وبايعوا ابا بكر بالخلافة مجمعين الا سعد بن عبادة سيد الخزرج فلم يبايع حتي مات فتخلى عنه قومه ولم يرفع واحد منهم بخلافه رأسا

يقول الدكتور طه حسين : « وكاد الامر يفسد بين الفريقين لولا بقية من دين، وحزم نفر من قريش ولولا ان القوة المادية كانت اذ ذاك لقريش »

فأما قوله كاد الامر يفسد بين الفريقين لولا دين وحزم فصحيح وكفى بقوم فضلا ونبلا ان يخضع فريق لرأى فريق بوازع من الدين والحزم . هذا كل ما ينتظر من فريق كريم وليس بعده مذهب لمستزيد

واما قوله : « ولولا ان القوة المادية كانت اذ ذاك الى قريش » فغير صحيح فان القوة المادية كانت للانصار جاهلية واسلاما ودليلنا المادى على ذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم كسر بهم قريشا ومن شايع قريشا من القبائل . وهذا التفوق في القوة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم كان مُسَلَّما به عند الكافة حتى نوه به الحباب بن المنذر الانصاري في مؤتمر السقيفة . فقال كما رواه ابن قتيبة في كتاب الامامة والسياسة : « يامعشر الانصار املكوا على ايديكم فانما الناس في فيئكم وظلالكم ، ولن يجير مجير على خلافكم ، ولن يصدر الناس الا عن رايكم . انتم اهل العز والثروة واولو العدد والنجدة . وانما ينظر الناس الى ما تصنعون فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم ، وتقطعوا اموركم . انتم اهل الايواء ، واليكم كانت الهجرة ، ولكم فى السابقين الاولين مثل ما لهم . وانتم اصحاب الدار والايمان من قبلهم . والله ما عبدوا الله علانية الا فى بلادكم ، ولا جمعت صلاة الا في مساجدكم ، ولا دانت العرب للاسلام الا بأسيافكم »

فان قيل ان نص هذه الخطبة يمكن ان يكون مختلقا ، قلنا ونحن نرجح انه مختلق. ولكن الرواة اعتادوا في اختلاق الاخبار والخطب ان يتحروا من الامور ، مالا يناقض ما يعرفه الجمهور. فلولا ان الناس يعرفون بالبداهة ان القوة والمنعة والعدد كان للانصار دون المهاجرين لما تجارأوا على اختلاق ذلك حذرا من تعريض روايتهم للشكوك والريب

***

يقول الدكتور طه حسين : « ولكن المقيمين من المهاجرين والانصار في مكة والمدينة لم يكونوا يستطيعون ان ينسوا تلك الخصومة العنيفة التي كانت بينهم ايام النبي ولا تلك الدماء التي سفكت في العزوات ، قد حال حزم عمر بين قريش والانصار وبين الفتنة الخ الخ

ونحن نقول ان الذين كانوا يقيمون في مكة والمدينة مع النساء والمستضعفين في ايام تدويخ العرب الذين ارتدوا عن الاسلام وانتقضوا على المسلمين ، وفي ايام الفتوحات العمرية كانوا اما عجزة لا يستطيعون ضربا في الارض ، واما من حثالة الناس الذين لا ترجي منهم فائدة ، ولا تنتظر منهم نجدة . ومثل هؤلاء لا تخلو منهم امة ، ولا يكون لهم من عمل في ساعات فراغهم الا ما يناسب مداركهم من ذكر العصبية ، والتلاهي بالمحظورات الدينية . فهؤلاء هم الذين كانوا ينشدون الاشعار التي تهاجي بها المهاجرون والانصار ، ويجدون في روايتها لذة ، بينما كان هؤلاء المهاجرون والانصار متآخين في الله يجاهدون في سبيله كتفا لكتف ، ويشاطر بعضهم بعضا السراء والضراء في ميادين الشرف يبنون صرح دولة قدر لها ان تملك من الاقطار ما لم يسمع مثله لدولة قبلها لتكون واسطة بين العالم وبين العلم والمدنية التي ستؤول اليها خلافتها دون سواها من الامم

فأولئك القاعدون في اكسار دورهم يتناشدون الاشعار التي كان يتهاجي بها المسلمون والكافرون ، كانوا نفاية ذينك الفريقين الكريمين المهاجرين والانصار وكان حظهم من الدين انهم أجبروا عليه اجبارا فلا يزالون يحنون الي جاهليتهم الاولي ولكنهم كانوا من سقوط القيمة بحيث لم يؤثر ما كانوا فيه من عمل الجاهلية في تلك

الوحدة الوثيقة العرى التي عجزت كل عوامل التحليل عن العدوان عليها حتي ادث ما انتدبت له من اقامة تلك الدولة الفتية التي كان من ثمرة قيامها ذلك الخير العام الذى غمر العالم كافة . فلا يصح ان يقوم الدكتور طه حسين بعد الف وثلاث مئة سنة فيلتقط من هنا وهناك حكايات أولئك العاطلين واكثرها مختلق موضوع ليثبت بها وهن روابط ذلك المجتمع الكريم بعد ان اثبت ذلك المجتمع نفسه بثباته واستمراره ووفائه بما أخذه على نفسه انه كان كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا

وقد حدثت فتن بين الحنابلة والشافعية ، وبين هؤلاء والاحناف في امصار كثيرة حتي فى الجامع الازهر ادت الي التقاتل والتناحر، فهل يصح ان يقال استنادا على فعل بعض المتعصبة الاغرار ان بين اصحاب المذاهب الفقهية الاسلامية حرازات، او ان هذه المذاهب قد اوجدت بين المسلمين الشقاق ؟

لا ، لا يصح ذلك ، لأن الذى قام بتلك السفاسف حثالة اغمار لا تتخذ اعمالهم حجة على الجماعات التي ينتمون اليها

***

يقول الدكتور طه حسين : « وقد حال عزم عمر بين قريش والانصار وبين الفتنة فقد نهى عن رواية الشعر الذى كان يتهاجي به المسلمون والمشركون ايام النبي »

ونحن نقول : وقد قتل عمر فلم لم تقع الفتنة بين قريش والانصار ؟ ثم قتل عثمان . فلم لم تقع الفتنة بين قريش والانصار ؟ ثم قتل على فلم لم تقع الفتنة بين قريش والانصار . هنا يمكن ان يقال لم تقع الفتنة بفضل بقية دين وحزم . نقول هذا كلام ليس من العلم فى شيء ، بل هو من الشعر العريق فى الخيال . فان الذى شوهد فى تاريخ الطوائف ان مصالحها متي تصادمت ، او شعرت واحدة منها بأن حقوقها قد هضمت ، عدت من الدين ومن الحزم ان تطالب بحقها المهضوم وشرفها المثلوم ، وهبت لا يثنيها شيء عن الكفاح . فالثورة التي قام بها الناس وقتلوا فيها عثمان عدها ذووها من الدين والحزم ، واقتتال معاوية وعلى وذهاب حياة الالوف المؤلفة

هدرا فيها عدها الطرفان من الدين والحزم ، والحرب الضروس التى شبت بين شيعة عائشة وطلحة و بين اصحاب على عدها الخصمان من الدين والحزم ، والتناحر الهائل الذى حصل بين على والخوارج اعتبرته الطائفتان من الدين والحزم ، فالدين والحزم حجة كل معتد ومُعتدًى عليه . فهل كان دين الانصار وحزمهم من نوع ارقى من دين وحزم كل طائفة في الارض ؟ هب انهما كانا كذلك أفيعقل انهما كانا يمنعانهم ان يقفوا لتأييد حقهم المهضوم موقف الرجال ، في ميدان الطعن والنزال ، وفى الوقت نفسه يسمحان لهم أن يتسفلوا الى حضيض الرُذّال ، فيتهاجون بالاشعار و يتطاعنون بما لا يُؤثر الا على خيال الاطفال ؟

لا . لا . هذا ليس بمعقول . بل المعقول ان الانصار لم يخضعوا لرأى المهاجرين الا مقتنعين بأنهم على صواب ، وانهم لم يجدوا فى صدورهم حرجا من قَصْر الامارة على قريش ، والا لتمحلوا الف عذر لامتلاخ حقهم من ايدى خصومهم المتغلبين ، باسم الحزم والدين ، كما فعلت كل الطوائف في العالمين

سلم الانصار لحجة القرشيين يوم انتخاب الخليفة ، ولكن مالبث هذا الخليفة اياما حتي ارتدت القبائل التى كانت أسلمت على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وطردت جباة الاموال ، واضطر ابو بكر لبث جنوده وقواده فى جميع ارجاء بلاد العرب لقمع هذه الفتن . فكان الانصار ، لوكانوا موتورون ، يستطيعون في هذا الوقت ان يتذرعوا للثورة على القرشيين بحجة ان حكومتهم بسوء سياستها ردت العرب مشركين

احتضر ابو بكر فاستأذن المسلمين في ان يعهد بالخلافة الى عمر . فقبلوا منه ذلك كارهين ، لشدة كانوا يعرفونها في ابي حفص . فكان هذا الظرف فرصة سانحة لان يثور الانصار بحقوقهم مطالبين ، ولكنهم لم يفعلوا فلبثوا موالين

ثم قتل عمر فاضطرب لذلك المسلمون وزلزلوا زلزالا شديدا . فكانت هذه نهزة للأنصار يهبون فيها للتخلاص من نير القرشيين ، ولكنهم لبثوا كما كانوا مخلصين وادعين

ثم تولى عثمان فساءت الاحوال في زمنه ، واضطربت الامور من تغلب المتعصبة

من قرابته عليه ، وجاءت جنود الاقاليم[1] تحاصره في داره مطالبة اياه بعزل مستشاره وتسليمه اليهم او التنازل عن الخلافة . فلما لم يفعل هذا ولا ذاك اقتحموا عليه قصره وقتلوه . وكان هذا الظرف من الاضطراب مناسبا لثورة الانصار المظلومين . . . ولكنهم لم يفعلوا ولبثوا مستسلمين .

ثم تولى على وخرج عليه معاوية بالشام ، وطلحة والزبير وعائشة بالعراق ، والخوارج بمختلف الجهات ، وكانت هذه الاضطرابات من احسن الفرص للثورة على الغاصبين ، ولكنهم لم يفعلوا فمكثوا هادئين

ثم قتل على واشتدت شوكة معاوية ، واغتصب الخلافة ، ونقل عاصمة الملك الي دمشق ، وكانت هذه الفرصة اولى من جميع الفرص السابقة بانتصاف المظلومين ، ولكن الانصار بقوا ساكنين

نعم ثار الانصار والمهاجرون على يزيد بن معاوية ، ولكن كانت يدهم في يد المهاجرين .وما ثارت الطائفتان الا تذمرا من ان يلي الخلافة رجل ليس من اهلها الصالحين

أفلا يدل كل هذا على ان الانصار لم يكونوا قط ناقمين على المهاجرين ، والا فان الدين والحزم اللذين يحدثنا عنهما الدكتور طه حسين كانا لدى الانصار من نوع غير النوع الذي عهدناه عند جميع الطوائف ، وانهم هم انفسهم كانوا من نوع غير النوع الانساني. فهلا منعهم هذا الامتياز الرفيع من التلذذ بانشاد الشعر الذي فيه سب للقرشيين ؟ ان صح ذلك فما أولاهم بقول قُرَيط بن اُنَيف العنبرى اذ قال ينعي على بنى العنبر تسامحهم في حقوقهم :

لكن قومى وان كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر فى شيء وان هانا
يجزون من ظلم اهل الظلم مغفرة ومن اساءة اهل السوء احسانا
كأن ربك لم يخلق لطاعته سواهم من جميع الناس انسانا

ولكن مع هذا الفارق وهو ان قوم قريط بن انيف كانوا يجزون من ظلم اهل الظلم مغفرة ، ولكن الانصار على مايقوله الدكتور طه حسين ، كانوا يظهرون الاخلاص ويبطنون فى صدورهم نارا تلَظي من الحقد على قريش . . . .

كلا . لو كان الانصار يرون انهم قد هضمت حقوقهم ، وغلبوا على امرهم لملأ الحقد على قريش قلوبهم ، ولوجدت لهم فى كل مشكلة خلافا ، وفى كل فتنة اصبعا ، وفى كل دور من الانتقال استعصاء . واذ لم يحدث منهم شيء مما ذكرنا ، وهي العلامات الدالة على حالات النفوس ، فلا يصح ان يحملوا هم وقريش تبعة ما كان يأتيه بعض الزعانف من كلتا الطائفتين

***

يقول الدكتور طه حسين : « ان عمر رأى حسانا في المسجد ينشد طائفة من المسلمين فأخذ بأذنه وقال أرغاء كرغاء البعير » الخ الخ

ونحن نقول : ان الدكتور فسر هذه الرواية بأن الانصار كانوا موتورين فكانوا يتعزون بانتصافهم من قريش قبل موت النبي. وعمر تكره عصبيته ان تزدرى قريش. وهذا التفسير في نظرنا غير وجيه ولا ينطبق على نفسية الصحابة في ذلك العهد ، تلك النفسية التى يدل عليها تضامنهم الوثيق في كل امر . وعندنا ان تفسيره ما سنذكره، وهو ان الصحابة كانوا يكرهون الشعر و يعدونه من الملهيات لقوله تعالي : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » اى ولا يصح ان نعلمه اياه لحقارته بالنسبة لمنصبه. ولقوله تعالي ايضا : « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون». حتي ان لبيد صاحب المعلقة ترك الشعر فى الاسلام . وحذا حذوه ناس كثيرون . وقد روى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لأن يمتلىء صدر احدكم قيحا خير له من ان يمتلىء شعرا » . ولاشك في ان المذموم هو الشعر المحظور كقصائد الهجاء والمجون . فعمر بن الخطاب كجميع الصحابة يكره ان يتلهى الناس بسفاسف الامور . فلما سمع حسانا يرغي كارغاء البعير في المسجد كره منه ذلك لان المساجد جعلت لذكر الله لا لانشاد الشعر . فلما ذكّره حسان بأن النبي كان يسمع منه شعره فى هذا المقام تركه لحرمته ومضى ، لا ان عصبيته كانت تكره ان تزدرى قريش اذ لو كان الامر كذلك لطرده من المسجد ولم يُبَل به ولكان له فى ذلك عذر مقبول

***

يقول الدكتور طه حسين : « أن عبد الله بن الزعبرى وضرار بن الخطاب قدما المدينة وانشدا حسانا مما قالت قريش في الانصار فلما فرغا لم يسمعا منه ومضيا عائدين الي مكة . فاشتكاهما لعمر فردهما وامره ان ينشدهما ما شاء ففعل » الخ الخ

يستشهد الدكتور طه حسين بهذه الحكاية ليثبت ان الانصار كانوا يرتاحون لسماع هجو قريش انتقاما منهم

ونحن نقول ان هذه الحكاية تثبت ان الوحدة الاجتماعية كانت على اتم ما يكون في ذلك العهد حتي ان عمر القرشي وهو امير المؤمنين انتصر لحسان الانصارى واحضر له القرشيين لينشدهما حسان ما يكرهانه . ويثبت فوق ذلك امرا جديرا بالتنبه اليه وهو أن الانصار وقريشا المسلمة كانوا سواء فى ذم قريش الوثنية المتحدة التي بادت منذ فتح مكة . ويدل على ذلك دلالة لاتحتمل النقض احضاره القرشيين لسماع حسان في ذم قريش الوثنية وترخيصه للناس بكتابة هذا الشعر بعد ان امر بعدم كتابته لعدم اثارة الضغائن . فالغاؤه امره الاول والترخيص بكتابته يدل على انه رأى انه لا يثير الضغائن . والا فلو كان يعلم انه يثيرها لما أقدم على الترخيص بكتابته وهو المعروف بالورع والمحافظة على وحدة الامة

***

يقول الدكتور طه حسين : « قال ابن سلام نظرت قريش فاذا حظها من الشعر قليل فى الجاهلية فاستكثرت منه في الاسلام . وليس من شك عندى في انها استكثرت من هذا الشعر الذى يهجي فيه الانصار »

ونحن نقول ان كان هذا صحيحا فيكون الذين ارتكبوا هذا الاثم نفر من الذين التحفوا الاسلام ولم يستشعروه فهم نُقاضة قريش ونُفايتها ممن لا بصيرة لهم بدين ولا دنيا ، ولا حظ لهم من الحياة الا ان يشتغلوا بالسفاسف والدنايا . اما القرشيون الذين وضعوا اساس هذا المجتمع المبارك الذى كُتب له ان يكون نواة لأكبر دولة فى العالم فلا يعقل ان يكونوا تحت تأثير حالة نفسية سافلة من هذا القبيل والا لظهرت اعراضها الملازمة لها كما هي السنة فى كل مجتمع

ثم اننا لا نستطيع ان نتصور ان طائفتين بينهما من التعادي والتنافر ما يحمل احداهما على اختلاق القصائد ذما في الاخرى وتحقيرا لشأنها يكون حالها من التضامن والتكافل على ما رأيناه منهما في كل دور من الادوار الحرجة التي دخلت فيها جماعة المسلمين في القرن الاول

فان كان ما يقوله الدكتور طه حسين حقا من ان الانصار قد هضم حقهم ، وانهم أحسوا بهذا الهضم وسكتوا على مضض ، وان القرشيين كانوا ينظمون القصائد طعنا فيهم ، وازراء بهم ، وانهم تحملوا كل ذلك ولم يبدوا حركة تدل على استيائهم ، وجب ان تكون قريش من الظلم والاجحاف ، ونكران الجميل ، وفساد الطوية ، وخساسة النفس في الدرك الاسفل ، وان تكون الانصار في تحملها كل ذلك وجزائها عليه بدوام الوفاء والولاء آية في المروءة والرجولة وشرف النفس

فهب ان هذا كان هو الواقع فذلك لاينفي انه نفحة من نفحات الاسلام، وأثر من آثار محمد عليه الصلاة والسلام ، ويكون معجزة خالدة له الى يوم القيام . لان فلاسفة الارض مجتمعين يعجزون عن التوفيق بين رجلين من هذا الطراز ، وعلى هذا التنافي في الاخلاق ، فما ظنك بطائفتين كانت احداهما على هذا الصفات الخاطئة من هضم الحقوق ، والاعتداد بالنفس ، والتجرم على الولي ، وقد بنى بهم تلك الوحدة الاجتماعية التي مكنت ذويها من ناصية العالم ، ودفعتهم لاصطناع مدنية لاتزال بدائعها مضرب الامثال الى اليوم ؟

«*»

يقول الدكتور طه حسين : « ولما تولي عثمان تقدمت الفكرة السياسية التي كانت تشغل ابا سفيان خطوة اخرى فلم تصبح الخلافة فى قريش فحسب بل اصبحت في بني امية خاصة . واشتدت عصبية قريش ، واشتدت عصبة الامويين ، واشتدت العصبيات الاخرى بين العرب ، وهدأت حركة الفتح ، واخذ العرب يفرغ بعضهم لبعض ، وكان من نتائج ذلك ما تعلم من قتل عثمان وافتراق المسلمين ، وانتهاء الامر كله الي بني امية »

ونحن نقول هذا كلام قد رتب ترتيبا شعريا خاليا من روح التحقيق العلمي ،

وبعيد عن فلسفة التاريخ واصول الاجتماع بعدا لا يقف عند حد

وحقيقة الامر ان عمر لما جرح واحس بقرب وفاته عين ستة من الذين لا تعدوهم الخلافة وهم علي وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبد الله والزبير بن العوام وسعد بن ابي وقاص وابي ان يعهد بالخلافة الي ابنه عبد الله حتي اقترح ذلك عليه قائلا والله لا يليها من ولد الخطاب اثنان . وخاطب هؤلاء الستة بقوله: يامعشر المهاجرين الاولين اني نظرت في امر الناس فلم اجد فيهم شقاقا ولا نفاقا فانه يكن بعدي شقاق ونفاق فهو فيكم. تشاوروا ثلاثة ايام فان جاءكم طلحة الى ذلك (وكان غائبا) والا فأعزم عليكم بأن لا تتفرقوا من اليوم الثالث حتي تستخلفوا احدكم فان اشرتم بها الي طلحة فهو لها اهل. وليصل بكم صهيب هذه الثلاثة الايام التى تتشاورون فيها فانه رجل من الموالى لا ينازعكم امركم وأحضروا معكم من شيوخ الانصار وليس لهم من امركم شيء، وأحضروا معكم الحسن بن علي وعبد الله بن عباس فان لهما قرابة. وارجو لكم البركة في حضورهما وليس لهما من امركم شيء ويحضر ابنى عبد الله مستشارا وليس له من الامر شيء . فصدعوا باشارته ولكنهم اختلفوا ثم اجمعوا على تحكيم احدهم وهو عبد الرحمن بن عوف . فخرج يسأل الخاصة والعامة عن رأيهم فيمن يصلح للخلافة فوجد الناس مجمعين علي تولية عثمان فرجع الى اخوانه واخبرهم بأنه اختار عثمان فبايعوه وبايعه الناس. واتفق ان كان بعثمان ضعف فتغلب عليه قريب له يدعي مروان بن الحكم احد الذين اصروا على الوثنية حتى فتح رسول الله مكة فاسلم اذ ذاك ضنا بنفسه ، وكان مشبعا بروح الجاهلية ، والاثرة القبيلية، فجعل الولاة فى الاقاليم من اغيلمة بنى امية حتي الذين لا يصلحون للولاية . فأحدثت هذه الحالة تذمرا عاما في المسلمين . وظهر من عدم كفاية هؤلاء الولاة ماملأ القلوب بكراهة تلك الحكومة حتي ان احدهم وهو الوليد بن عقبة والى الكوفة صلى بالناس الصبح وهو سكران اربع ركعات ثم التفت اليهم وقال ان شئتم ان ازيدكم ركعة زدتكم . فما عتمت الفتنة ان اندلع لهيبها وقصد المدينة جيش من جنود الولايات وحاصروا عثمان فى داره وطلبوا اليه عزل مروان بن الحكم وتسليمه اليهم . فأبي . فطلبوا اليه الاستقالة فلم يجبهم الى طلبهم . فهددوه بالقتل فلم يقم لتهديدهم وزنا . فاقتحموا عليه الدار وقتلوه . ثم اجتمعوا فولوا على بن ابي

طالب الخلافة فأسرع بمعالجة ما فسد من امر الولايات فعزل اولئك الولاة الامويين وولاها رجالا ممن يثق فيهم مثل محمد بن ابي بكر وابي موسى الاشعرى . وكان ممن امر بعزله من الولاة معاوية بن ابي سفيان وكان قد مضي عليه في ولاية الشام عشرون سنة اتخذ له فيها جنودا وقوادا . فلما فاجأه خبر العزل احتال لاعلان عصيانه بفرية أثر بها على الذين حوله وهي ان عثمان ماقتل الا باغراء على بن ابي طالب . واتفق ان عائشة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم كانت تكره عليا فاتفقت مع طلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام على ان يؤلبا الناس على امير المؤمنين ليسلمهم رجال الثورة الذين قتلوا عثمان . ولا يخفى ان هذا متعذر. فاعتذر اليهم فلم يقبلوا وجمعوا له سبعين الف مقاتل في العراق فقاتلهم في وقعة اسمها يوم الجمل ،وقتل طلحة وقبض على عائشة ورجعها الي المدينة ثم قصد معاوية فقاتله فلما كاديأسره احتال عمرو بن العاص كبير قواده فأمر بعض جنوده برفع المصاحف على رؤس الرماح اشارة الى طلب التحكيم الي كتاب الله . فابي عليهم ذلك باعتبار انها حيلة . فاختلف عليه اصحابه واجبروه علي قبول التحكيم . فلما قبله انشقت عنه طائفة لم يرضها مافعل وتجمعوا عند نهر النهروان فزحف عليهم فقاتلوه قتالا مرا حتي بادوا ثم رجع الي المدينة منتظرا التحكيم . فاجتمع الحكمان ابو موسى الاشعرى عن علي وعمرو بن العاص عن معاوية فاتفقا علي ان يعتزل كلا الرجلين امر المسلمين وان يؤخذ رأى الناس فيمن يصلح للخلافة . فلم يقبل علي واصحابه هذا الحُكم واعتزم الزحف علي معاوية للفراغ من امره

فى ذلك الوقت اتفق ثلاثة رجال علي قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص بحجة انهم سبب هذه الحروب الاهلية التي كادت تقضي علي المسلمين ، وجعلا لتنفيذ جناياتهم يوما معينا . فاما قاتل علي فتمكن منه وهو خارج لصلاة الصبح وكان لا يتخذ حرسا . واما غريم معاوية فاصابه بالسيف فى عجيزته فلم يصبه كبير اذى . واما طالب عمرو بن العاص فقتل نائبه علي الصلاة لانه اتفق أن حدث له ما يمنعه فى ذلك اليوم عن الجماعة فاناب عنه احد رجاله

لما قُتل علي انتخب الناس للخلافة الحسن ابنه . فلما رأي المسلمين اصبحوا

فوضى ، وأن الحرب الاهلية تكاد تقضي على وحدتهم قبل ان يتنازل عن الخلافة لمعاوية بشرط ان يكون هو ولي عهده . فرضي معاوية هذا الحل واستتب له الامر واتخذ دمشق عاصمة المملكة مكان المدينة . ولبث خليفة عشرين سنة مات في اثنائها الحسن بن علي، فعهد بالخلافة الي ابنه يزيد وكان متهتكا فاسقا مدمنا للخمر فيه صفات اهل الجاهلية

فلما مات معاوية وتولي ابنه يزيد اعلنت المدينة عصيانها، وخرج عليه عبد الله بن الزبير بمكة ونودي به خليفة بها، وتبعته المدينة ومصر والعراق، وخرج عليه الحسين بن علي بالكوفة، فقاتله عامل يزيد وقتله وارسل اليه برأسه

ثم ارسل الي المدينة بأحد قواده فأوقع بأهلها شر ايقاع وقتل من اصحاب النبي بين قرشي وانصارى سبع مئة ، ومن غيرهم ممن كان معهم نحو عشرة آلاف. ثم قصد مكة ليلحقها بالمدينة فلم ينجح واتفق موت يزيد في تلك الاثناء فرجع قائده خائبا

فتولي بعد يزيد ابنه خالد وكان زاهدا عابدا ينكر على ابويه مافعلا فلم يلبث الا اربعين يوما ثم تنازل عن الخلافة. فولاها بنو امية مروان بن الحكم مستشار عثمان والسبب في قتله. فلم تطل مدته. وخلفه ابنه عبد الملك بن مروان . فأرسل قائده الحجاج ففتح له مكة وقتل عبد الله بن الزبير بعد ان ضربها بالمجانيق حتى هدم ركنا من أركان الكعبة . فاستتب الامر لعبد الملك ، وانقطعت الفتن الا بعض الخوارج في بعض الجهات فسحقهم الحجاج

ولما مات عبد الملك خلفه اولاده حتي انتهى الامر الى مروان بن محمد، فخرج عليه ابو مسلم الخراساني بخراسان داعيا الناس الي مبايعة ابي العباس السفاح من ذرية عبد الله بن عباس، فقاتله بنو امية فهزمهم فى كل مكان ، حتي تم له النصر . فبويع ابو العباس السفاح بالخلافة . وبه بدأت اسرة العباسيين

***

بعد هذا البيان نرجع لمناقشة الدكتور طه حسين فقد قال : « ولما تولى عثمان تقدمت الفكرة السياسية التي كانت تشغل اباسفيان خطوة اخرى»

والفكرة السياسية التي يذكرها الدكتور طه حسين وينسبها لابي سفيان هي ان

يعود السلطان لقريش الوثنية بعد ان صار للانصار وقريش المسلمة ، ولمكة بعد ان انتقل الي المدينة . ونحن في هذا المقام نعجب ونتساءل كيف وصل الى الدكتور طه حسين ان ابا سفيان كان يبطن هذه الامنية، ويتربص لها الفرص ، ولم يعلم ذلك النبي صلى الله عليه وسلم حين استصحبه فى حربه بالطائف، وحين ارسله لهدم بعض الاصنام، وحين ولاه على الصدقات بنجران، ولا عمر حين ارسله الي حرب اليرموك وقد ابلى فى كل ذلك بلاء حسنا حتي قلعت عيناه فى المعارك واصبح كفيفا يقوده غلام له الي حيث اراد ؟ وقد ولى عمر ابنه يزيد على الشام، فلما مات ابلغه خبر وفاته وعزاه . فسأله ابو سفيان عمن ولاه الشام بعده . فقال له عمر ولينا اخاه معاوية (يعنى ابنه الثاني) فشكر له ابو سفيان عنايته به وببنيه (ننبه القارىء ان اباسفيان كان له ابن اسمه يزيد وهو غير حفيده يزيد بن معاوية) .

فهل يعقل ان يعمي جميع معاصري ابي سفيان عن دخيلة امره ، وما يختلج من نوايا السوء فى صدره، فيولوه ويولوا اولاده الخطط الرفيعة ، ويملكوهم نواصي الجيوش والولايات ، ونطلع نحن بعد الف وثلاثمائة سنة على ما كان يخفيه فى اقصى احناء قلبه ، وأخفى ثنايا جوانحه ؟ هل حدث بذلك احدا فأفشاه بعد مماته ؟ هل خان الامانات التي عهدت اليه في حياة النبي أو بعد وفاته ؟ هل حمل جيشا على عصيان ، او اثار قبيلة على شق عصا للطاعة ، او خابر امة اجنبية لمساعدته ؟ او عهد الي ابنيه بتنفيذ مقاصده ؟ وقد تولى احدهما وهو يزيد بن ابي سفيان الشام ومات في حياة عمر ، ثم تولاها ابنه الآخر معاوية بن ابي سفيان ولبث بها واليا عشرين سنة وخليفة عشرين اخرى ، فلم يبد من احدهما مايدل على السعى لتحقيق هذه الامنية التي يلصقها الدكتور طه حسين بأبي سفيان بن حرب

يقول الدكتور طه حسين : « لما تولي عثمان تقدمت الفكرة السياسية التي كانت تشغل ابا سفيان خطوة اخرى »

ومعنى هذا انه كان هنالك تيار سياسى يتوقع اشتداده بتولى بنى امية الخلافة . فاذا كان ذلك صحيحا فكيف لا يفطن له بنو هاشم خاصة ، ولا تفطن له كذلك قريش عامة، فيولوا رجلا من تلك الاسرة الخلافة، ويمكنوه من قلب دولتهم رأسا على عقب؟

الم يتنازل له الحسن بن على عن الخلافة بعد مشاورة جمهور المهاجرين والانصار ؟ الم يصبروا على خلافته عشرين سنة لم يحرك فيها احد منهم ساكنا ؟ هل الامة التي ثارت على عثمان بن عفان الملقب بذى النورين لزواجه من ابنتين لرسول الله صلى الله عليه وسلم الواحدة بعد موت الاخرى ، وصاحب اليد البيضاء في الانفاق على الجيش الملقب بجيش العسرة ، والذى اجمع المسلمون بعد موت عمر على انه اولي الناس بالخلافة ، قلنا هل الامة التى ثارت عليه وقتلته تخضع لمعاوية بن ابي سفيان وليس له ماض مجيد في الاسلام، ولا سابقة حسنة تذكر له مع السابقات التى لغيره من الذين كانوا لا يزالون احياء ، فتتركه يدبر عود الجاهلية اليها ولا تفطن لما يعمله وما ينتويه من هذه الامور الجسام . اننا لاجل ان نصدق مثل هذا الخيال يجب علينا قبل ذلك ان ندع عقولنا جانبا ونجرى وراء كل خاطر يزينه لنا الوهم باسم تصيد اسباب اى امر كان

***

يقول الدكتور طه حسين : « فلم تصبح الخلافة بتولى عثمان في قريش فحسب، بل اصبحت في بنى امية خاصة ، واشتدت عصبية قريش ، واشتدت عصبية الامويين ، واشتدت العصبيات الاخرى بين العرب وكان من نتائج ذلك قتل عثمان وانتهاء الامر كله الى بنى امية »

ونحن نقول ان مصير الخلافة الي بنى امية لم يكن يعتبر شيئا يذكر في عهد الصحابة عامة و بنى هاشم خاصة . ولو كان يعتبر امرا يُعتد به لاحتاطوا له ، ولمنعوا وقوعه والسلطة فى ايديهم

ان هاشمية زيد واموية عمرو وقرشية بكر واعجمية خالد ، كانت فى عهد الصحابة معتبرة من الامور الجاهلية، وكانت هي والوثنية والتفاخر بالآباء في مستوى واحد . ألا ترى انه لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولى المسلمين ابا بكر وهو ليس من هاشم في شيء وتركوا ابن عم رسول الله على بن ابي طالب على هاشميته وكفايته، وقد احتج هو على ذلك وامتنع عن مبايعة ابي بكر وحمل امرأته بنت رسول الله على ان تطوف على جماعات الصحابة شاكية من هضم حق زوجها فلم يأبه

اشكاياتها احد ؟ فلما توفى ابو بكر ولوها عمر بن الخطاب وليس من هاشم في شيء ؟ ألا تدل هذه الحوادث المتكررة على ان المسلمين في ذلك العصر لم يكونوا يأبهون لمثل هذه السفاسف انقيادا لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وهوقوله: « اسمع وأطع ولو لعبد حبشي كأن رأسه زبيبة » مادام قد انتخبته الامة ليحكمها باسمها عملا بقوله صلى الله عليه وسلم : « مارآه المسلمون حسنا فهو حسن » و « لاتجتمع أمتي على ضلالة »

اما قول الدكتور : « واشتدت عصبية قريش » فليس بصحيح لانه لم يحدث ان قريشا في عهدعثمان سلبت من عداها حقا كان لهم، او خصت نفسها بمزية دونهم . فعلى اى دليل نستند للحكم عليها باشتداد العصبية ؟ هل ثار عليها ثائرون متهميها بهذه النقيصة ؟ هل استقلت بعض الولايات استثقالا لنير هذه القبيلة ؟

اما قوله واشتدت عصبية الامويين فهذاصحيح، وقد ظهرت هذه العصبية بمظهرها الطبيعي من توزيع الولايات على الاقارب والاشياع، ولكن لاتنس ان هذه العصبية قد لقيت جزاءها اذ ثار الناس على الخليفة فقتلوه واسندوا الخلافة لسواه . وهذا دليل على ان بنية المجتمع الاسلامى في ذلك العهد كانت لا تحتمل العصبية . فلما حدثت لفظتها لفظ النواة بارتكاب اقسي ماترتكبه امة لاصلاح مافسد، وهو الثورة

واما قوله واشتدت العصبيات الاخرى بين العرب، فليس بصحيح لعدم حدوث أى مظهر يدل عليه ، ومن أدل مظاهرها انفصام الرابطة العامة بين عناصر الامة وزوال الوحدة التي تجمعها ، كأن تستقل الاقاليم البعيدة عن المركز العام ، وتؤلف لنفسها حكومات خاصة بها . وكأن تقطع القبائل المتبدية العلاقات التى تصل بعضها ببعض وتربطها جميعا بالحكومة الرئيسية ، فتمتنع عن تادية ماعليها من الاموال قبل تلك الحكومة وتطرد عمالها . وكأن ينتدب بعضها لمقاتلة بعضها الآخر الخ الخ . هذا أدل مظهر على اشتداد العصبيات، فهل حصل شيء من ذلك ؟ لا ، بل تولي عثمان فرأينا القبائل والاقاليم المؤلفة للدولة الاسلامية على ما كانت عليه من الوحدة

الاجتماعية . وعبث مستشاره بتلك الولايات فأسندها الى اغيلمة لا يحسنون صناعة الحكم ، ولا سياسة الجماعات، فأثر ذلك في نفوس اهل الاقاليم وحملهم على احداث ثورة، ولكنه لم يحل رابطتها العامة، اى لم يولد فيها روح العصبية التي أظهر مظاهرها استقلال كل منها برأسه وعدم تعلقه بغيره، مع ان قتل عثمان كان يصلح ان يكون فرصة لحدوث تفكك عام فى اجزاء تلك المملكة الناشئة لو كان هنالك ظل من عصبية فضلا عن عصبية شديدة

ثم لما تولى على بن ابي طالب لم تتأثر تلك الوحدة بل زادت وضوحا وتماسكا رغما عن عصيان معاوية ، وخروج عائشة وطلحة والزبير والخوارج على الخليفة الجديد

نعم زادت تلك الوحدة وضوحا وتماسكا دلت عليها تلك الفتن الأهلية نفسها. فان الجنود والقواد الذين اشتركوا فى هذه الفتن لم يكونوا جماعات متجانسة جمعتهم العصبية القبيلية ، ولكن فئات جمعتها المذاهب السياسية . فالجنود والقواد الذين انتصروا لمعاوية لم يكن فيهم بنو امية الا كقطرة في بحر لأن بني امية اجمعين ابناء اسرة واحدة قد لا يبلغون المئتين عدا ، ولكن الجيوش الجرارة التي تحزبت لمعاوية كانوا من قبائل شتي جمعها المذهب السياسي لا العصبية القبيلية

وكذلك تحزب لعلى بن ابي طالب الانصار جميعهم وهم بنو الاوس والخزرج من القبائل اليمنية، وعشرات الالوف من الجنود من قبائل شتي كان القرشيون فيهم لا يبلغون جزءا من مئة

وكذلك الجيش الذى لبي دعوة عائشة وطلحة والزبير . كان اكثره من العراق قاموا يطالبون بقتلى عثمان الاموى (تأمل) وليس فيهم واحد من الامويين. بل ولم تك عائشة ولا طلحة ولا الزبير يمتون لعثمان بأقل قرابة

وكذلك الخوارج الذين خرجوا على علىّ بن ابي طالب وقاتلوه عند النهروان كانوا خليطا من قبائل متفرقة

فهل تريد دليلا اقوى من هذا على ان روح العصبية القبيلية كانت مُحقت بتأثير الاسلام وحلت محلها وحدة جامعة لا تتأثر الا من وجهة الآراء والمذاهب السياسية

كما تتأثربها كل امة في الارض الى اليوم

فان كان الدكتورطه حسين يستنتج اشتداد العصبيات من صدور قصائدمن شعراء في الافتخار بقبائلهم، اومن اغراء زعيم فاجر لبعض الشعراء على ذم بعض العناصر المكونة للمجموع الاسلامي، فان هذا لا يصح ان يعبر عنه في علم الاجتماع باشتداد العصبيات، لانها امور شخصية لا يتعدي تأثيرها الافراد، ومثلها يوجد في كل امة وفي كل جيل من الناس، وانما يُعنى علم الاجتماع بما يؤثر على المجموع فيعمل على تفكيكه او يحدث أعراضا خاصة مستقلة عن اعراض العلل العامة. فالتألب على قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، يُنظر فيه، فان كان الباعث عليه انه اموي كان ذلك من آثار العصبية. وان كان الحامل عليه امور عامة تهم المجموع، فلا يكون من آثار العصبية، بل من آثار الغيرة على الحقوق والكرامة العامة. فلننظر فيه نظرة اجتماعية، لتحديد عوامله الحقيقية :

يقول الدكتور طه حسين : « كان من نتائج اشتداد العصبيات قتل عثمان وانتهاء الامر كله الي بني امية »

ونحن نقول ان الناظر لهذا الاجمال يخيل اليه ان امر المسلمين في عهد عثمان اصبح كله تابعا لعوامل العصبيات الجاهلية التي تكون بين الامم المنحلة او التي على وشك ان تزايلها روح الوحدة الاجتماعية، وان قتل عثمان كان بسبب انه من بني امية لا لسبب آخر من الاسباب التي تدفع الامم الحية الي الثورة. فلازالة ماعسي ان يعلق بالاذهان من هذا الخطأ التاريخي الخطير، وما يندس في الصدور من تحقير ذلك المجتمع الناشيء، رأينا ان نكشف العوامل الحقيقية لهذه الثورة ونبين نتائجها على الاسلوب العلمي انصافا لتلك الدولة التي اُعدت لاحداث اكبر الانقلابات الاجتماعية والعلمية والمدنية في الارض فنقول :

تولى عثمان الخلافة بانتخاب المؤتمر الذي دعا اليه عمر وهو يجود بنفسه. ولم ينظر في تعيينه انه من بني امية او من بني هاشم او من غيرهما بل نظر الي كفايته. يدل على ذلك ان الذين انتخبوه لم يكونوا امويين وقد بايعه الناس كافة مرتاحين الي ولايته، ومستبشرين بامامته، باعتبار انه من اصحاب السابقات الحسنة، والماضي

الحافل بجلائل الاعمال . فاتفق انه كان من ضعف الارادة بحيث تغلب عليه قريب له يدعى مروان بن الحكم وهو واحد من الذين عضوا على الوثنية بالنواجذ حتى فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة ومنَّ على مشركيها بالعفو العام فدخلوا في الاسلام حقنا لدمائهم ، وربهم اعلم بنياتهم

استولى مروان على ارادة عثمان فاحدث احداثا رآها الناس من احكام الجاهلية فنقموا على الخليفة وكرهوا حكومته . ونحن نؤاتيك بالوجوه التي نقم الناس عليه من اجلها منقولة من كتاب الامامة والسياسة لابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة (٢٧٠) للهجرة صفحة ٣٦ من الطبعة الثانية قال :

« اجتمع ناس من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وكتبوا كتابا (يريد ان يقول نشروا بيانا عن الحالة) ذكروا فيه ماخالف فيه عثمان من سنة رسول الله وسنة صاحبيه وما كان من هبته خمس افريقية لمروان وفيه حق الله ورسوله ، ومنهم ذوو القربي واليتامى والمساكين ، وما كان من تطاوله فى البنيان حتي عدوا سبع دور بناها بالمدينة، دارا لنائلة ودارا لعائشة وغيرهما من اهله وبناته ، وبنيان مروان القصور بذي خشب ، وعمارة الاموال بهما من الخمس الواجب لله ولرسوله ، وما كان من افشائه العمل والولايات في اهله وبنى عمه من بنى امية احداث وغلمة لا صحبة لهم من الرسول ولا تجربة لهم بالامور . وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة اذ صلى بهم الصبح وهو اميرعليها سكران اربع ركعات ثم قال لهم ان شئتم ان ازيدكم ركعة زدتكم . وتعطيله اقامة الحد عليه وتأخيره ذلك عنه ، وتركه المهاجرين والانصار لا يستعملهم على شيء ولا يستشيرهم ، واستغنى عن رأيه برأيهم وما كان من الحمي الذى حمي حول المدينة . وما كان من ادراره القطائع والارزاق والاعطيات على اقوام بالمدينة ليست لهم صحبة من النبي عليه السلام ثم لا يغزون ولا يذبون . وما كان من مجاوزته الخيزران (فى اقامة الحدود) الى السوط وانه اول من ضرب بالسياط ظهور الناس ، وانما كان ضرب الخليفتين قبله بالدرة والخيزران » انتهى

هذا ما نقمه الناس على عثمان ، وهو مالم يعهدوه منذ تولى امرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خليفتاه من بعده ، فكان الصبر عليه فوق ماصبروا من اول عهد عثمان

مما لاسبيل اليه . فانتشر التذمر فى الولايات ، وعم القلق والاضطراب جميع البلاد وانتدب قوم من مصر والكوفة للشخوص الي المدينة لوضع حد بالقوة لهذه الحالة السيئة . فأقبل الف رجل من الكوفة واربع مئة من مصر وحصروا عثمان فى داره فدخل الدار معه مئة رجل من قبائل شتي منهم عبد الله بن الزبير والحسن بن على وعبد الله بن سلام وابو هريرة والمغيرة بن شعبة وغيرهم . وكان ينصره خارج الدار رجال آخرون. وكان لايود رجل يعتد به في المدينةان يصيبيه اذى وان كان الجميع يودون أن يعتزل أو يستقيم . فحدث منه ما غير جميع القلوب عليه ، وذلك انه كان ولى على مصر رجلا من الذين كان استباح النبي صلى الله عليه وسلم دمه اسوء اثره في مناهضة الاسلام والمسلمين، فاختفى ثم ظهر بعد وفاته، وهو عبد الله بن ابي سرح، فسلك في مصر سيرة الجبارين العاتين فأوفد اهلها رجالا منهم الى عثمان يشكونه اليه ويرجونه ان يبدل به سواه . فلبي طلبهم وولي مكانه محمد بن ابي بكر فخرج فى جماعة من المهاجرين والانصار ، فلما كانوا على مسيرة ثلاث ليال من المدينة صادفوا غلاما اسود يُغذ السير على بعير فاستوقفوه وسألوه عن نفسه فاضطرب في الجواب ، وكان يقول تارة انه غلام عثمان ، وطورا انه غلام مروان بن الحكم . ولما فتشوه وجدوا معه كتابا بختم عثمان الي عبد الله بن ابي سرح فقرأوه فاذا فيه : « اذا اتاك محمد بن ابي بكر وفلان وفلان فاقتلهم وأبطل كتابهم وأقر على عملك حتى يأتيك رأيي » ففزعوا مما قرأوا ورجعوا الي المدينة وعرضوا على كبرائها الكتاب، فلم يبق احد الا حنق على عثمان وتركوا الثائرين يفعلون ما بدالهم. فشددوا عليه الحصار ومنعوه الماء وطلبوا اليه ان يسلم اليهم مروان بن الحكم الذى اتهموه بانه كاتب هذا الكتاب. فلم يقبل عثمان ان يسلمه و بيناهم على تلك الحال اذ بلغهم ان معاوية بن ابي سفيان قد ارسل اليه مددا اربعة آلاف رجل فحملهم ذلك على الاسراع فى الانتهاء منه ، فاحرقوا الباب واقتحموا عليه الدار وقتلوه . فانهال الناس علي علي بن ابي طالب من كل مكان يعرضون عليه الخلافة فابي فما زالوا به حتي قبلها. فكان ما كان مما ذكرناه في الفذلكة التاريخية السابقة

فماذا يري القارىء فى هذه الحادثة الاجتماعية غير ثورة قومية علي حكومة غاشمة

استبدادية ؟ اين اثر العصبية من عوامل هذه الثورة ، وقد قام بها رجال من قبائل شتي لا تجمعهم غير الوحدة السياسية، والمصلحة الاجتماعية ؟

ان من الامور التي نقمها المسلمون على عثمان عصبيته الاموية ، وعدم مساواته بين الناس في الحقوق المدنية ، فكيف يقال ان الذى بعث اليها هي العصبية ، وان الذى سبب قتل عثمان هي العصبية ؟ اللهم الا ان قيل انها هي العصبية التي ظهر بها بنو امية ، ونفرت منها تلك الهيئة الاجتماعية

اننا في هذا المقام لا نتمالك انفسنا من الدهش العظيم من استعصاء تلك الوحدة التي اوجدها الاسلام للعرب على المحللات ، حتي انها قاومت جميع عوامل التحليل وتغلبت عليها ، وقد كان العرب يضرب بهم المثل في الفرقة والعصبية ؟

نعم نرى مايوجب الدهش والحيرة . نرى قبائل كانت بالامس في حالة تفكك لا يرجي له التئام لكل منها تاريخ خاص ، ومآثر قائمة على النكاية بمن حولها من بني جنسها، ومفاخر مؤسسة على سفك دمائها ، واجتياح ثمراتها ، وقد مر عليها في هذا الدور من التدابر مئات بل الوف من السنين ، تظهر في عهد الاسلام كتلة مندمجة تستعصى على جميع عوامل التحليل ، فلا يؤثر فيها مايؤثر بعضه في الامم ، ثم تخرج من جميع هذه الادوار كتلة مندمجة كما كانت فتحدث في العالم ذلك الحدث الضخم الذى قلب الارض ومن عليها من حال الي حال اخرى . لعمرى ان هذا لأعجب مارأيناه في تطورات الامم . فلا يصح ان ترمى العناصر المؤلفة لهذه الامة بالعصبية ، بل يجب ان ينوه بالتضحيات العظيمة التي بذلتها لاماتة العصبية ، مما لم يعهد له مثيل في تاريخ الهيئات الاجتماعية ، على هذا النحو من الانتقالات الفجائية

ولقد اثبتت هذه الثورة التي انتهت بقتل الخليفة الثالث على ان الاصول التي كانت تقوم عليها الجماعة الاسلامية الاولي خير الاصول الاجتماعية ، كما يدل على ذلك نص البيان الذى وُجه الى الامة ونقلناه في الصحف المتقدمة

لقد كان ايسر على العرب واشبه بما كانوا عليه منذ قليل ان ينتهزوا هذه الفرصة النادرة من اختلال الحكومة الرئيسية فتستقل كل ولاية بنفسها ، وكل قبيلة برأسها

وتخلص من ولاة السوء ، وعمال الفساد ، ولكن الوحدة التي صبها الاسلام في قالبها كانت من الاندماج والتماسك بحيث آثرت هذه الولايات والقبائل ان تخاطر بنفسها واموالها لاصلاح الحكومة المركزية على ان تحدث حدثا يكون من ورائه تفكك روابطها الاجتماعية ، كأنها امة عريقة في الوحدة القومية ، اصيلة في النزعة الوطنية

***

يقول الدكتور طه حسين : « وعاد العرب الي شر مما كانوا فيه من التنافس في جميع الامصار الاسلامية ، ويكفي ان اقص عليك ما كان من تنافس الشعراء من الانصار وغيرهم عند معاوية ويزيد ابنه »

ونحن نقول : ان عبارة وعاد العرب الي شر مما كانوا فيه من التنافس في جميع الامصار الاسلامية فيها قسط كبير من المبالغة الشعرية . لاننا نعلم وكل الناس يعلمون ان العرب قبل البعثة المحمدية كانوا على أشد مايكونون من التفرق والتفكك. كل بلادهم العامرة الخصبة كانت واقعة تحت النير الاجنبي ، وكانت قبائلهم في وسط بلادهم على حالة من التناحر لا تبقي ولا تذر. فلا يعقل انهم يكونون بعد مقتل عثمان قد عادوا الى مثل هذا او شر منه . وما حدا بالدكتور طه حسين الى مثل هذه المبالغة الا قصر نظره على اخبار الشعراء ، واتخاذه ما حدث بين بعضهم والبعض الآخر اساسا للحكم على هيئة اجتماعية ناشئة في حالة تطور تعمل فيها عوامل من انواع شتي لاستجاشة ما كمن من خصائصها المعنوية والمادية . ولكن اخبار الشعراء واهل البطالة ممن يستمعون لهم او يشترون ضمائرهم ، مما يحشوه مؤلفو كتب المحاضرات كالاغاني والعقد الفريد والبيان والتبيين وغيرها ويحيطونه بجو من التهويل والبهتان لا يصح ان يعتبر ميزانا تقدر به الامور الاجتماعية

انا لا انكر انه كان تنافس بين العناصر المؤلفة للمجموع الاسلامي في ذلك العهد ، ولكني ارى ان هذا التنافس في ذلك الجيل من الناس كان مظهرا من مظاهر الحياة والحركة النفسية اللتين لا تتجرد منه امة في حالة نمو وتطور . فماذا انت قائل لو قرأت جرائد الاحزاب المتعارضة لامة من الامم المتمدينة المعاصرة لنا ، وكل منها ترفع

الحزب الذى تنتمي اليه الى ارفع مما يبلغه التصور وتحط من قيمة الاحزاب الاخرى حطا لاتراعي فيه الا ولا ذمة . هل تُسَوِّغ لك هذه النظرة السطحية ان تقول ان هذه الامم قد مزقتها العصبيات ، وفرقتها المنافسات وانها لاتلبث ان تنحل انحلالا لادواء له ؟ لا . لأن الوحدة الاجتماعية متى استحكمت تنقلب الى مايشبه الاندماج المادى فلا تتفكك من تلقاء نفسها بأى عامل من العوامل الذاتية ، ولا بد لتفكيكها من عوامل خارجية تقهرها على قبول هذه الحالة . ولكنها تعود الى الوحدة متى زال عنها ذلك العامل الخارجي

نعم قد يحدث ان تستقل بعض اجزاء الامة عن بعضها الآخر بسبب فتنة داخلية ولكن تلك الاجزاء تميل دائما للالتئام ، و يظهر ذلك الميل بميل بعضها الى ادخال البعض الآخر فى حظيرته بالقوة ، ولا تزال تلك الاجزاء بين جذب ودفع حتى يتم الامر برجوع وحدتها اليها

مثال ذلك الامة الاسلامية نفسها في اول تكونها فانها بعد ان انصب مجموعها فى قالب الوحدة الاجتماعية بتشابك مصالحها المادية والمعنوية حدثت فيها احداث كان يكفى بعضها لان يرجعها الى تفككها الاول ؟ وتلك الاحداث كاستئثار القرشيين بالحكم بعد النبي صلى الله عليه وسلم على منافاة الاسلام نفسه لهذا الاستئثار ، فلم يسع الانصار الا تضحية منفعتهم في سبيل الوحدة فخضعوا لرأى مناظريهم ، وفي مستقر عزمهم وصولتهم . ثم حدثت فتنة ارتداد القبائل العربية بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ،فدفعت طبيعة الوحدة الاجتماعية الطائفة التي هي نواتها الاصلية الى اخضاع ما شذ عنها بالقوة فتم لها الغلب

ولما قتل عمر وتولى الخلافة عثمان وكرهت الناس حكومته واضطربت احوال الاقاليم ، كانت هذه الفوضى تكفى لتفكيك عرى تلك الوحدة الناشئة ان كانت مصطنعة . ولكن شيئا من ذلك لم يكن ، بل حدثت ثورة ردت الامر الي نصابه

ولما انتخب على بن أبي طالب للخلافة وخرج عليه معاوية وعائشة وطلحة والزبير والخوارج لم يدعهم وشأنهم ، بل انتدب لاعادة الوحدة الى حالتها ، فتغلب على

جميع الخارجين عليه الا معاوية ولو عمَّر قليلا لتغلب عليه او لخضع له فى سبيل الوحدة العامة

فلما تولى الحسن بن على كانت الفرصة سانحة لتفكك تلك الوحدة ولكنها لم تحدث بل ضحي ذلك الامير بمصلحته الشخصية ، وتنازل عن الملك لمعاوية صيانة لتلك الوحدة

ولما مات معاوية وتولي الامر ابنه يزيد،وكان متهتكا ساقطا،فشعرالمجموع بأن التضحية فى الخضوع لهذا الطاغية تفضى الي أسوأ النتائج فتفككت الوحدة الاجتماعية فخرجت المدينة ومكة ومصر والعراق . وتعدد الدعاة الى انفسهم ولكن طبيعة الوحدة اضطرت هذا المترف للعمل على اخضاع الخارجين فأتم اخضاع المدينة ومات وهو يجد في اخضاع مكة

ولما خلفه ابنه خالد ومروان بن الحكم لم يتمكنا من ارجاع الوحدة الي ما كانت عليه لتنازل الاول بعد ايام ولموت الثاني بعد قليل من ولايته . فلما خلفه ابنه عبد الملك سعي لهذا الامر سعيه فرجعت الوحدة لتماسكها الاول واستقرت على تلك الحالة

هذه طبيعة كل وحدة اجتماعية تقوم على اساس ثابت ، وايمان صحيح

بقيت مسألة المنافسات الشعرية التى يصادفها القارىء في كتب المحاضرات محاطة بلفائف من التلفيقات والتهويلات ، وهي ليست بشيء سوى اعراض ملازمة لكل مجتمع انساني قريب عهد بالحياة القبيلية

على ان النظرة السطحية في تلك الحكايات تريك انها ملفقة تلفيقا خاليا من كل مهارة وذوق

مثال ذلك ما نقله الدكتور طه حسين ان عبد الرحمن بن حسان شبب برملة بنت معاوية نكاية فيه وتبعا لذلك نكاية فى ابنه يزيد اخيها الذى يقول عنه الدكتور طه حسين انه كجده ابي سفيان في انه كان مطبوعا علي القوة والجاهلية والفتك . قال الدكتور فاصطنع معاوية الحلم وقال له اين انت من أختها هند ؟

لعمرى انه يجب ان يكون لدى القاريء قسط غير قليل من البله ليستطيع ان يصدق ان معاوية بن ابي سفيان زعيم قريش وامير المؤمنين يقابل شاعرا فاسقا ساقط المنزلة ينتهك حرمته بأشنع ماياًنف منه الرجل الساذج بَلْه الشريف العظيم بمثل هذا الدم البارد ، ويغريه بالتغزل باختها اى بابنته الثانية . فأين كان يزيد الذى يوصف بالقوة والفتك ليدافع عن كرامة اخته ، ويحمي عرضها من لسان رجل لا فى العير ولا فى النفير ؟

ولا ننسى هنا ان نقول في هذه المناسبة ان الدكتور يصف يزيد بانه كان صورة بجده ابي سفيان في العصبية والفتك والسخط على الاسلام . ولكن المعروف بالاجماع ان ابا سفيان أسلم وهدم بعض الاصنام وأبلى في المعارك لنصر الاسلام بلاء حسنا حتي فقد كلتا عينيه ، وانه وُلي لامانته وصدق عزيمته على صدقات نجران باليمن فأدى كل ماعهد اليه بجد وباستقامة حتى توفاه الله . فمن اين استنتج الدكتور طه حسين انه كان رجل عصبية وقوة وفتك وانه كان يكره الاسلام وما سنه للناس من سنن ؟ لعمرى لو صح ان نفسيته كانت على ما يصفها به الدكتور طه حسين مع سلوكه هذه السيرة حيال النبي صلى الله عليه وسلم ، وحيال الاسلام ، وحيال الوثنية ، وحيال انصار الجاهلية ، لوجب ان نصم ابا سفيان هذا بأنه كان اجبن الجبناء ، واضعف المنافقين ، واخس من مشى على الغبراء

***

يقول الدكتور طه حسين : « ولقد يستطيع الكاتب السياسى ان يضع كتابا ضخما في هذه العصبية بين قريش والانصار وما كان لها من التأثير في حياة المسلمين ايام بنى امية ، لا نقول فى المدينة ومكة ودمشق بل نقول في مصر وافريقيا والاندلس ويستطيع الكاتب في تاريخ الادب ان يضع سفرا مستقلا فيما كان لهذه العصبية بين قريش والانصار من التأثير في شعر الفريقين الذي قالوه في الاسلام ، وفي الشعر الذى انتحله الفريقان على شعرائهما في الجاهلية وقد تجاوزت العصبية هؤلاء الى العرب كافة فتعصبت العدنانية على اليمانية ، وتعصبت مضر على بقية عدنان ، وتعصبت ربيعة على مضر ، وانقسمت مضر نفسها فكانت فيها العصبية القيسية والتميمية

والقرشية ، وانقسمت ربيعة فكانت فيها عصبية تغلب وعصبية بكر . وقل مثل ذلك في اليمن فقد كانت للازد عصبيتها ولحمير عصبيتها ولقضاعة عصبيتها . وانت تعلم حق العلم ان هذه العصبيات هي التي ازالت سلطان بني امية لانهم عدلوا عن سياسة النبي التي تريد محو العصبيات ، وارادوا ان يعتزوا بفريق من العرب على فريق . فقووا العصبية ثم عجزوا عن ضبطها فادالت منهم بل أدالت من العرب للفرس »

ونحن نقول ان مؤدى هذا الكلام ان العصبية الجاهلية التي اماتها الاسلام عادت ففشت في العرب بين قبائلهم الكبري وطمت حتى فرقت بين بطون وافخاذ تلك القبائل فاصبح الكافة على شر مما كانوا عليه من الانقسام والتدابر. ولكن الكاتب السياسي الذي يذكره الدكتور طه حسين لا يستطيع ان يقيم لهذا الكلام وزنا لانه يرى النتائج المحسوسة لا تتفق وهذه المقدمات المفروضة . وهو ليس لديه من ميزان لتقدير قيمة العوامل الاجتماعية التي عملت في امة من الامم السابقة ، ولا من محك لتمييز صالحها من فاسدها غير ثمرات الجهود التي بذلتها تلك الأمة . فهي الشاهد الذي لا يكذب المؤرخ المحقق ، وهي الواقع الذي لا معدل عنه الى غيره في الحكم على جيل من الناس تختلف الاقوال في امره

فماذا يرى السياسي من الامور الواقعية في عهد الدولة الاموية منذ استقام الامر لعبد الملك بن مروان الي انقضاء دولة بني امية سنة (١٣٢ هـ) ؟

يري امرين لا سبيل الى انكارهما : (اولهما) استمرار الوحدة الاجتماعية في الامة العربية . و (ثانيهما) اتساع المملكة الاسلامية في عهدها الى حد لم تدركه دولة قبلها

ولكن كتب المحاضرات كالاغاني والعقد الفريد والبيان والتبيين وغيرها تذكر لنا حكايات عن الشعراء والادباء قد اختلق اكثرها المختلقون ، ومَوّه ماصح منها المموهون ، فيقرأها القارىء اليوم فيخيل اليه ان العصبية الجاهلية ، واختلاف الاهواء القبيلية كانت قد بلغت من الامة الاسلامية في العصر الاموى الي حد ليس بعده غاية ، ثم يلقى بنظره على التاريخ فيجد ان الامة الاسلامية في ذلك العهد نفسه

قد بلغت من الملك الي مدى لم تستطع الدول التي جاءت بعدها ان تزيد عليه شبرا واحدا . فاذا كانت العصبيات قد وصلت الى الحد الذى تخيله لنا حكايات الشعراء في العصر الاموى فكيف تبقى معها وحدة اجتماعية ؟ واذا كانت الوحدة الاجتماعية قد تفككت عراها باشتداد تلك العصبيات فكيف نمت قوى الامة وفاضت حتي امتدت الي خارج بلادها و بسطت سلطانها على امم قوية لم تحمل نير امة قبلها قط؟

هنا يجب علينا ان ننبه الذين يقرأون الكتب الادبية المؤلفة في العهد العباسي وهو ما بين القرن الثاني الي السابع الهجرى الى امر جدير بالنظر . وهو ان العباسيين كانوا يكرهون الامويين و يحقدون عليهم الي حد انهم نبشوا قبور خلفائهم واخرجوا هياكلها العظمية وصلبوها على قارعات الطرق ثم احرقوها وذرّوها في الهواء . وكان الذى يذكر للامويين حسنة يتهم بانه مشايع لهم فيذيقونه ألوان العذاب . وكثيرا ما كان مؤلفو المحاضرات يختلقون الاكاذيب على الامويين ليتقربوا بها الي اصحاب الدولة في العهد العباسي . فكل ما يروى من المذام في الدولة الاموية في كتب المحاضرات يجب ان يؤخذ بتحفظ. واذا كان هذا فيما يتصل باخبار الخلفاء والوزراء واهل الدولة التى يمكن الاستدلال علي حقيقتها من التاريخ ، فما ظنك بما لا شاهد عليه من التاريخ كاخبار الشعراء ، ونوادر الادباء، وحوادث القبائل البعيدة عن كتاب تلك المحاضرات . أفلا يحسن بنا ان نطبق اسلوب ديكارت على هذه الاقاصيص فلا نغلو في اعتبارها مصادر جديرة بالثقة المطلقة فى حين ان الواقع يكذبها وحوادث التاريخ تشهد ببطلانها

***

يقول الدكتور طه حسين : « فاُدالت هذه العصبيات من بني امية ، بل أدالت من العرب للفرس »

يريد الدكتور طه حسين بقوله بل أدالت من العرب للفرس ان الفرس صارت لهم الدولة على العرب بتغلب رجال منهم على الخلفاء كبني بُوَيْه الذين تغلبوا على الخلفاء العباسيين وكغيرهم من الذين توزعوا الممالك الاسلامية وحكموها باسم الخلافة ظاهرا ،

اما باطنا فكانوا اصحاب الحل والعقد في جميع الممالك الاسلامية

وهذا الكلام خطأ من الوجهة الاسلامية الدينية ، ومن الوجهة الاجتماعية ، فاما من الوجهة الاسلامية الدينية فان الاسلام جاء معلنا وحدة النوع البشرى كله ، فلم يعتد بالفوارق الجنسية ، ولا بالمميزات الاجتماعية لقوله تعالى : « ياايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عندالله اتقاكم ان الله عليم خبير » وقد اعطي النبي صلى الله عليه وسلم مثالا من هذه الوحدة العامة فولي المدينة رجالا ذوي جنسيات مختلفة بين رومية وفارسية وحبشية كصهيب وسلمان وبلال . وولى على اليمن الهرمزان وهو فارسي الاصل

والفرس الذين حكموا العرب كانوا مسلمين مثلهم وقد حذقوا العربية حتى صاروا اعلم بها من ابنائها ، واتقنوا العلوم الدينية حتي صاروا ائمتها وحفظتها

فالمسلمون في هذا الموطن لا يقولون ان الفرس حكموا العرب لانه لاجنسية فى الاسلام وانما يقولون انه قد حكمهم اصلحهم للحكم غير ناظرين الى شيء من الفوارق الوهمية التي اوجدتها العصبيات الجاهلية

اما خطأ الدكتور طه حسين من الوجهة الاجتماعية فلا يحتاج لكبير تأمل فان العلم لا يعنيه فى تقدير العناصر المؤلفة للجماعات الاجناس والالوان ، وانما يعنيه الروح المحرك للمجتمع ، والاصل الذى يقوم عليه بناؤه ، والغاية التي تتجه اليها الميول العامة. فاذا نظرنا من هذه الوجهة الي العرب والفرس بعد دخولهم في الاسلام نجد الاخيرين قد فنوا فى الاولين فناء لم تعد معه جنسيتهم بمغنية عنهم شيئا . فقد تسموا باسماء عربية ، واتقنوا لغة القرآن حتى اصبحوا اكبر حفظتها ، وتبحروا فى العلوم الاسلامية حتي صاروا اعظم أئمتها ، وانقلبوا اغير على القرآن والعربية والاسلام منهم على اعز شيء لديهم . فلا يقال لمثل هؤلاء ان سبقوا العرب الى عروش المملكيات ، ودسوت الوزارات انه قد صارت لهم الدولة على العرب ، بل يقال انهم قد فنوا فيهم واضاعوا شخصيتهم الفارسية ، واضحوا اعضاء فى مجتمع انساني محض ليس فيه اعتبار للجنسيات واللغات والالوان. وتغلبهم على العرب فى الحكم لم يتم لهم بفضل جنسيتهم ، ولا لغتهم ، ولا روحهم الفارسية ولكن بفضل مبدأ اللاجنسية الذى قرره الاسلام ،

وبفضل لغة القرآن وروح الوحدة العامة التي أتي بها محمد عليه السلام . فلا يصح بعد هذا ان يقال مثل ما يقول الدكتور طه حسين (بل قد اديل من العرب للفرس) وانما يقال تسابق الاخوان لتولى الحكم وزعامة العلم فسبق احدهما الآخر لمرانه عليها وتبريزه فيهما على جميع العناصر المكونة للمجتمع الاسلامى . ولم تحس بنية العالم الاسلامى بأى اضطراب من جراء تغلب بعض العناصر على بعضها الآخر في تولي الحكم وفي قيادة الارواح والعقول بالتبريز في علوم الدين واللغة ، لعدم وجود المقتضي لذلك في مجتمع تقرر فيه مبدأ اللاجنسية .

* * *

يقول الدكتور طه حسين : « واذا كان هذا تأثير العصبية في الحياة السياسية فانت تستطيع ان تتصور هذه القبائل العربية في هذا الجهاد السياسى العنيف تحرص كل واحدة منها على ان يكون قديمها في الجاهلية خير قديم . وقد ضاع الشعر الجاهلى بموت رواته في الحروب ، وهذه القبائل فى حاجة الي الشعر تقدمه وقودا لهذه العصبية المضطرمة ، فاستكثرت من هذا الشعر ونحلته شعراءها القدماء »

ونحن نقول ان العصبية لم يكن لها تأثير في الحياة السياسية لدى العرب الاولين كما اثبتنا ذلك بتوسع في كلامنا السابق . فكل الذى امامنا هو أن احد الولاة وهو معاوية خرج على الخليفة القائم بالامر محفوزا بمطامع طافت برأسه انتحل لها سببا مزورا ، فلم يطل عمر ذلك الخليفة حتى خمدت ثورة معاوية فاتفق كبار الصحابة على تولية ابنه الخلافة . فرأى هذا ان حقن دماء المسلمين اولى من التمسك بحقه في الخلافة فتنازل عنها لخصمه وخصم ابيه ، وقبل هذا التنازل جميع المسلمين . فلو كان للعصبية سلطان فيما نحن بصدده لتجددت العداوة بين معاوية والحسن

فلما تولى يزيد بن معاوية لم يطق العالم الاسلامى ان يحمل نير هذا الطاغية لفسقه وفجوره ، وكان الحسن قد مات ، فخرج عليه الحسين بن على وعبد الله بن الزبير ، لا لأنه من بنى امية ولكن لعدم صلاحيته للخلافة . فلما مات يزيد خلفه ابنه خالد ثم قريبه مروان بن الحكم ، فلم يطل عهدهما . ولما تولى عبد الملك بن مروان تمكن بواسطة قائده الحجاج بن يوسف الثقفى ، ولم يكن من بنى امية ، من اخضاع المنشقين واستقام له الامر وورثه ابناؤه وابناء أبنائه فاتسعت مملكة المسلمين في عهدهم حتى صارت

اكبر من مملكة الاسكندر المقدوني ، فأى تأثير للعصبية المزعومة في هذه الحياة السياسية المركزة ؟

فاذا كانت القبائل في ذلك الوقت تنتحل الشعر فلم يك ذلك لاسباب سياسية ولكن لاسباب اخري معقولة ، وهي الاشادة بذكر آبائها لاثبات اصالتها في العلم والادب وعراقتها في الفضيلة والحسب ـ وهذه العوامل تكفى لتعليل كل الاكاذيب والتلفيقات التي عثر عليها الدكتور طه حسين وغيره في كتب المحاضرات . اما تطرف شعراء بعضها لذكر مثالب بعضها الآخر فله سبب ليس منه العصبية ولا السياسة في شيء . وهو أن الذى اجترأ على ذلك هم الشعراء ، والشعراء فى الاجيال السالفة كانوا من طائفة المتسولين ، حتي ان أشراف القبائل كانوا يأنفون من قول الشعر ترفعا من ان ينتسبوا لتلك الفئة التي كانت تعتبر ساقطة فى نظرهم . فقد روى ان حجرا ابا امرىء القيس انف ان يقول ابنه الشعر واستتابه مرارا فلما اعياه امره امر بقتله فرحمه الموكل به واطلقه يجوز ان تكون حكاية امرىء القيس هذه ملفقة ولكن الثابت المقرر ان اشراف الناس كانوا يأنفون من قول الشعر . وقد عده الصدر الاول مزريا بأهل العلم فقال الامام الشافعي :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم اشعر من لبيد

ومثل هذه الطائفة التي كانت تتخذ الشعر وسيلة للارتزاق لم يكن لها حريجة من دين ولا من عقل ولا من اخلاق ، فكانت ترمى القول جزافا وتسرف فيه اسرافا . حتي ان عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة في آخر القرن الاول قصده الشعراء بمدائحهم فحجبهم عنه ، فلما الح عليه ابن أرطاة في ادخالهم انشد لكل منهم بيتين او ثلاثة فيها ما يؤخذ على قائله ، وأقسم ان لا يدخل عليه . حتى انتهى الي جرير فأنشد له قوله :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام

ثم قال لا بأس بهذا ، فليدخل

فلا يصح لنا ان نقف انفسنا لتصيد اقوال صدرت من هذه الطائفة فنؤوله تأويلا ، ونوجهه توجيها ، ونعتصره اعتصارا لنستخرج منه تاريخا للعصبية عند

العرب ، تلك العصبية التي لو صحت لتمزقت وحدة المسلمين شذر مذر ، ولم يبق لنا عنهم اليوم عين ولا اثر . وقد اثبتنا لك ان تلك الوحدة قد عجزت كل العوامل المحاولة عن العبث بها ، وقد انتابتها على وجوه شتى

ان شئت ان اعطيك مثالا محسوسا من ذلك فانظر الي الشعراء جرير والفرزدق والأخطل وهم يتهاجون ، تجد أن كل واحد منهم قد سب قبيلة خصمه وألصق بها اشد ما يتصوره العقل من المخازي ، ولم يكن ذلك لسبب سياسي . فكذلك فعلت طبقات الشعراء الذين تقدموهم ، وطبقات الشعراء الذين خلفوهم

وهذا لا يمنع ان بعض الرؤساء يكون قد اوعز الي شاعر بهجاء قبيلة ، حمله على ذلك حقده على سيدها ، او غرض آخر في نفسه . ولكن هذا كان لا يغير رأي الناس في تلك القبيلة ولا يطمس معالم مجدها

وقد سجل القرآن على شعراء ذلك الجيل حكما لم تقم لهم بعده قائمة ، وهو قوله تعالي : « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون ؟ »

وقد عرف عرب الجاهلية قبل القرآن خفة وزن الشعراء ، وانهم ممن لا يصح التعويل على اقوالهم ، ولا الثقة بآرائهم ، فقالوا فيما قالوه من المذام التي وجهوها للنبي صلى الله عليه وسلم كما حكي عنهم القرآن انه : « شاعر نتربص به ريب المنون » اى قالوا ان محمدا شاعر لا يصح الركون الي اقواله لانها خيالات كخيالات الشعراء فلنصبر عليه غير حافلين به حتى يموت فنرتاح منه . وقالوا عن القرآن « اضغاث احلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر » أى قالوا ان ما أتي به محمد اوهام كالاحلام ، بل انه افترى هذه الاقوال من عنده ، بل هو شاعر يقول ما ليس بحق فلا يصح ان يؤبه لقوله

هذا كان مقام الشعر والشعراء في الجاهلية والاسلام ، فهل نأتي نحن فى القرن العشرين فنجعل الشعر دليلا على امور جسام ، وانقلابات عظام ، بينما لم يكن له ادنى تأثير خارج دائرة الخيال ؟

وليس يعني هذا ان الاسلام يستهجن الشعر ويراه من لغو الكلام ، بل هو

يريد ان تكون له اغراض سامية ، ومرام عالية فقد قال عليه الصلاة والسلام ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا. وكان يحب ان ينشد من جيد الشعر، وقد نوه به فقال ان اصدق بيت قالته العرب قول لبيد :

ألا كل شيء ماخلا الله باطل — وكل نعيم لامحالة زائل

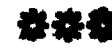
ولما انشده الشاعر قوله :

ولا خير فى حلم اذا لم تكن له — بوادر تحمي صفوه ان يكدرا

استحسنه جدا وقال له لا فض الله فاك . وحث عمر بن الخطاب الآباء، وهو من أورع الناس، على ان يُرَوّوا اولادهم الشعر لتعذب السنتهم وتتلطف طباعهم

وقد انشأ كثير من عباد المسلمين وزهادهم ومتصوفتهم قصائد ضافية الذيول، وجمعت لكثير منهم دواوين

الخلاصة ان الاسلام لايذم من الشعر الا مافيه هجو اومجون او كذب او حث على شرب الخمر، أوالجرى مع الهوى



اما مسالة سيادة بنى امية على جميع العرب فليس فيها شيء اكثر من سيادة إسرة مالكة فى امة من الامم . واى هضيمة لحقت الامة الاسلامية من جراء أن كان اميرها من بنى امية، ودينها قد محق لها الفوارق الجنسية والقبيلية، ونص فيما يختص بمسالة الامارة على ذلك نصا لايقبل التأويل وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « اسمع وأطع ولو لعبد حبشي كان رأسه زبيبة » ؟ فان صح هذا الحديث عن النبي فهو الدين، وان لم يصح فقَدّر قد رسوخ امة في هذا الاصل العمراني بحيث تكذب على رسولها مثل هذا المبدأ العظيم

ثم نهضت الاسرة العباسية لاسقاط الاسرة الاموية وانجحت في ذلك بعد حرب ضروس، فلم نر ولم ير احد فى ذلك امرا مخالفا لسنن البشر، فهوعام في جميع الامم ولم يَعزُه احد في تلك الامم لتفاقم امر العصبية، ولا جعلوه سببا للتلفيقات الشعرية. ذلك لان منطقة تأثير الشعر محدودة ، ولاهله دائرة اختصاص معروفة ، وللعوامل

التي تبعثهم للمدح والذم مصدر لايخفى على أحد ، ولذلك لا يعبأ العلم بهم ولا بأقوالهم الا بقدر لا يتعداه . خذ مثلا لذلك : لقد مدح ابو الطيب المتنبي كافورا الاخشيدى بقصائد هي عيون شعره ، لم يقل مثلها شاعر الملك ، ثم ذمه ذما جرده فيـه من كل فضيلة انسانية ، فهل أثر ذلك في مقام كافور وحط من قيمته ، وهل عول علم التاريخ عليه في استنتاج حكم من الاحكام ؟

فقس على هذا جميع الشعر المختلق وغير المختلق فهو لا يدل على شيء غـير ما يعرف عن اخلاق اهله في ذلك العهد ؛ فمن الخطأ البين أن يخوض الدكتور طه حسين هذا الخوض فى تكوين الامة الاسلامية الاولى ، و يجوس خلال ادوارها وحوادثها هذا الجوس المجهد ليثبت امرا قليل القيمة ، قاله قبله اهل القرن الاول والثاني ، وهو ان الشعر الجاهلى مختلق منحول ، وانه قد حمل على شعراء لم يقولوه . هذه ثمرة تافهة لمجهود هائل اوجب على الدكتور طه حسين ان يصدر احكاما لا تتفق والحوادث ، ولا تلتئم وعلم التاريخ ، مع ان هذا الاختلاق كله يمكن تعليله بحب الرواة للاغراب وللاستكثار من الرواية

٣

الدين وانتحال الشعر

قال الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان ماملخصه :

(لم تكن العواطف والمنافع الدينية اقل من العواطف والمنافع السياسية اثرا فى)
(تكلف الشعر وانتحاله واضافته الى الجاهليين . فكان هذا الانتحـال في بعض)
(اطواره يقصد به الي اثبات صحة النبوة وصدق النبي . وكان هذا النوع موجها الي)
(عامة الناس . ومن هذا كل مايروى من الشعر الجاهلى ممهدا لبعثة النبي . وفى سيرة)
(ابن هشام وغيرها من كتب التاريخ والسير ضروب كثيرة من هذا النوع . وهنالك)
(شعر آخر اضيف الي الجاهليين من شعراء الجن)

(وكما ان القصاص والمنتحلين قد اعتمدوا على الآيات التي ذكرت فيها الجن)
(ليخترعوا مااخترعوا من شعر الجن واخبارهم المتصلة بالدين فهم قد اعتمدوا على)
(القرآن ايضا فيما رووا وانتحلوا من الاخبار والاشعار والاحاديث التي تضاف)
(على الاحبار والرهبان الذين كانوا يتوقعون بعثة النبي ويدعون الناس الي)
(الايمان به)

(ونوع آخر من تأثير الدين في انتحال الشعر واضافته الى الجاهليين، وهو ما)
(يتصل بتعظيم شأن النبي من ناحية اسرته ونسبه ، فلأمر مّا اقتنع الناس بأن)
(النبي يجب ان يكون صفوة بنى هاشم ، وبنو هاشم صفوة بنى عبد مناف ، وبنو)
(عبد مناف صفوة بنى قصى ، وقصى صفوة قريش ، وقريش صفوة مضر ، ومضر)
(صفوة عدنان ، وعدنان صفوة العرب ، والعرب صفوة الانسانية . واخذ القصاص)
(يجتهدون في تثبيت هذا النوع من التصفية والتنقية وما يتصل منه باسرة النبي خاصة،)
(والقصص عند العرب تستتبع الشعر ، ولا سيما اذا كانت العامة هي التي ترادبهذه)
(القصص)

(وقد ارادت الظروف ان تكون الخلافة والملك في قريش ، وان يستقر الملك)
(حينا فى بنى امية ، وينتقل منهم الي بنى هاشم ، ويشتد التنافس بين اولئك)
(وهؤلاء ، ويتخذ اولئك وهؤلاء القصص وسيلة من وسائل الجهاد السياسى .)
(فاما في ايام بنى امية فيجتهد القصاص في اثبات ما كان لامية من مجد في الجاهلية)
(واما في ايام العباسيين فيجتهد القصاص في اثبات ما كان لبنى هاشم من مجد في)
(الجاهلية ، وتشتد الخصومة بين قصاص هذين الحزبين السياسيين وتكثر الروايات)
(والاخبار والاشعار)

(وكانت البطون القرشية على اختلافها تنتحل الاخبار والاشعار وتغرى)
(القصاص وغير القصاص بانتحالها)

(ولاضرب لك مثلا واحدا يوضح ماقلت من ان بطون قريش كانت تحث على)
(انتحال الشعر منافسة للاسرة المالكة اموية كانت اوهاشمية . وهذه القصة التي)
(سارويها تمس بني مخزوم من قريش)

(تحدث صاحب الاغاني باسناده عن عبد العزيز بن ابي نهشل قال : قال لى)
(ابو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، ياخال هذه اربعة آلاف درهم وانشد)
(هذه الابيات الاربعة وقل سمعت حسانا ينشدها رسول الله صلى الله عليه وسلم .)
(فقلت اعوذ بالله ان افتري على رسول الله . ولكن اذا شئت ان اقول سمعت عائشة)
(تنشدها فعلتُ . فابي وأبيت . ثم ارسل لي وقال قل ابياتا تمدح بها هشاما و بنى امية)
(واجعلها لابيك . فقلت :)

(ألا لله قوم و لدت اخت بنى سهم)
(هشام وابو عبـ ـد مناف مدرة الخصم)

الخ الخ

(ثم جئته فقلت هذه لابي . فقال لا ، ولكن قل قالها ابن الزِبَعْرَي . قال فهى)
(الآن منسوبة في كتب الناس الي ابن الزبعري (شاعر قريش)
(نحو آخر من تأثير الدين في انتحال الشعر وهو هذا الذى يختلقه القصاص)
(لتفسير ما يجدونه في القرآن من اخبار الامم القديمة . فالرواة يضيفون اليهم شيئا)
(كثيرا وقد كفانا ابن سلام نقده وتحليله حين جد في طبقات الشعراء في اثبات)
(ان هذا الشعر وما يشبهه مما يضاف الى تبع و حِمْير موضوع منتحل وضعه ابن)
(اسحاق ومن اليه من اصحاب القصص)
(ونحو آخر من تأثير الدين في انتحال الشعر : وذلك حين ظهرت الحياة العلمية)
(عند العرب بعد ان اتصلت الاسباب بينهم و بين الامم المغلوبة ، فارادوا هم او)
(الموالي أو اولئك وهؤلاء ان يدرسوا القرآن درسا لغويا و يثبتوا صحة ألفاظه)
(ومعانيه ، فحرصوا على ان يستشهدوا على كل كلمة من كلمات القرآن بشيء من شعر)
(العرب يثبت ان هذه الكلمة القرآنية عربية لاسبيل الى الشك في عربيتها . وقد)
(عرفت رأينا في ذلك وهو اننا نعتقد انه اذا كان هناك نص عربي لا تقبل لغته)
(شكا وهو لذلك اوثق مصدر للغة العربية فهو القرآن . فكان يجب ان نستشهد)
(به على ما يسمونه الشعر الجاهلي بدل ان نستشهد بهذا الشعر على نصوص)
(القرآن)

(هنا نوع جديد من تأثير الدين في انتحال الشعر وهو الخصومات بين العلماء في)
(تفسير القرآن . ومن هنا كانوا حراصا على ان يظهروا دائما مظهر المنتصرين في)
(خصوماتهم . واى شيء يتيح لهم هذا مثل الاستشهاد بما قالته العرب قبل نزول)
(القرآن؟)

(هذا ولم نصل بعد الى اعظم هذه الفنون من الانتحال خطرا وابعدها اثرا)
(وهو هذا النوع الذى ظهر عند ما استؤنف الجدال بين المسلمين واصحاب الملل)
(الاخرى . وقد ذهب المجادلون في هذا النوع من الخصومة مذاهب لا تخلو من)
(غرابة اذ اراد المسلمون ان يثبتوا ان للاسلام اولية فى بلاد العرب كانت قبل ان)
(يبعث النبي ، وان خلاصة الدين الاسلامى هي خلاصة الدين الحق الذى اوحاه الله)
(الى الانبياء من قبل . فالقرآن يحدثنا عن التوراة والانجيل ويذكر معها شيئا)
(آخر هو صحف ابراهيم . ويذكر غير دين اليهود والنصارى دينا آخر هو ملة ابراهيم ،)
(هو هذه الحنيفية التي لم نستطع الى الآن ان نتبين معناها الصحيح . وقد اخذ)
(المسلمون يردون الاسلام في خلاصته الى دين ابراهيم الذى هو اقدم وانقى من دين)
(اليهود والنصارى)

(وشاعت في العرب أثناء ظهور الاسلام وبعده فكرة ان الاسلام يجدد دين)
(ابراهيم . ومن هنا اخذوا يعتقدون ان دين ابراهيم هذا قد كان دين العرب في)
(عصر من العصور ثم اعرضت عنه وانصرفت الى الاوثان . ولم يحتفظ بدين ابراهيم)
(الا افراد قليلون كانوا يتحدثون به قبل الاسلام . فأحاديث هؤلاء الناس قد)
(وضعت لهم وحملت عليهم حملا بعد الاسلام لتثبت ان للاسلام في بلاد العرب)
(قدمة وسابقة الخ الخ)

راينا فى هذا الكلام

يقول الدكتور طه حسين : « لم تكن العواطف والمنافع الدينية اقل من العواطف

السياسية اثرا فى تكلف الشعر وانتحاله واضافته الى الجاهليين فكان يقصد به الى اثبات النبوة وصدق النبي ، وكان هذا النوع ، وجها الى عامة الناس . ومن هذا كل مايروى من الشعر الجاهلى ممهدا لبعثة النبي . وهناك شعر اضيف الي الجاهليين من شعراء اليمن »

ونحن نقول : اننا نوافق الدكتور طه حسين على انه قد اختلق شعر كثير من هذا النوع ولهذا الغرض ، ولكننا ننتقد عليه ايراد هذا الموضوع على هذا النحو فانه يُشعر القارىء غير الملم بتاريخ الدين الاسلامى ان الذي وضع هذه الاشعار هم قادة الدين للتأثير به على العامة ، او انها وُضعت عن رضى وممالأة منهم . والواقع ان الذى وضعها صنفان من الناس : (اولهما) اعداء الدين لافساده بادخال عنصر الغلوفية ، والصاق الخرافات به . و (ثانيهما) جهلة المتدينين ظنا منهم ان الكذب فى هذا المعنى حلال لاشية فيه . وربما عدوه وسيلة للمثوبة الحسنة عند الله . وقد نبه قادة الدين على هذين الامرين وعدوهما من العبث بالدين ، والنكوب عن طريق المؤمنين

على ان طبيعة الدين الاسلامى تأبي هذا الغلو في تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم ، لكثرة ماورد فى الكتاب والسنة من النهي عنهما . فقد صرح القرآن بأن النبي لا يفترق عن سائر الناس الا بالوحي فقال تعالي : « قل انما انا بشر مثلكم يوحي اليّ أنما الهكم اله واحد » وقال تعالي : « وما ارسلنا قبلك الا رجالا نوحي اليهم » وقال تعالى : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم يأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق ، وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ، أتصبرون ؟ وكان ربك بصيرا »

وقد نص القرآن في آيات كثيرة على ان النبي لاحول له ولا حيلة ، وعلى انه عبد مربوب قد يرتكب خلاف الاولى فيلومه الله ويؤدبه ، وعلى انه انما أرسل لتبليغ الناس أمر ربه لا للسيطرة عليهم ، والتحكم في ضمائرهم . فقال تعالي « عفا الله عنك لما أذنت لهم » « ليس لك من الامر شيء » « لست عليهم بمسيطر » « وما انت عليهم بوكيل » « لست عليهم بجبار » « فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب » « أفأنت تُكره الناس حتي يكونوا مؤمنين ؟ » « انك لاتهدى من احببت ولكن الله يهدى

من يشاء » « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » «إن ادرى ما يفعل بي ولا بكم » إن هنا بمعنى ما النافية . « ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم »

وقد زاد النبي صلى الله عليه وسلم ايضاحا فقال : « انا فيما لم يوح الي كأحدكم » وقال لرجل جاءه وقد اصابته رعدة من هيبته: «هون عليك انا لست بملك انما انا ابن امرأة كانت تأكل القديد». وقال لقوم جاءوه فقالوا انت سيدنا : « لا تقولوا سيدنا فان السيد الله »

وقد نبه عليه السلام على إن الاحداث الطبيعية لا تحدث لميلاد احد ولا لوفاته فقال : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يكسفان لموت احد ولا لحياته فان رأيتم ذلك فاذكروا الله »

فكل ما يروى اذن من الارهاصات التى سبقت النبوة ، ومن الاشعار التي عزيت الي الجاهليين، اكاذيب لا يصح الالتفاف اليها . ويكفى فى اسقاطها انها ركيكة المباني ، سقيمة المعاني ، ظاهر عليها طابع الوضع ، تدل على ان مختلقيها ليسوا من الشعر في شيء ، وانها تنافي اصول الاسلام

ويضاف الى هذا الباب كل ما ورد على ألسنة القصاص معزوا الي الاحبار والرهبان الذين كانوا يتوقعون بعثة النبي صلى الله عليه وسلم. فكل ماروى عنهم احاديث خرافة تنافى طبيعة الدين الاسلامى وتدل بذاتها على ان مختلقيها قصار العقول ليسوا حتي من المهارة في التلفيق على شيء

***

اما التغالي فى الاشادة بذكر نسب النبي صلى الله عليه وسلم فهو ينافي طبيعة الاسلام ايضا ، ويتنافر وروحه الديموقراطية المحضة . فقد نص كتابه على ان الناس كلهم سواء بقوله تعالى : « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير » وقد شرح ذلك النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « لقد اذهب الله عنكم رجس الجاهلية وتفاخرها بالآباء كلكم من آدم وآدم من تراب » وقال عليه الصلاة والسلام: «لا فضل لعربي

على اعجمي الا بالتقوى او بعمل صالح »

فاذا كان الكتاب قد محق الفوارق الجنسية وعفّى على آثار العصبية الى هذا الحد، وصرح النبي صلى الله عليه وسلم نفسه بانه لافضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى او بعمل صالح، فمن الفضول ان يعنى رجل مسلم بتعظيم النبي من ناحية نسبه

ومن الادلة المحسوسة على ان النبي لم يمتز على سواه من ناحية اهله امام العدل الالهي ماتقرر من ان عمه ابو طالب مات على غير الاسلام ، وان الله انزل قرآنا فى ذم عمه الآخر ابي لهب فقال تعالي : « تبت يدا ابي لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى نارا ذات لهب »

***

يقول الدكتور طه حسين: « اشتد التنافس بين بنى امية و بنى هاشم واتخذ أولئك وهؤلاء القصص وسيلة من وسائل الجهاد السياسي . فاما في ايام بنى امية فيجتهد القصاص في اثبات ما كان لبنى امية من مجد فى الجاهلية ، واما في ايام العباسيين فيجتهد القصاص في اثبات ما كان لبنى هاشم من مجد فى الجاهلية، وتشتد الخصومة بين قصاص هذين الحزبين السياسيين ، وتكثر الروايات والاخبار والاشعار »

ونحن نقول : اما اشتداد التنافس بين اسرتين احدهما تود الاستمرار في الملك والاخرى تعمل على اسقاطها لتحل محلها فامر طبيعى حدث في كل امة مُنيت باسرتين متناظرتين على الزعامة العامة . واغراؤهما الوضاعين والمختلقين على الاشادة بذكرهما، والتنوبه بفضلهما، امر طبيعي ايضا . ولكن كل هذا لم يخف على الائمة الناقدين فى العصور الاولى وقد نبهوا اليه في مؤلفاتهم ، فكلام الدكتور طه حسين موافق فى هذه الناحية لرأى الاقدمين . ولكنه استشهد اولا على تنافس بطون قريش فى حمل الناس على اختلاق الشعر على الجاهليين بقصة نقلها عن الاغاني باسناد له عن عبد العزيز بن ابي نهشل الذى ادعي ان ابا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قد اغراه ان يمدح جده هشاما و بنى امية وان يعزو ذلك لابيه، ثم حمله على ان يعزوه لابن الزِبَعْرَى شاعر قريش ففعل

فنحن نلاحظ على الدكتور في استشهاده بهذه القصة وامثالها امورا :

(اولها) جواز ان تكون القصة كلها مختلقة وهو لم يظهر الشك فيها

(ثانيها) اعتماده على اسناد صاحب الاغاني، والثقة بالاسانيد طرق لا بد من تحريها . وقد كذب الرواة على النبي صلى الله عليه وسلم فكيف لا يكذبون على الادباء والزعماء ؟ لاسيما وابو الفرج الاصبهاني مؤلف الاغاني كان شيعيا يلذه النيل من كرامة بني امية ، والحط من قدرهم

(ثالثها) ثقته بما رواه عبد العزيز بن ابي نهشل عن نفسه مع انه اعترف بانه اقترح ان يكذب على عائشة وعلى ابيه باربعة آلاف درهم . ثم أقر بانه كذب متعمدا على ابن الزبعرى شاعر قريش . ورجل هذه حاله من الافك والبهتان ، والتهتك في الاختلاق، لا يصح ان يؤخذ بقوله للاستشهاد به في كتاب ادبي يؤلف لابناء القرن العشرين، ويُنهج فيه منهج ديكارت

فكان الاولى بالدكتور طه حسين ان يستشهد بحادثة محققة ليسوغ له ان يصدر حكما في باب من ابواب الاختلاق القديم

***

وقال الدكتور طه حسين: « ونحو آخر من تاثير الدين في انتحال الشعر وهو هذا الذي يلجأ اليه القصاص لتفسير ما ورد في القرآن من اخبار الامم البائدة. فالرواة يضيفون اليهم شيئا كثيرا وقد كفانا ابن سلام نقده وتحليله حين جد في طبقات الشعراء في اثبات ان هذا الشعر وما يشبهه مما يضاف الى تبع وحمير موضوع منتحل وضعه ابن اسحق ومن اليه من اصحاب القصص »

ونحن نقول ان هذا مصداق لما قلناه من ان جميع الاشعار والاخبار التي رويت عن الجاهليين من الشعراء والاحبار في تعظيم شأن النبي صلى الله عليه وسلم قد نبه النقدة من العلماء على انها مختلقة قد حملت على اصحابها زورا و بهتانا ، وابن اسحق هذا من اقدم كتاب السيرة النبوية . وهنا لا نتمالك انفسنا من الاعجاب بالنقدة القدماء من المسلمين فانهم لم يُعفوا من نقدهم حتى الاشعار والاخبار المثبتة للدين ،لانهم يرون ان هذه التلفيقات اضر على الدين من الطعن فيه ، وان الرجل محاسب على كل شيء

ومسؤل عن دليله فيه

***

واما ماقاله الدكتور طه حسين عن وضع الوضاعين للاشعار و نسبتها للجاهليين لاثبات عربية الفاظ القرآن، والانتصار على الخصوم فى فهم معاني القرآن ، فهذا كله صحيح ، ولكنه لم يجرؤ عليه الا اهل البهتان من المشتغلين بالقرآن وعلماء السوء الذين يودون الظهور على خصومهم بأى سلاح كان . وقد عرف ذلك النقدة الاقدمون و نبهوا اليه ، ولم يغفل هذه الملاحظة الاستاذ مصطفى صادق افندى الرافعي فى كتابه آداب العرب

***

وقال الدكتور طه حسين : « اعظم هذه الفنون من الانتحال خطرا وابعدها أثرا هو هذا النوع الذي ظهر عند ما استؤنف الجدال في الدين بين المسلمين واصحاب الملل الاخرى . وقد ذهب المجادلون فى هذا النوع من الخصومة مذاهب لا تخلو من غرابة اذا اراد المسلمون ان يثبتوا ان للاسلام اولية فى بلاد العرب كانت قبل ان يبعث النبي ، وان خلاصة الدين الاسلامى هي خلاصة الدين الحق الذى اوحاه الله الي الانبياء من قبل . فالقرآن يحدثنا عن التوراة والانجيل و يذكر معهما شيئا آخر هو صحف ابراهيم . و يذكر غير دين اليهود والنصارى دينا آخر هو ملة ابراهيم ، هو هذه الحنيفية التي لم نستطع للآن ان نتبين معناها الصحيح . وقد أخذ المسلمون يردون الدين في خلاصته الى دين ابراهيم الذى هو اقدم واتقى من دين اليهود والنصاري »

« وشاعت في العرب اثناء ظهور الاسلام وبعده فكرة ان الاسلام يجدد دين ابراهيم، ومن هنا اخذوا يعتقدون ان دين ابراهيم هذا قد كان دين العرب فى عصر من العصور . ثم أعرضت عنه وانصرفت الى الاوثان . ولم يحتفظ بدين ابراهيم الا افراد قليلون كانوا يتحدثون به قبل الاسلام . فأحاديث هؤلاء الناس قد وضعت لهم وحملت عليهم حملا بعد الاسلام لتثبت ان للاسلام في بلاد العرب قدمة وسابقة »

ونحن نقول ان الامر الذى يستغرب به الدكتور طه حسين وهو أن للاسلام اولية كانت قبل ان يبعث النبي ، وانه خلاصة الدين الحق الذى اوحاه الله الى الانبياء من قبل ، هذا الامر قد قرره القرآن نفسه ، وَجَدّ في بثه في العقول ، ونشره في الشرق والغرب ، لا المجادلون من المسلمين الذين كانوا يجادلون اصحاب الملل الاخرى. وهذا الامر نفسه الذي يستغرب به الدكتور طه حسين هو المبرر الوحيد لأن يتقدم الاسلام الى الامم ، وهي تموج في خِضَمّ زاخر من الديانات ، بعنوان انه دين عام لجميع العالمين ، وان الآتي به هو خاتم النبيين

وهذا الامر الذى يستغرب به الدكتور طه حسين هو مصدر القوة الخارقة للعادة التى اوجد بها الاسلام لنفسه مكانا بين الاديان ، وَسوّغت له ان يصف نفسه بأنه دين آخر الزمان ، واليك البيان :

جاء الاسلام والعالم غاص بالاديان ، حافل بالملل ،قد توزعت اممه الكبرى اديان رسخت اصولها ، وشمخت صروحها ، وعزت قاداتها ، وتنوعت وجهاتها وغاياتها ، حتى لم يبق بينها مُتَنَفَّس لدين جديد ، ولا مُتَبَوَّأ لرأى طريف . فقد كانت البرهمية والبوذية فى الهند ، والبوذية والكونفسيوسية فى الصين ، واليهودية مبعثرة في الاقطار ، والمسيحية في اوروبا ، والوثنية فى افريقيا وهنا وهناك ، ولكل منها دولة وصولة ، ومذاهب وتقاليد ، وبجانبها اديان اخري صغيرة لا تدخل تحت حصر ،وقد تنوعت في جميعها المذاهب ، وتعددت الفرق بحيث لم يبق شيء يمكن خطوره على البال عن الامور الدينية والروحية لم يخض فيه قادة هذه الاديان ، فهل كان موجب لحدوث دين جديد ؟ وهل يصادف هذا الدين لو ظهر مكانا من العقول ؟ وهل يجد مذهبا في الامور العلوية لم يأت به ماسبقه من الملل ؟ وهل يمكن ان يتخذ غرضا لم يخطر على بال كل هؤلاء القادة من المتكلمين والكهان ؟

كانت الاديان قبل الاسلام محتكرة فى ايدى طوائف ممتازة من الشعوب تعلوا اشخاصهم حق الوساطة بين الله وخلقه ، ونصبوا انفسهم قواما عليهم في شؤونهم الجسدية والروحية معا ، وحصروا فى جماعتهم حق تقرير العقائد ، وفرض التقاليد والايعاز الي الناس بما يجب ان يعملوه ، وما يجب ان يجتنبوه ، مستسلمين

لارادتهم استسلام الطفل لمربيه ، لا حق لهم في اجالة نظر ، او تعقّل اثر ، او تفهّم خبر، مسوقين الى حيث يعلمون ولا يعلمون ، مؤاخذين بما يفهمون وما لا يفهمون

فلما استحكمت حلقات هذا القهر، واستعدت النفوس للخلاص من هذا الاسر، وسمح للنفوس الرازحة تحت نير العبودية ، ان تتمتع بحريتها الفطرية ، وللمواهب الراسفة فى اصفاد الجبرية ، ان تتمتع بحقوقها الطبيعية ، جاء الاسلام فأعلن الناس كافة ان اصل الاديان كلها واحد ، وانما اختلفت في امورها التشريعية ، تبعا لحالة الجماعات من الناحية الاجتماعية ، وان هذا الاصل هو ان يقوم الانسان على الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، اى على الحالة الطبيعية التى يتأدى الانسان اليها بما ركب فيه من ميول طبيعية ، وخصائص جبلية ، ومواهب عقلية ، فلا يحتاج في تدينه لتلقين ملقن ، ولا تعليم معلم ، وان كل ما يضاف الي هذه الحالة الفطرية من التفصيلات عن ذات الله ، وعن الكون والكائنات ، والعوالم العلوية والسفلية ، مما افترق الناس فيه شيعا ، وتحزبوا له احزابا ، وتنازعوا من اجله فسفكوا دماءهم واخربوا بلادهم ، فانما هو من وضع الزعماء والسادة الذين خولوا انفسهم حق الوصاية على الامم ، واستغلوا جهلها الي مالا حد له لمصلحة شهواتهم

واليك مرامى الآيات التي وردت في القرآن في هذا الباب :

قرر القرآن بأن اصل الاديان الاسلام اى الاستسلام بمعنى الانقياد. وهو يعنى به الحالة التى يكون عليها الانسان حين يعجز عن تصوير الله بصورة او تحديده بحد ، او تخيل انه شيء من الاشياء المرئية او المتوهمة . ويظهر هذا التحديد لمعنى الاسلام مما اورده فى قصة ابراهيم وهو :

« وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ، هذا اكبر ، فلما أفلت قال ياقوم اني بريء مما تشركون . اني وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما انا من

المشركين » سورة الانعام

« واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك و يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك انت العزيز الحكيم . ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه، ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين . اذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين . ووصي بها ابراهيم بنيه و يعقوب، يا بني ان الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتن الا وانتم مسلمون » سورة الانعام

« قل ياأهل الكتاب تعالوا الي كلمة سواء بيننا و بينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » سورة آل عمران

فالاسلام بهذا المعنى هو اصل كل الاديان وقد صرح القرآن بهذا في غير آية فقال تعالي : « ان الدين عند الله الاسلام، وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم، ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب »

فاذا كان اساس الدين الاعتراف بالعجز عن تحديد الله بحد، او تعيينه بصورة، فمن اين يأتي التفرق في الدين ، والاختلاف في اصوله؟ ولذلك قال لرسوله : « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء »

واذا كان الدين هو هذا فهو أسهل ما يكون كلفة على النفس فما على الانسان الا أن يعترف بالعجز عن تحديد الخالق ثم يأخذ في التقرب اليه بالصالحات وكفى. قال تعالى:

« ومن احسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن »

ثم قرر القرآن بأن الاسلام هو الفطرة اى الخلقة التى فطر الله النفوس عليها فان الانسان قد فطر على ان يعترف بالعجز عن تحديد مالا يمكنه تحديده ، لا على ان يتناوله بالتخيل والتصور فيوقع نفسه في الخطأ وهو عالم بوقوعه فيه فقال تعالي: «فأقم وجهك للدين حنيفا (اى مائلا عن العقائد الزائغة) فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون »

وقد شرح النبي صلى الله عليه وسلم معنى الفطرة بانها الحالة التي يكون عليها ذهن الانسان خاليا من كل صورة ، نقيا من كل خيال ، على نحو ما عليه الطفل ساعة ميلاده فقال : « كل مولود يولد على الفطرة وانما ابواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه »

ثم قرر القرآن بأن الله شرع هذا الدين لجميع الامم ، فالاسلام ليس بجديد حتى يُتردد في قبوله، بل هو الاصل الاقدم الذى اُمرت بالاخذ به الامم كافة فانحرفوا عنه بغيا بينهم. قال تعالى : « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذي اوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ماتدعوهم اليه ، الله يجتبي اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب . وما تفرقوا الا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم، ولولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمي لقضي بينهم ، وإن الذين اورثوا الكتاب لفي شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع اهواءهم، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب، واُمرت لاعدل بينكم، الله ربنا وربكم ، لنا اعمالنا ولكم اعمالكم ، لاحجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا واليه المصير » سورة الشورى

واذا كان الامر كذلك فيجب على الانسان ان يؤمن بجميع الانبياء وما جاؤا به ، لايفرق بين رسول ورسول، لأنهم جميعا جاؤا بأصل واحد ودعوا الي دين عام . وقد أمر الله الآخذين بالاسلام ان يقولوا : « قولوا آمنا بالله وما اُنزل الينا وما انزل الي ابراهيم واسماعيل واسحق و يعقوب والاسباط ، وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون . فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا، وان تولوا فانما هم فى شقاق، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . صبغةَ الله ومن أحسن من الله صبغة؟ ونحن له عابدون »

فالاسلام والحالة كما ترى كما صرح بوحدة النوع البشرى ودعا الامم كافة لمحق ما بينها من الفوارق الاجتماعية ، كذلك دعاها الي الأخذ بدينها العام الذى ينحصر في كلمتين الاسلام لله والعمل الصالح قال تعالى : « وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا او نصاري ، تلك امانيهم ، قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين .

بلى من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

نقول بعد هذا البيان: اى غرابة يراها الدكتور طه حسين في هذا الموضوع وهو اجمل ماحمله دين من الاديان الي العالم، بل اجمل ماحمله دين من الاديان من شبه الملحدين المعاصرين . ألم يقولوا اذا كان الله واحدا ، والانسان هو الانسان في كل زمان ، فلم تخالفت الاديان ، وتباينت تعاليمها في كل مكان ؟ ولو اطلعوا لوجدوا ان الاسلام قد حل هذه الشبهة حلا ليس وراءه مذهب لمشتبه ، بل الاسلام نفسه هو الحل العملي لهذه الشبهة

اما استغراب الدكتور طه حسين من زعم من زعم ان لهذا الدين سابقة وقدمة فى بلاد العرب، فلا حق له فيه ، لان التوراة نصت على ان ابراهيم زار البلاد العربية ووافقهم العرب على هذا، وقالوا انه بنى فيها بيتا للعبادة سموه الكعبة ، وقد عالجنا هذه المسألة فيما مر من الفصول، فرأينا انه وان لم يثبت ذلك على الاسلوب التاريخي الذي يتطلب الآثار المحسوسة، الا انه كذلك لا يوجد في التاريخ ما ينفيه، وقلنا ان المرجحات كلها متظاهرة على زيارته لبلاد العرب . فهل من غرابة بعد هذا ان يأخذ بدينه رجال من العرب الذين اتصلوا به في ذلك العهد ؟ وهل كان دين ابراهيم فوق متناول العقول حتى يُستغرب ان يأخذ به رجال من مخالطيه لهم قلوب يفقهون بها، ولهم آذان يسمعون بها، ولهم ذوق يفرقون به بين الخبيث والطيب ؟ وهل كان دين ابراهيم الا التوحيد الذى دلت الآثار على انه وُجد من اقدم العهود في مصر والهند والصين وسواها وأخذ به رجال فى تلك الازمان البعيدة؟ فأى غرابة في ان توجد منه آثار فى بلاد العرب بقيت من عهد ابراهيم، ولكن الوثنية تغلبت عليه كما هو شأنها في جميع البلدان ؟

٤
القصص وانتحال الشعر

عقد الدكتور طه حسين فصلا تحت هذا العنوان قال فيه :

(القصص في نفسه ليس من السياسة ولا من الدين ، وانما هو فن من فنون)
(الادب العربي توسط بين آداب الخاصة والآداب الشعبية وكان مرآة للون من الوان)
(الحياة النفسية عند المسلمين . وأزهر في عصر غير قصير من عصور الأدب العربي)
(الراقية . وازهر ايام بنى امية وصدر من ايام بنى العباس ، حتي اذا كثر التدوين)
(وانتشرت الكتب ، واستطاع الناس ان يلهوا بالقراءة دون ان يتكلفوا الانتقال)
(الي مجالس القصاص ضعف امر هذا الفن ، واخذ يفقد صفته الادبية الراقية حتي)
(ابتذل وانصرف عنه الناس)

(كان قصاص المسلمين يتحدثون الى الناس في مساجد الانصار فيذكرون لهم)
(قديم العرب والعجم وما يتصل بالنبوات . ويمضون معهم في تفسير القرآن والحديث)
(ورواية السيرة والمغازى والفتوح الى حيث يستطيع الخيال ان يذهب بهم لا الى)
(حيث يُلزمهم العلم والصدق ان يقفوا . وكان الناس كلفين بهؤلاء القصاص)
(مشغوفين بما يلقون اليهم من حديث . وما أسرع ما فطن الخلفاء والامراء لقيمة)
(هذه الأداة الجديدة من الوجهة السياسية والدينية فاصطنعوها وسيطروا عليها)
(واستغلوها استغلالا شديدا ، واصبح القصص اداة سياسية فكانت الاحزاب)
(السياسية تصطنع القصاص ينشرون لها الدعوة كما كانت تصطنع الشعراء)
(يناضلون عنها)

(وقد استمد القصص قوته من مصادر مختلفة اهمها اربعة) :

(الاول) مصدر عربي هو القرآن وما كان يتصل به من الاحاديث والروايات)
(وما كانت تتحدث به العرب فى الامصار من اخبارها واساطيرها ، وما كانت)

(تروى من شعر ، وما كان يتحدث به الرواة من سيرة النبي والخلفاء وغزواتهم)
(وفتوحهم)

(الثاني) مصدر يهودي نصراني . وهو ما كان يأخذه القصاص عن اهل)
(الكتاب من اخبار الانبياء والاحبار والرهبان وما يتصل بذلك)

(الثالث) مصدر فارسي وهو هذا الذى كان يستقيه القصاص في العراق خاصة)
(من الفرس مما يتصل باخبارهم واساطيرهم واخبار الهند واساطيرها)

(ثم المصدر الرابع مصدر مختلط هو هذا الذي يمثل نفسية العامة غير العربية)
(من اهل العراق والجزيرة والشام من الانباط والسريان ومن اليهم من هؤلاء)
(الاخلاط)

(وانت تعلم ان القصص العربي لاقيمة له اذا لم يزنه الشعر من حين الي حين .
(واذن فقد كان القصاص ايام بنى امية وبنى العباس فى حاجة الى مقادير لاحدلها)
(من الشعر يزينون به قصصهم ، وهم قدوجدوا من هذا الشعر ما كانوا يشتهون وفوق)
(ما كانوا يشتهون)

(فقد كانوا يستعينون بأفراد من الناس يجمعون لهم الاحاديث والاخبار)
(و يلفقونها ، وآخرين ينظمون لهم القصائد و ينسقونها حتي اذا استقام لهم مقدار)
(من تلفيق أولئك وتنسيق هؤلاء طبعوه بطابعهم ونفخوا فيه من روحهم واذاعوه)
(بين الناس)

(وقد فطن بعض العلماء الى ما في هذا الشعر من تكلف وسخف واسفاف، والى)
(ان بعض هذا الشعر يستحيل ان يكون قد صدر عن الذين ينسب اليهم. ومن)
(هؤلاء العلماء محمد بن سلاّم . وكان ابن هشام يروي فى السيرة ما كان يرويه ابن)
(اسحق حتي اذا فرغ من رواية القصيدة قال : واكثر اهل العلم بالشعر او بعض)
(اهل العلم بالشعر ينكر هذه القصيدة او ينكرها لمن تضاف اليه . ولكن لم يكن)
(صناع الشعر جميعا ضعافا ولا محمقين ، بل كان منهم من يجيد الشعر ويحسن انتحاله)
(وتكلفه و يجتهد فى اخفاء صنعته)

(وهنالك لون آخر من الوان القصص كان الناس يتحدثون به ويميلون اليه)

(ويروون فيه الاكاذيب والاعاجيب، وهو اخبار المعمرين الذين مدت لهم الحياة)
(الي ابعد مما الف الناس . وقد رويت حول هؤلاء المعمرين اخبار واشعار)
(قبلها العلماء والثقات فى القرن الثالث للهجرة كأبي حاتم السجستاني وابن سلام)
(هسه)

(والرواة اشد انخداعا حين يتصل الامر بالبادية اتصالا شديدا . وذلك في)
(هذه الاخبار التي يسمونها ايام العرب او ايام الناس فقبلوا ما كان يروى منها على)
(انه جد من الامر، ورووه وفسروه وفسروا به الشعر واستخلصوا منه تاريخ العرب .)
(وليست هذه الاخبار الا المظهر القصصي للحياة العربية القديمة، ذكره العرب بعد)
(ان استقروا في الامصار فزادوا فيه وزينوه بالشعر كما ذكر اليونان قديمهم فأنشأوا)
(فيه الالياذة والاودسا وغيرها من الشعر القصصي)

(فكل مايروى عن عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم والعماليق وعن تبّع)
(وحمير وشعراء اليمن واخبار الكهان وما يتصل بسيل العرم وتفرق العرب البائدة)
(موضوع لا اصل له . وكل مايروى من ايام العرب وحروبها وخصوماتها وما يتصل)
(بذلك من الشعر اكثره موضوع من غير شك . وكل مايروى من الاخبار والاشعار)
(التى تتصل بما كان بين العرب والامم الاجنبية من العلاقات قبل الاسلام كعلاقاتهم)
(بالفرس واليهود والحبشة خليق ان يكون موضوعا . وكثرته المطلقة موضوعة من)
(غير شك)

راينا فى هذا الكلام

ان ماذكره الدكتور طه حسين عن اخبار المعمرين وايام العرب وما يروى عن عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم والعماليق وعن تبع وحمير وشعراء اليمن واخبار الكهان وما يتصل بسيل العرم من أن كل ماورد منه او اكثره موضوع ومبالغ فيه، صحيح نوافقه عليه . وكل من اتفق له مطالعة ماجاء من هذا كله في كتب الادب، وكان له دربة في

النقد،وذوق فى تقدير الحوادث يدرك معنا لأول وهلة انه مختلق مكذوب او بعيد عن حقيقته بما حُمّل من التمويهات والتلفيقات ، وما احيط به من المبالغات والتهويلات

وكيف لا يكون كذلك والعرب انما التفتوا لتدوين شيء من تاريخهم الجاهلى بعد مضي قرن من دخولهم فى الاسلام ولم يكن العرب الجاهليون على شيء من العلم بالخط فيكتبوا حوادثهم ، فلم يبق منها الا ما كان يتحدث به الناس ويزيدون فيه او ينقصون على ما يتفق لهم . وهو الذى تلقفه الرواة من افواههم وزادوا عليه ما زادوه من بضاعتهم استكثارا لمحصولهم ، وأستجلابا للمنافع ممن كانوا يحرصون على الاخذ عنهم

ولم يقف الاختلاق والتلفيق في نظرنا عندحد اخبار العصر الجاهلى،فان اكثرما نقل لنا عن الخلفاء وعن لهوهم وقصفهم ، وعن مجالسهم مع الشعراء والندمان،مختلق اومبالغ فيه مبالغة منكرة ، يدرك ذلك من اوتي خاصة النقد بأدني تأمل . ولذلك أواخذ الدكتور طه حسين على اعتماده فى تعيين اسباب الاختلاق في الشعر الجاهلى على الحكايات التي وردت فى كتب المحاضرات، فانه لواتقن تسرية منهج ديكارت عليها لرمى بأكثرها عرض الحائط،ولما استنتج منها مااستنتجه من الصورة المشوهة للحياة الاجتماعية والسياسية للمسلمين في عهدهم الاول ، عهد الوحدة المحكمة التى ملكوا بها ناصية العالم فى سنين معدودة

وما كان مذهب ديكارت مشكاة يستهدى به الباحثون في ظلمات المسائل الا لانه جعل اساسه الشك ، وهذه الحكايات التي وردت فى كتب المحاضرات اولى بهذا الشك من كل نوع آخر من انواع الرواية عن الاقدمين ، فانها أُلفت للتفكه والتسلى، وناهيك بما يؤلّف لهذا الغرض قبل الف ومئتي سنة بل ومايؤلف منه ايضا في القرن العشرين عصر التثبت والتحقيق

اما ما ذكره الدكتور طه حسين عن القصص والقصاص، فكلام ثمين من ناحية تحديد القصص وتصوير نفسية القصاص . وكل ما نلاحظه عليه ان القارىء لما ذكره عنهم يخيل اليه انهم من الطوائف ذات الاتصال الوثيق برجال الدين ، وانهم

مالا وهم على التأثير على عقول العامة من هذا الطريق . والحقيقة ان بنية العالم الاسلامى لفظت القصاص من يوم ان ظهروا بعد خلافة عمر بن الخطاب ، وانهم قد طوردوا كما تطارد المبتدعة فى كل الاجيال الاسلامية . ذلك لأن هؤلاء القصاص كانوا يخلطون بين الاسلاميات و بين مايجمعونه من هنا وهناك من اخبار الامم واخبار الافراد ، و بنية العالم الاسلامى قامت على التثبت والتمحيص ، حتي ان المسلمين تولوا الاحاديث المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم بالتغليسة والتحقيق فأقروا نحو عُشر ما كان متداولا مشهورا منها ، واعتبروا نحو تسعة اعشارها مصنوعا لايؤخذ به. فبنية هذا شأنها من عدم الاخذ بغير الحق وان كان دينا، لاتحتمل القصص بوجه من الوجوه . فكان يجب على الدكتور طه حسين ، دفعا لتوهم رضاء الدين او اهله عنهم ، ان يصور لقرائه مكانهم من الاسلام وذويه من عهد ظهورهم الاول الي اليوم . واذا كان هذا قد فات الدكتور طه حسين فنحن ننبه اليه وننقل ما ورد عنه فى كتب ائمة المسلمين :

قال العلامة ابو عبد الله محمد بن محمد العبدرى المتوفي سنة (٧٣٧) فى المجلد الاول والثاني من كتابه (المدخل) :

« جاء ابن عمر رضي الله عنه الى مجلسه من المسجد فوجد قاصا يقص، فوجه الى صاحب الشرطة (اى مدير البوليس) أن أخرجه من المسجد فأخرجه

« وقال الامام ابو طالب المكي : كانوا يرون القصص بدعة، ويقولون لم يقص فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا في زمن ابي بكر، ولا فى زمن عمر، حتى ظهرت الفتنة ، فلما وقعت الفتنة ظهر القصاص

« وروى الزهرى عن سالم عن ابن عمر انه خرج من المسجد وقال ما أخرجنى الا القاص، ولولاه ماخرجت

« وقال ضمرة قلت للثوري: نستقبل القاص بوجوهنا ؟ فقال ولوا البدع ظهوركم

« ودخل امير المؤمنين على بن ابي طالب مسجد البصرة فوجد به قصاصا فوقف على كل منهم وسمع ما يقول، ثم طردهم من المسجد جميعا الا الحسن البصرى فانه ابقتاه،

والحسن البصري سيد التابعين بالاجماع وكان اعلم اهل زمانه واورعهم

« وقال تميم الداري الصحابي لعمر بن الخطاب دعني ادعو الله واقص واذكر الناس . فقال عمر لا . فأعاد عليه . فقال انت تريد انتقول انا تميم الدارى فاعرفوني .

« وقال ابو ادريس لئن ارى في ناحية المسجد نارا تأجج أحب الىّ من ان ارى في ناحيته قاصا يقص

« وروى الطرطوشي قال ابو معمر رأيت يسارا ابا الحكم يستاك على باب المسجد وقاصا يقص في المسجد. فقلت له يا ابا الحكم الناس ينظرون اليك . فقال: الذى انا فيه خير مما هم فيه . انا في سنة وهم في بدعة

« قال ولما دخل سليمان بن مهران الاعمش البصرة فنظر الي قاص يقص في المسجد . فقال حدثنا الأعمش عن ابي اسحق عن ابي وائل . قال فتوسط الأعمش الحلقة وجعل ينتف شعر ابطيه . فقال له القاص ياشيخ ألا تستحي، نحن في علم وانت تفعل مثل هذا ؟ فقال له الأعمش: الذى انا فيه خير من الذى انت فيه . قال كيف؟ قال لأني في سنة وانت فى بدعة، انا الأعمش وما حدثتك مما تقول شيئا . فلما سمع الناس ذكر الأعمش انفضوا عن القاص واجتمعوا حوله، وقالوا حدثنا ياابا محمد »

هذه قيمة القصاص وقيمة ما كانوا يطرفون الناس به من نثر وشعر فاذا كان قد اعتمد عليهم بعض المغفلين من الزعماء والقادة فى نشر دعوة او بث فرية ، فانما هم قد اعتمدوا على غير معتمد ، واستندوا الى أوهي سند

٥

الشعوبية وانتحال الشعر

قال الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان :

(ان هؤلاء الشعوبية قد انتحلوا اخبارا واشعارا كثيرة واضافوها الي الجاهليين)
(والاسلاميين . وقد اضطروا خصومهم الي الانتحال والاسراف فيه . واصل هذه)
(الفرقة انما هو هذا الحقد الذى اضمره الفرس المغلوبون للعرب الغالبين . وقد)
(اخذت هذه الخصومة مظاهر مختلفة منذ تم الفتح للعرب ، واحدثت آثارا مختلفة)
(بعيدة في حياة المسلمين السياسية والادبية)

(لم يكد ينتصف القرن الاول للهجرة حتي كان فريق من سبي الفرس قد)
(استعرب واتقن العربية واستوطن الاقطار العربية ، واخذ يكون له فيها نسل)
(وذرية . واخذ هذا الشباب الفارسي الناشيء يتكلم لغة العرب ويحاول نظم الشعر)
(العربي وتجاوز هذا الي مشاركة العرب في اغراضهم الشعرية السياسية . فكان)
(منهم شعراء يتعصبون للاحزاب العربية السياسية . ولا يكاد واحد منهم يظهر)
(تأييده لحزب حتى يفرح به ذلك الحزب ويجزل الصلات له . كذلك كان يفعل)
(بنو امية و بنو هاشم وآل الزبير . فأباحت لهم الخصومة بين الاحزاب العربية)
(ان يتدخلوا في السياسة العربية، وان يهجوا اشراف قريش وقرابة النبي)

(لم يكن هؤلاء الموالي مخلصين للعرب حقا ، انما كانوا يستغلون هذه الخصومة)
(السياسية ليعيشوا وليحيوا حياة السادة الاحرار ثم ليشفوا مافي صدورهم من غل)
(ضد العرب)

(وكانت نتيجة استنصار الاحزاب بهم ان استباح هؤلاء الموالي لانفسهم هجو)
(العرب اولا ثم ذكر قديمهم والافتخار به ثانيا)

(وقد هجا ابو نواس العرب وقريشا فيقال ان الرشيد اطال حبسه لذلك .)
(وانشد اسماعيل بن يسار بين يدى هشام بن عبد الملك فخره بالفرس فغضب عليه وأمر)
(بالقائه في بركة كانت بين يديه ولم يخرج منها الا وقد اشرف على الموت)

(وهؤلاء الموالى قد أنطقوا العرب بكثير من النثر والشعر اللذين فيهما مدح)
(للفرس وتقرب منهم . وزعموا ان الاعشى زار كسرى ومدحه واخذ من جوائزه.)
(واضافوا الى عدى بن زيد ولقيط بن يعمر وغيرهما من ايادوالعباد كثيرا من الشعر)
(فيه الاشادة بملوك الفرس وسلطانهم وجيوشهم . وأنطقوا شاعرا من شعراء الطائف)

(بآبيات وهي تضاف لابي الصلت بن ربيعة يمدح فيها الفرس. على هذا النحو انتحل)
(الموالى الشعر والاخبار واضافوها للعرب ذكرا لمآثر الفرس وما كان لهم من مجد)
(وسلطان فى الجاهلية. فكان العرب مضطرين الى ان يجيبوا بلون من الانتحال يشبه)
(هذا اللون فيه تغليب للعرب على الفرس)

(ومن هنا مواقف هذه الوفود التى تتحدث امام كسرى بمحامد العرب وعزتها ،)
(ومن هنا هذه المواقف التي تضاف الي ملوك الحيرة والتى تظهر هؤلاء الملوك احيانا)
(عصاة مناهضين للملك الاعظم . ثم من هنا هذه الايام التي كانت للعرب على الفرس)
(والتي تحدث النبي عن بعضها وهو يوم ذي قار)

(فالشعوبية في مظهرها السياسي الاول قد حملت الفرس على انتحال الاشعار)
(والاخبار وأكرهت العرب على ان يلقوا هذا الانتحال بمثله)

(على ان هذه الشعوبية لم تلبث ان استحالت بعد سقوط الامويين وقيام)
(سلطان الفرس على يد العباسيين الى خلاف له صورة علمية ادبية . وكان هذا)
(النحو من الشعوبية اخصب من النوع السابق وابلغ في حمل العرب والفرس على)
(الانتحال والاسراف فيه)

(ولعلك تلاحظ ان الكثرة المطلقة من العلماء كانوا من العجم الموالي ، وكانوا)
(يستظلون بسلطان الوزراء من الفرس ايضا ، وكانت غايتهم قد استحالت من)
(اثبات سابقة الفرس فى الملك الي ترويج هذا السلطان الذى اكتسبوه ايام بنى)
(العباس واقامة الادلة على ان الامر قد رد الي اهله ، وان العرب الذين حيل بينهم)
(وبين السيادة الفعلية لم يكونوا اهلا لتلك السيادة)

(فاما ابو عبيدة الذى يرجع العرب اليه فيما يروون من لغة وادب كان من اشد)
(الناس بغضا للعرب وكان وضع كتابا اسمه (مثالب العرب) . واما غيره من علماء)
(الموالي فقد كانوا يمضون في ازدراء العرب الى غير حد ، ينالونهم فى حروبهم وشعرهم)
(وخطابتهم ودينهم ايضا ، فليست الزندقة الا مظهرا من مظاهر الشعوبية ، وليس)
(تفضيل النار على الطين ، وابليس على آدم ، الا مظهرا من مظاهر الشعوبية الفارسية)
(التى كانت تفضل المجوسية على الاسلام)

(والذى يعنينا من هذا كله ان نلاحظ ان الجاحظ وامثاله من الذين كانوا)
(يعنون بالرد على الشعوبية مهما يكن علمهم لم يستطيعوا ان يعصموا انفسهم من هذا)
(الانتحال الذى كانوا يضطرون اليه ليسكتوا خصومهم من الشعوبية . وكانت)
(الشعوبية تنتحل من الشعر ما فيه عيب للعرب وغض منهم، وكان خصوم الشعوبية)
(ينتحلون من الشعر ما فيه ذود عن العرب ورفع لأقدارهم)
(ونوع آخر من الانتحال دعت اليه الشعوبية ذلك ان الخصومة بين العرب)
(والعجم دعت العرب وانصارهم ان يزعموا ان الادب العربي القديم لا يخلو اولا)
(يكاد يخلو من شيء تشتمل عليه العلوم المحدثة، فان عرض لشيء من هذه العلوم)
(الاجنبية فلا بد من ان يثبتوا ان العرب قد عرفوه أو ألموا به او كادوا يعرفونه)
(ويلمون به، وهم مضطرون الي ذلك ليثبتوا فضلهم على هذه الامم المغلوبة،)
(واضطرارهم كان يشتد بمقدار ما يفقدون من السلطان السياسي وبمقدار ما ترفع هذه)
(الامم المغلوبة رؤسها)

راينا فى هذا الكلام

يُستخلص مما كتبه الدكتور طه حسين فى الشعوبية ان الفرس والعرب كانوا من التحاقد والتضاغن، حتي بعد ان جمع بينهم الاسلام، بحيث بات كل فريق منهم يتربص بالفريق الآخر الدوائر، وأن هذه الخصومة احدثت آثارا بعيدة المدى في حياة المسلمين السياسية والادبية. فكان شعراؤهم يتعصبون للاحزاب السياسية لا عن اخلاص وحسن نية، بل لجر المغانم، وكسب الدراهم. وقد تذرعوا بذلك الى ثلب اشراف قريش وقرابة النبي صلى الله عليه وسلم

وقد قوّلوا العرب الجاهليين مالم يقولوه من الشعر فى مدحهم والاشادة بذكرهم . واضطروا العرب لان ينحوا نحوهم في وضع الشعر المناقض لمزاعمهم . واختلق العرب من جراء ذلك حكايات الوفود التي قيل انها اوفدت الى كسرى تذكر محامد العرب

ومناقبهم ، ووقائع لم تحدث زعموا انهم انتصروا فيها على العجم ، وشفوا صدورهم من الاثخان فيهم

ثم استحالت الخصومة بين الامتين بعد سقوط الدولة الاموية الي خلاف علمي حمل الفريقين على الاغراق فى انتحال الشعر والاخبار الكاذبة . وبما ان اكثر العلماء الاسلاميين كانوا من الفرس،ووزراء الدولة من الفرس،فقد اخذوا يقيمون الادلة على ان الامر قد عاد الي اهله ، وان العرب لا يستحقون تلك السيادة التي كانوا حصلوها ثم زالت منهم . وكان هؤلاء العلماء يمضون في ازدراء العرب الى غير حد حتى فى دينهم . فان الزندقة وتفضيل المجوسية على الاسلام كانت اذذاك اثرا من آثارهم

ذكر الدكتور طه حسين كل هذا ولم يستثن طائعة ولا جيلا ، فلا يتمالك القارىء نفسه من الازدراء بالفريقين ، بالفرس لخبثهم وخيانتهم والحادهم ، وبالعرب لجبنهم وغباوتهم واستخذائهم . فان سأل سائل كيف يعقل ان امة وصل الدخيل من جثمانها الي النخاع تستطيع ان تؤسس فى عهد الدولة الاموية لنفسها ملكا لم ينبغ لأمة من الامم قبلها ، ثم توجد لنفسها في عصر العباسيين الذى تلاه مدنية لم تشرق الشمس على اكمل منها الي عهدها ، تنتهي اليها فيها الخلافة العلمية والعملية والفنية في الارض ؟

لو سأل سائل عن هذا لم يجد احد جوابا شافيا ولو كان اعدى اعداء الاسلام ، اللهم الا ساقطا من القول ، وآفنا من الرأى ، وهراء من المزاعم ، ومتي أغنى مثل هذا فى طمس الواقع المحسوس ؟

ان الدكتور طه حسين في بحثه عن مصادر الشعر المختلق المنسوب للجاهليين ، وفي تحريه عن علل هذا الاختلاق، اضطر ان يعول على كتب المحاضرات كالاغاني والعقد الفريد والبيان والتبيين وغيرها ، ولا ندرى كيف فاته ان هذه الكتب ادبية فكاهية قاصرة على البحث في اطوار فن واحد يكثر فيه الخلط والخبط.وكان يغلب على اهله، وهم ادباء العصور الخالية، المجانة والاباحة والجرى وراء الخيال، وتصيد الرزق بالمدح والهجاء ، والتقرب الى الرؤساء بكل وسيلة من الجد والهزل .

حتي كان منهم من هجا امه واباه وامرأته وهجا نفسه ايضا . فلا مذهب ديكارت ، ولا اى اسلوب فلسفى فى الارض ، يسمح لواحد من شيعته في القرن العشرين ان يصدر على أمة كان لها اكبر الآثار في العالم مثل هذه الاحكام المنافية لطبيعة الاشياء ، اعتمادا على مثل هذه المصادر التي لو سلط عليها نقد جدى لنفى تسعة اعشار ما فيها لعدم موافقته للمألوف ، وشطرا من العشر الباقى لنقص سنده التاريخي

نحن لا ننكر ان نفرا من الشعراء الذين اصولهم فارسية ، ونفرا آخرين من أبناء جلدتهم الذين لم يتأدبوا بأدب الاسلام في مسألة الجنسية ، قد لعبت بعقولهم الميول الوراثية ، فلجأوا الى احياء العصبية ، في دائرتهم المحلية . كما لا ننكر ان رجالا من العرب الذين لاحظ لهم من الاسلام الا الالتحاق باهله ، لم يقفوا مع نص الدين في اماتة الفوارق الاجتماعية ، قام الفريقان باحياء سنة الجاهلية ، من التفاخر بالآباء ، والتنابز بالالقاب والاسماء ، وارتكبوا في تسكعهم في هذا السبيل جريمة الاختلاق على الأقدمين . ولكنا نري ان هذا من الامور الطبيعية حتي في الامة الواحدة التى يجرى في عروقها دم واحد ، وتعيش كلها فى بيئة واحدة ، وفى القرن العشرين نفسه . فهل يجهل احد ماأوجده العرف من الفوارق بين الاغنياء والفقراء ، و بين ذوى البيوت والصعاليك ، و بين البيض والسود ؟ ثم أليس كتاب الدكتور طه حسين مشحونا بأخبار عصبية القبائل العربية ، ذات القرابة القريبة ، وما ابتنى على تلك العصبية قبل الاسلام من حروب ساحقة ، وحزازات ماحقة ، فهل يستغرب بعد ذلك ان يقوم بين زعانف من امتين مختلفتين ، ماقام مثله و يقوم الى اليوم بين أبناء الامة الواحدة ؟

ولكن اين الدكتور طه حسين من هذا المثل الأعلى الذى اوجده الاسلام من ادماج الامم بعضها في بعض ، وسل مابينها من السخائم الموروثة منذ اجيال ، وتأليفه منها دولة قامت لاول مرة في تاريخ البشر على المبادىء لا على الجنسيات ؟ ان من شاء ان يرى المثل المحسوس من هذا الامر المدهش ، الذى عجز عنه الاولون والآخرون ، فلينظر الي الامة الاسلامية فى القرون الثلاثة الاولى من حياتها ليرى ان

العربي القح كان يأخذ لغته وادبه ودينه وتصوفه وسياسته وعلمه عن ناس لا يسألهم عن انسابهم وأجناسهم ، ولا يبالي بألوانهم ولا صورهم ، حتى اتفق ان كانت جمهرتهم من اجناس اجنبية ، وقد ادى اليهم من الاحترام والتبجيل ما كان يؤديه لبني جلدته الذين كانوا فى مثل رتبتهم . فكانت حال هذه الامة فى هذا الامر من اغرب الاحوال ، تدل على مبلغ ما أفاده الاسلام للامة العربية ، ذات العصبية الحادة، من الادب الاجتماعي العالى الذى قصرت عن مثله الفلسفة في كل أدوارها الي يومنا هذا

كانت الامصار والاقطار التي تعتبر مراكز للعلم والدين ، يُشعان منها على ما حولها من البلدان فى عصر بنى امية، مكة والمدينة والبصرة والكوفة واليمن ومصر والشام والجزيرة وخراسان . فكان في كل عاصمة من هذه العواصم، ومدينة من هذه الاقطار إمام يقلده اهلها في الدين، ويرجعون اليه في الفتوى. أفلا تعجب ان ذكرت لك أن كل هؤلاء الائمة الذين اخذ المسلمون عنهم الدين والعلم كانوا من الموالى الذين يقول عنهم الدكتور طه حسين انهم كانوا يكرهون العرب، ويضمرون لهم الخصومة ، الا واحدا هو ابراهيم النخعي الذى كان امام اهل الكوفة ، فانه كان عربيا خالص العروبة . اما من عداه فكانوا فُرسا او ديلما او تركا او من أجناس اخرى ؟ فقد كان عطاء بن ابي رباح اماما فى مكة ، وطاوس في اليمن ، ومكحول في الشام ، ويزيد بن ابي حبيب في مصر ، وميمون فى الجزيرة ، والضحاك بن مزاحم في خراسان ، والحسن البصرى في البصرة، وكلهم من الموالى

ذكر السخاوى فى شرح الفية الحديث للقرافى ان هشام بن عبد الملك الخليفة الاموى قال للزهرى : « من يسود اهل مكة ؟ قال عطاء . قال بم سادهم ؟ قال الزهرى سادهم بالديانة والرواية . قال هشام نعم ، من كان ذا ديانة حقت الرياسة له . ثم سأله الخليفة عن اليمن ؟ فقال الزهرى امامها طاوس. وكذلك سأل عن مصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة؟ فأخذ الزهري يعد له أسماء سادات هذه البلاد، وكلما سمي له رجلا كان هشام يسأله هل هو عربي ام مولي ؟ فكان الزهري يقول مولى. الي ان أتي على ذكر النخعي فقال انه عربي . فقال هشام الآن فرجت عني ،

والله ليسودن الموالى العرب و يخطب لهم على المنابر

وهذا الحسن البصرى الذى يعتبر امام أئمة هذه الامة، والمرجع الأعلى للدين والعلم والفتيا كان فارسيا من الموالى . وقد بلغ من الشرف و سؤدد أن شدد النكير على الحجاج بن يوسف الثقفى واغلظ له فى القول

وكان رأس التابعين والمقدم عليهم سعيد بن جبير وهو اسود اللون،وكان قد ولاه الحجاج اقامة الصلاة فى الكوفة ، والكوفة اذ ذاك مُعَشّش العرب ، وقبة الاسلام

وكان سليمان الأعمش الامام المشهور عبدا اعجميا ، وقد كان من العزة والمنعة بحيث يزدرى بأمر هشام بن عبد الملك . فقد ذكر ابن خلكان في ترجمته ان هذا الخليفة الاموي طلب اليه ان يكتب له مناقب عثمان ومساوىء على . فأخذ كتاب هشام وألقمه عنزا كانت عنده وقال للرسول قل لامير المؤمنين هذا جواب كتابك

وكان ابو حنيفة صاحب المذهب فارسيا وقد لقبه العرب انفسهم بالامام الاعظم، واخذوا عنه الدين غير متحرجين ، ولا متأثمين . وجمهرة العلماء الذين حفظوا القرآن والاحاديث كانوا من الفرس وغيرهم ، وهم البخارى ومسلم صاحبا الصحيحين ، والترمذى والنسائي وابن ماجة والدارقطنى والسجستاني وغيرهم اصحاب بقية كتب السنة الصحيحة ، لم تحل جنسيتهم في نظر العرب دون اعتبارهم أئمة علم الحديث ، وحُسبانهم كتبهم المراجع الوثيقة له

وقد كان وهب بن منبه من اقدم رواة الحديث واصحاب التفسير وهو فارسى الاصل ، وكان نافع صاحب القراءة المشهورة ديلميا

اما اقدم الفقهاء الذين اخذ عنهم الأئمة مذاهبهم غير من ذكرنا فالحسن بن ابي الحسن ، ومحمد بن سيرين بالبصرة ، ومجاهد ، وسليمان بن يسار في مكة ، وزيد بن سلم ، ومحمد بن المنكدر ، ونافع بن ابي نجيح في المدينة ،وربيعة الرأى، وابن ابي الزناد في قباء ، وكل هؤلاء كانوا من الموالي

ولو أردت سرد اسماء علماء الموالى الذين يعتبرون السلف الصالح لهذه الامة

لكتبت صحفا كثيرة ، فلا أكتف بهذا القدر لشهرة هذا الامر شهرة مستفيضة في جميع مراكز العالم الاسلامى

فهؤلاء هم أئمة الدين الاسلامى اخذوه عن اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة ونشروه بين الناس،فشحنت الكتب بآرائهم ومذاهبهم واحترمها المسلمون من اول عهدهم الي اليوم

فان كان صحيحا ماقاله الدكتور طه حسين عن الموالي وجب ان يكون المسلمون منذ الف وثلاث مئة سنة الى اليوم من الغفلة والغباوة والبلادة في الحضيض الأسفل ، اذ اخذوا دينهم عن قوم من الطراز الذى وصفه الدكتور طه حسين باضمار الخصومة للمسلمين الاولين و بكراهة الاسلام وتفضيل المجوسية عليه .... لا يقول بهذا عاقل.

٦

الرواة وانتحال الشعر

ختم الدكتور طه حسين كلامه عن الاسباب المختلفة التي حملت على انتحال الشعر واضافته الى الجاهليين بفصل تحت عنوان الرواة وانتحال الشعر لم نجد فيه شيئا يستحق النقد وقد مر كلامنا على الرواة فى اول هذا الكتاب، وان فيه لبلاغا



فهرست

ص



المصحف المفسر

دائرة معارف القرن الرابع عشر العشرين

ثمانية آلاف واربع مئة وست عشرة صفحة في عشرة مجلدات

مامن انسان الا وتعرض له مسائل في كل ضرب من ضروب المباحث يجب ان يرى فيها خلاصة سائغة يجدها ساعة طلبها بدون كلفه ولا عناء ، يستغنى بقراءتها عن سؤال العارفين وعن تصفح مطولات الكتب ساعات طويلة . فدائرة معارف القرن العشرين تقوم بتوفية هذه الحاجة فتجيب على كل سؤال يوجهاليها بأوفي بيان. فمقتنيها يكون كمن لديه مجمع علمي مسخر للاجابة على كل سؤال يلقيه اليه في اى فرع من فروع العلم القديمة والحديثة

فمن اراد معرفة كلمة لغوية ، أو قاعدة نحوية ، أو مسئلة فقهية أو شرعية ، أو ترجمة رجل مشهور ، أو تاريخ امة وجغرافيتها ، أو تفصيلات مرض من الامراض وعلاجه ، أو اسعاف اصابة فجائية ، أو تسكين ألم مباغت ، أو تركيب علاج ، أو خواص عشب ، أو قيمة غذاء ، أو حياة نبات أو حيوان ، أو خلاصة فى العلوم الحديثة ، أو رأى في الفلسفة ، أو أى فذلكة احصائية ، أو اي شئ يجيش بالصدور ويدخل في نطاق العلم البشري وجد ذلك ساعة طلبه بعبارة وافية واضحة لأن كل المسائل العلمية فيه مرتبة على حروف الهجاء

فاقتناء مثل هذا الكتاب يغني الانسان عن ادخار مكتبة كاملة ويجعله يشارك كل ذى علم في علمه ويرفعه الى المستوى الذى يتوق اليه فى معترك الحياة . وعصرنا عصر العلم لاتمكن المعيشة فيه بدونه. ومن من الناس يستطيع ان يختار لنفسه الكتب الضرورية له ؟ واين الوقت الذى يمكنه من البحث فى الوف الصفحات ليستخرج منها بعد اجهاد النفس ساعة أو ساعتين ماهو في حاجة اليه في الدقيقة التي هو فيها كاسعاف مصاب بمرض فجائي مثلا ؟

فدائرة المعارف تغني عن هذا كله وتسعف كل طالب بجواب مسئلته من أوثق المصادر ساعة طلبه . ولاجل سد هذه الحاجة الماسة انشئت دوائر المعارف في كل بلد متمدن ، واقتناها حتي العامة فأصبح بها الذي حرم في صغره من العلوم العالية يشارك المتخرج من اكبر جامعة في فهم مايريد الالمام به

وقد اعتمدت وزارة المعارف دائرة معارف القرن العشرين فاشتركت فيها لجميع مدارسها

وقد اتممنا طبعه المرة الثانية منقحة مهذبة وهي موجودة تامة مجلدة وغير مجلدة ثمنها ٥٤٠ قرشاً بدون تجليد و ٦٤٠ مجلدة تجليداً متقناً جداً

تسهيل اقتنائها للراغبين

تسهيلا لاقتناء هذه الدائرة وتأسياً بمؤلفي الغرب رأينا ان نبقي باب الاشتراك فيها مفتوحا فنرسل للطالب مجلداً منها كل شهر بـ ٥٤ قرشاً بدون تجليد وبـ ٦٤ قرشاً بتجليد محولة هذه القيمة علي البوستة

ومن شاء اكثر من مجلد ارسلنا له ماأراد . الطلبات ترسل الى مؤلفها :

محمد فريد وجدى (بوستة السيدة) مصر

على اطلال المذهب المادي

هو كتاب أتينا فيه على جميع اصول الماديين وفلسفتهم وناقشناهم فيها مناقشة علمية وأوردنا آراء عشرات من العلماء والفلاسفة في هذا الباب فجاء اجمع كتاب في اللغة العربية لما تمس اليه حاجة الباحثين في كنه المذهب المادي وفلسفته ونهاية ماعنده من الشبه والاستشكالات

ونظراً لكثرة الكلام اليوم في المادية والماديين نرى ان كل غيور علي الحقيقة

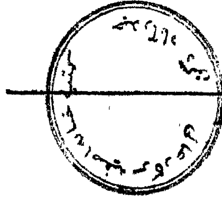
يجب عليه أن يتحصن ضد هذه التعاليم الضارة بقراءة هذا المؤلف الذى وضعناه خصيصاً لهذا الغرض . وهو يتألف من ثلاثة أجزاء :

(الجزء الأول) في المذهب المادي ومناقشة الماديين في أصولهم وآراء رؤساء الفلسفة وأقطاب العلوم فيها

(الجزء الثانى) هو مجموعة مقالات كنا نشرناها في المقتطف تحت عنوان : (اثبات الروح بالمباحث النفسية) أتينا فيها على المباحث التي يجريها العلماء اليوم في أوروبا لاثبات روح الانسان من طريق التجربة وفيه كلام مستفيض على مايسمونه استحضار الارواح وما وقف عليه علماء الطبيعة من ذلك على الاسلوب العلمي التجريبي

(الجزء الثالث) هو ترجمة بحث ممتع للفيلسوف الفرنسي جان فينو صاحب المجلة العالمية اسمه (فتح جديد ـ الروح خالدة) أتي فيه على آراء العلماء ومباحثهم التجريبية فى خلود الروح ، واستطرد الى مباحث فلسفية اخرى تتعلق بذلك

ثمن الثلاثة الأجزاء خمسة وعشرون قرشاً ونصف



دستور التغذى

هو كتاب أتينا فيه علي الاغذية وقيمتها المغذية وما يصلح للامزجة المختلفة ومقاديرها بالضبط كما تعطيه المقررات الكيماوية الحديثة ، وفيه ترجمة فصول ضافية عن ائمة الطب في علاقة الأغذية بالصحة والمرض وفي احسن اسلوب لحفظ الصحة من طريق التغذية الصالحة الخ الخ

ثمنه سبعة قروش ونصف